

سفر العودة

رواية

تأليف

أحمد حسن إبراهيم

سفر العودة

المؤلف : أحمد حسن إبراهيم

تصميم الغلاف : أحمد بلال

الطبعة الأولى : يناير 2019

رقم الإيداع : 2019/2706

الترقيم الدولي : 978-977-769-246-5

جميع حقوق الطبع محفوظة

الناشر: أوراق للنشر والتوزيع

awraaq@live.com

القاهرة - 4 شارع محمد مظلوم -

من صبري أبوعلم - عمارة

أنور وجدي - الدور الثاني - مكتب 25

م : 01010490247

ت : 0223963002 (+2)

الإهداء

إلى دفء الأبوة، الذي لم أعرفه... ولكنني تمنيتُه

تنويه

إذا تشابهت أي شخصية من شخصيات هذه الرواية وشخصيات حقيقية، أو تقاربت المواقف بأحداث واقعية، فإن هذا يعد من باب المصادفة ليس إلا.

موسى «موشيه»

تل أبيب

قلت بانفعال يغلب عليه التوتر:

- لم تأخرت يا داني؟

- لقد كنت أنفذ تعليماتك يا أبي. فكما قلت، السيد شيمون يهبط من السيارة في الشارع الخلفي، ويعبر الممر الخاص الموجود بين بيتي إيزاك وشامير، ويدخل بنايتنا من الباب الخلفي الصغير حتى لا يراه أحد... لم أنتظر حتى يكمل داني، ولكن قاطعته قائلاً:

- إذن كما اتفقنا، ستصحب السيد شيمون وتخرجان سوياً من الباب الأمامي للبناية، ولا تنسيا إغلاق الإضاءة الخارجية حتى لا يتسنى لمن يراقبكما التحقق من شخصيتكما... سيد شيمون، أرجو أن ترفع ياقة معطفك وتحاول قدر إمكانك إخفاء وجهك عمن قد يكون يراقبك، كي يظن أنك أنا... آه، داني، كدت أن أنسى، هل صففت سيارة السيد شيمون في المكان الذي اتفقنا عليه؟

- نعم، كما قلت، أمام منزل السيد حزان، المكان هناك مظلم تماماً،

فمصباح الشارع مطفأً، وبالطبع السيد حزان لا يُضاء أي مصباح داخل أو خارج بيته.

قال داني جملته الأخيرة ساخرًا من حرص السيد حزان، إلا أن الوقت لم يكن ملائمًا لأي دعاة، فلم أبتسم كعادي استجابة لمداعباته، وإنما قلت حاسمًا:

- حسنًا، إذن هيا بنا.

كنت حينئذ أقف بجوار النافذة وقد أزحت الستائر قليلًا لأرقب الشارع، فتقدم داني باتجاهي من حيث كان لا يزال واقفًا أمام المرأة الكبيرة الملاصقة لباب الشقة منذ دخوله، وقد صُفت بجواره حقبة متوسطة الحجم وأخري للسيد. فقال وهو يقترب مني، محاولًا التأكد من صحة شكوكي:

- ولكن يا أبي هل أنت واثق من.....

- داني، وماذا سأنتظر، خاصة بعد حادث مقتل الرائد جاك هذا الصباح في حادث سير... على الأرجح أنه مدبر.

قلت عبارتي الأخيرة تلك وأنا أهز رأسي، وأخفض صوتي، وأقلب يدي، فبدوت وكأنني أتأرجح بين الشك واليقين. فعلق داني مشفقًا علي:

- أبي هل أنت مطمئن؟

زمت شفتي، ورفعت يدي كمن لا حيلة له، وقلت:

- فات أوان الاطمئنان، كل ما علينا الآن أن نتحرك... كما قلت لك ستوجهان بالسيارة شمالًا إلى شارع إيلون عسى أن تتبعكما تلك السيارة

التي ترابط أمام البناية منذ ساعات، وأنا سأستقل سيارة السيد شيمون متوجّهاً للمطار. وسأتصل بكما لأخبركما أين صفتها.

- وبماذا أعلل لأمي سبب غيابك؟

- إياك أن تخبرها بأي شيء، كيلا تتدهور صحتها، بالطبع لن أستطيع زيارتها في المستشفى قبل رحيلي. فقط قل لها إنني سافرت إلى باريس لحضور مؤتمر «سبل فض النزاعات بالطرق السلمية» فهي على علم بميعاد انعقاده.

أجاب داني وهو يهز رأسه موافقاً:

- بالطبع لن أخبرها، فحالتها لا تحتمل.

- ولكن هل أخبرت زوجتك بموعد وصولي لباريس؟

- نعم وقالت إنها ستعمل جاهدة على أن تنتظرك في المطار، وأن كنت أشك في أنها ستستطيع ذلك، فهي الليلة خارج باريس في لقاء مع أعضاء من جمعية «السلام الآن»، ولكن بالطبع لا بد أن تكون في باريس غداً، فهي موفدة جريدتها للتغطية الصحفية للمؤتمر.

- لا بأس، سأندبر أمري.

ثم التفت لشيمون وقلت مقررًا حقيقة ولكن بنبرات مداعبة:

- إن ابتك مثلك يا سيد شيمون، تقدس عملها وتضعه فوق كل

اعتبار.

ابتسم ولم يعقب. اقترب داني مني أكثر، ثم خلع الكوفية، المصنوعة من الصوف، التي يحيط بها عنقه، وقال وهو يلفها حول عنقي:

- الجو بارد جدًا بالخارج، أرجو أن تحتفظ بتلك الكوفيّة لتدفيّ بها رقبتك وصدرك.

قبلتها مبتسمًا، وهزّزت رأسي موافقًا. فمنذ أن تجاوزت السبعين، تبادلنا أنا وداني الأدوار، وصار هو من يهتم بصحتي ويحرص عليها. أطرق داني قليلًا، وعندما رفع رأسه كانت الدموع تترقق في عينيه، وقال بجزع:

- أبي... سأفتقدك.

- سنلتقي قريبًا بإذن الرب.

عانقني، وظل للحظات يربت على ظهري ويمسحه براحة يده. فتعجلته قائلاً وأنا أغالب دموعي:

- حبيبي، كما قلت لك سنلتقي قريبًا. هيا لا توجد لدينا فسحة من الوقت لنضيعها، الطائرة موعدها بعد خمس ساعات، ويجب ألا أدع هذا الوقت الثمين يهدر هباء، فربما تفشل خطتنا تلك وأكون مضطرًا لتدبير طريقة أخرى للهروب من المراقبة. هيا، هيا لا تضيعا المزيد من الوقت. صافحت السيد شيمون. توجهنا للباب، وعندئذ التفت داني ملوحًا بيده وقال:

- احرص على سلامتك يا مو، لن أسامحك إذا أصابك مكروه.

ابتسمت مطمئنًا داني. ولكنني أعقبت:

- المهم أن تصل الحقيقة للناس.

انصرفا بعد أن أطفأنا جميع أنوار الشقة لتبدو خالية.

من خلف الستائر راقبت سيارتهما ترحل، وانطلقت في أثرها سيارة المراقبة. فحمدت الله. انتظرت خمس دقائق وحملت الحقيبتين المصفوفتين بجوار الباب وغادرت الشقة متوجّهاً لمطار بن جوريون مستقلاً سيارة السيد شيمون من حيث صفها داني أمام منزل السيد حزان وسط ليل بهيم.

~~~~~

الشتات... الشتات هو قدرتي منذ طفولتي. نفس الطريق أسلكه. نفس الآلام أتجرعها. أفارق كل من أحببت، أهجر كل ما ألفته. في لحظة الرحيل الأخيرة، ألقى داني بهذا التساؤل قبل أن يغادر الشقة وهو واقف أمام الباب ناظرًا إلى الحقيبتين:

- أي هل أخذت معك ما تحتاج من متاع؟ فغيبتك قد تطول.  
- لا وقت يا بني، المهم الآن هو أن أغادر بأسرع وقت ممكن.  
ذكرني تساؤله بحديث مشابه دار بين أبي وأمي منذ أكثر من خمسين عامًا:

- حسونة، هل سنترك كل شيء؟  
- لقد بعث تقريباً كل ما نملك... ولكن.  
- لكن ماذا؟  
- كما ترين، نحن في عجالة من أمرنا، كي نلحق ببخرة الصليب الأحمر المغادرة غدًا من ميناء الإسكندرية. فاضطرت لبيع الكثير مما نملك، ولا نستطيع حمله معنا، بثمن بخس.  
- ليس الثمن هو المهم.

قال أبي ساخرًا وهو يهز رأسه:

- فما المهم إذن؟

صمتت أُمِّي قليلًا، ثم قالت في أَسَى:

- المهم أن هناك أشياء لا تباع ولا تشتري... أهلنا، جيراننا، ذكرياتنا، حياتنا كلها...

- لم يكن الأمر بأيدينا، إنما أجبرنا عليه.

- أجبرنا عليه، أم هي أوامر وتوجيهات؟

أطرق أبي صامتًا، ثم رفع رأسه ببطء وهو يقول باستسلام:

- بل قولي ضغوط.

- ولم نرضخ لضغوطهم يا حسونة.

لم يجب، واستأنف حزم الأمتعة، وإن بدا عليه التوتر الشديد، والانفعال المتزايد، حتى ظننت أنه على وشك الانفجار وهو يشد الحبل بقوة حتى يحكم إغلاق الحقيبة. فجأة انقطع الحبل، واندفع أبي للخلف ساقطاً على ظهره، فقام حانقاً وهو ممسك بقطعة الحبل المقطوعة في يده، وظل ينظر إلينا جميعاً، أنا وأُمِّي وأختي راحيل وأخي داوود - الذي أطلقت اسمه على ابني الأكبر لشدة حبي له، ولكن بتعديل بسيط، إذ صار دافيد بدلاً من داوود - أطاح أبي بقطعة الحبل بكل قوته فارتطمت بوجهي، لم يعبأ بعيني التي أصيبت، وإنما التفت لأُمِّي وقال بحزم وبندرات لا تخلو من التقريع:

- كفالكِ هراء، أنتِ تعرفين جيداً قدر الضغط الهائل الذي تعرضت له سواء من الخارج على يد جماعة «ها - شومر ها - ترائير». أو من الداخل،

خاصة بعد القبض على مائير وداسا وناتاسون واتهامهم بالتجسس لصالح إسرائيل. لقد دفعوهم لأن ينظروا إلينا على أننا يهود... أجنب... طابور خامس. وإسرائيل تدفع ناصر دفعاً كي يتخلص منا باعتدائها المتكرر والمستفز على غزة وسيناء.

تهالك أبي على المقعد وهو يقول:

- فماذا ننتظر... ماذا ننتظر.

ثم ألقى بوجهه بين كفيه وأجهش بالبكاء. جلست أُمي على الأرض عند قدمي أبي وقالت وهي تغالب دموعها:

- عانينا لأننا يهود، والآن نعاني لأن هناك دولة اسمها إسرائيل.

- كيف لشاب مثلي لم يتجاوز السابعة عشرة حينها أن ينسى مشهد أبويه وهما يكيان. كل حرف، كل كلمة، كل حركة، كل التفاتة، كل شيء، أتذكره وكأنه حدث بالأمس.

ضغطت ذراع الإشارة لأسفل لأنبه السيارة القادمة من خلفي بأني سأنحرف لليمين للدخول في الشارع الجانبي. توقفت بالسيارة، تلفت باحثاً عن علبة المناديل الورقية، لا أدري أين يضعها شيمون. وجدت ملقاة على الكنب الخلفية. جذبت ورقتين، جففت بهما عيني. فعلى الرغم من مرور أكثر من نصف قرن على هذا الحديث الذي دار بين أبي وأُمي عشية مغادرتنا لمصر، وحتى وإن كنت في مثل ظروف العصيبة وحياتي على المحك، إلا أنني لا أستطيع مغالبة دموعي كلما تذكرته.

فتحت باب السيارة وهممت بمغادرتها، فلفح وجهي هواء بارد كأنني

أقف أمام ثلاثة المجملات في السوبر ماركت، فشددت طرف كوفية داني ولففتها حول وجهي. تلفت حولي متفحصاً كل شيء بدقة. الشارع شبه مظلم وخالٍ تماماً. الحركة فيه سواء من المارة أو من السيارات، شبه معدومة، معظم النوافذ مغلقة والستائر مسدلة، أضواء خافتة قليلة تنبعث من بعض النوافذ، الكل خلد للنوم في هذه الساعة المتأخرة، آوياً إلى فراش دافئ متدثراً بالأغطية هرباً من برد شتاء تل أبيب القارص. فقط بعض أضواء السيارات تلمع خاطفة على البعد وهي تمر بسرعة قاطعة مفرق هارتسليا. ولا يحرك سكون الليل سوى صوت تلك السيارات العابرة وهي تشق الريح، ومواء قطرة تعلن عن دعوتها لأي ذكر كي يطفئ حرارة شبقها الذي يبدو أنه أشد من هذا الصقيع الذي يجمد الأطراف. اطمأن قلبي إلى أن ما من أحد يتعقبني. فهل نجحت خطة التمويه حقاً؟ هل استطعت الإفلات؟ أتمنى ذلك.

شعرت بقشعريرة تسري في بدني، وانتابني نوبة من العطس المتواصل، ثم بدأ أنفي في الرش. عدت لداخل السيارة وسحبت منديلين ورقين جففت بهما أنفي. فتحت حقيبتني وأخرجت نقطاً للأنف ووضعت منها بضع قطرات في كل فتحة، ثم ابتلعت قرصين من الحبوب المسكنة المضادة للرشح، تحسباً لإصابتي بالزكام.

ما زال الوقت مبكراً، الطائرة ستقلع بعد خمس ساعات. أفضل لي أن أمضي بعض الوقت هنا بعيداً عن الأعين حتى يحين موعد إقلاع طائرتي. فالمطار يعج برجال الأمن والمخابرات من كل الهيئات والوكالات.

أجريت اتصالاً من هاتفي المحمول كي أطمئن دافيد وشيمون وأخبرتتهما بمكاني وبما انتويته.

أدريت مذياع السيارة، وظللت أحرك مؤشر البحث، حتى سمعت صوت عوفرة ينساب برقته ونعومته، فتوقفت يدي عن العبث بالمؤشر، وأرهفت السمع لصوتها الناعم الذي طالما أثار شجوني بملائكيته، واسترخيت مستمتعاً بمشاعري الدافئة التي تتحرك مدفوعة بأدائها النابض بالحب والإحساس، المملوء بالبراءة والشجن. تمامًا كمشاعري الغضة التي تفتح لها سمعي منذ طفولتي على صوت ليلي مراد العذب وأدائها السلس. كانت عوفرة تصدح بأغنياتها الرائعة شادي، تلك الأغنية التي طالما أهاجت ذكرياتي، وأذابت مشاعري شوقاً وحنيناً لأيام مضت، أيام طفولتي وشبابي، أيام الاستمتاع بدفء العلاقات المصرية، وبأحضان أمي وحنانها الدافق. أصل لقمة حنيني، وتنهمر دموعي، عندما تشدو في أحد مقاطعها باللغة العربية مستلهمة أصلها اليميني:

يا روجي يا روجي يا يُمّه

راويني فين بيتك

أنا مظلومة يا يُمّه

بعيد بعيد منك يا يُمّه

مددت يدي إلى جانب المقعد وتحسست الذراع الموجودة أسفلها وجذبتها لأعلى، فانساب ظهر المقعد بخفة للخلف، فردت ظهري، وملت برأسي للجنب وأغمضت عيني، فتداخل طيف عوفرة بخيالات

من ماضٍ تسبح فيه أطياف أحبائنا، وتدغدغ مشاعري بأمنيات إحياء  
ذكريات انقضت ولم يبقَ منها سوى حلاوة الاستمتاع بأحضانها  
والاستئناس بقربها. حتى ولو كان ذلك في عالم الخيال.

\*\*\*\*\*

- هيا استيقظ يا ملاكي.

أفتح عيناى على صفحة وجه أُمى الباسم ولمسات أصابعها الحانية وهي  
تعبث بخصلات شعري، وأول ما تلتقي عيناى تغني بهدوء وهي تضغط  
بيديها الرقيقتين على سائر جسدي بضغوط حانية لتنشطني وتحفز همتي  
كي أنهض سريعا:

- صباح الخير صبح

- ورد الجنان فتح

- صبحوا ربحوا

- بين عباده ما تفضحوا

- ده صباحه عندنا

- أحسن م المال والغنى

- وأحسن من عشر جموسات

- يجلبوا في الدار عندنا

ثم تقبل جيبني برقة وهي تقول:

- هيا يا موسى، قم يا صغيرى حتى تلحق بأبيك، ولا تنس أن تضع

قدمك اليمنى قبل اليسرى في شبشبك.

يتضاعف استمتاعي وأنا أسمع وأرى أُمِّي تقوم باتباع نفس أسلوبها الفريد في إيقاظ أخواني، داوود وراحيل، مستعينة برصيدها المائل من الحب. فتظل لمساتها الحانية، وصوتها الهادئ، هما ذخيري طوال اليوم. وأظل في انتظار صباح آخر لأشحن مشاعري بأحاسيسها الجياشة ومشاعرها الفياضة. كنت في بعض الأيام أستيقظ قبل موعدي، ولكنني أبقى في الفراش مغمض العينين في انتظار تلك المنحة الربانية الرائعة. اليوم لن نذهب للمدرسة الكاثوليكية التي أصر أبي على إلحاقنا بها، متحدياً رغبة أُمِّي وإصرارها على إلحاقنا بمدرسة يهودية تقليدية كي نحافظ على هويتنا الدينية، لكن إصرار أبي كان أقوى، إذ علا صوته وهو ينهر أُمِّي:

- لم تريدن لأبنائنا مستقبلاً مظلماً في مدارس لا تعلم شيئاً، سوى تلاوة بعض المزامير. ولا تؤهلهم لمستقبل أفضل. إنها مدارس متخلفة، متدنية المستوى، ولا فائدة تعود على أبنائنا من التحاقهم بها. انظري لعساف ابن عوفاديا، إنه لا يعرف كيف يكتب اسمه، ولم يتعلم مبادئ الحساب، إنه حتى لا يعرف كيف يصلي، إنه لا يصلح أن يكون أكثر من بائع متجول. انسي هذا الموضوع تماماً، فلن أقضي على مستقبل أبنائي بإلحاقهم بتلك المدارس المتخلفة.

اليوم يوم مميز لأنه السبت، ولكنه ليس كأبي سبت، فقد مرت عشرة أيام منذ احتفالنا ببداية السنة اليهودية. تلك الأيام العشر الماضية قضتها أُمِّي كلها في الصلاة والاستغفار، عل الله يغفر لنا ذنوبنا ويطهرنا من آثامنا.

في يوم الاحتفال برأس السنة، ظللنا نردد الآيات خلف أبي، الذي، أمام إصرار أمي، لم يستطع الإعلان عن ضجره وضيقه الشديدين من ممارسة تلك الشعائر البالية - على حد قوله - فظل يردد بملل ونحن نردد خلفه «لقد رأى نوح الرضا في عين الخالق»، «وقد راعى اسحق ري هذه الأرض وباركه الله»، «نورك هو قوة العادل وفرحة المؤمن»، وآيات أخرى كثيرة، وكل آية تردد عدد معين من المرات، تلك اثنتا عشرة مرة وتلك عشر فقط أما هذه فسبعة عشر، كثيرًا ما كنا نخطئ في العدد، فنكتم الضحك ونحن نرى أبي وأمي يتجادلان حول صحته:

- ثمانية.

- بل تسعة.

- لا بل ثمانية فقط.

- أنا الذي أردت الآيات، وقد عدتها جيدًا.

- إذن فلنبداً من جديد.

- لا ... لا ... لا.

عندئذ نفجر ضاحكين، فتنهنا أمي بشدة. نتحمل كل ذلك منتظرين الوصول لنهاية الاحتفال الديني برأس السنة بفارغ الصبر، منتظرين الوصول للاحتفال الغذائي، حيث يقوم أبي بمباركة الخبز المحلى بالسكر، ومن ثم نبدأ في التهام الوليمة التي أعدها أمي، رؤوس السمك، لحم خروف، لوبيا، كرات، رمان، بلح.

تم كل ذلك منذ عشرة أيام، ولذا فغدًا، الأحد، هو يوم عيد الغفران.

وتلك مناسبة قليلة الحدوث وعظيمة الشأن، أن يكون يوم كيور موافقاً ليوم الأحد. وككل عام، أول شيء سأفعله بعد استيقاظي، هو أن أطمئن على أن حبوب القمح، التي وضعتها منذ أسبوعين في صحن عميق به قطعة من القطن المبلل، قد أنبتت، فيكون ذلك بمثابة فأل حسن، وبإذن الله ستكون تلك السنة، سنة خير ورخاء على العائلة. ثم ننطلق أنا وداوود وراحيل ونحن مازلنا بلباس النوم وأمنا تنهرنا «لا تغادروا البيت بملباس النوم» ولكننا لا نستمع لنصحها، فتستكمل وهي تضحك مستسلمة «إذن على الأقل ارتدوا أحذيتكم». نصعد مسرعين للسطح كي نتفقد حظيرة الدواجن ويعاين كل منا ضحيته التي اختارها منذ أكثر من شهر وظل يطعمها، مستوصياً بها، كي تفوق الأخريات حجماً. سيتم التضحية بديك عن الذكر ودجاجة عن الأنثى، لذا فالليلة ستُذبح ثلاثة ديوك عن ثلاثة ذكور، أنا وداوود وأبي، وثلاث دجاجات عن ثلاث إناث، أمي وراحيل وخالتي هيلينا. حتى السنة الماضية كنا نذبح أربع دجاجات، ولكن العدد سيتقلص هذا العام لثلاث فقط نظراً لرحيل جدتي بعد صراعها الطويل مع المرض.

نذبح عن خالتي هيلينا لأننا جميعنا نقيم في نفس البيت الذي كان مملوكاً لجددي، أبو أمي، بحي حارة اليهود، وآلت ملكيته لأمي وخالتي هيلينا وخالي يوسف بعد رحيل جدي وجدتي. البيت مساحته لا تتجاوز مائة متر مربع، ويتكون من ثلاثة طوابق. الطابق الأرضي عبارة عن فرن خصصه جدي لعمل فطير الماتسا، غير المخمر. ذلك الفطير الذي يأكله

المؤمنون طوال العام، ولكن تناوله في عيد الفصح طقس عام مقدس لكل اليهود. لم أستطيع طعم هذا الفطير أبدًا ولكنني كنت مضطرًا لأكله في أيام العيد إرضاء لأمي، فأقضم منه قضمتين، ثم أخفي بقية فطيري لأتخلص منها فيما بعد. ولكنني امتنعت تمامًا عن أكله بعد أن نبهني صديقي عزيز أن من شروط صنع هذا الفطير أن يعجن بدم صبي مسيحي. فسألت أمي ببراءة:

- من أين يأتي جدي بصبي مسيحي ليذبحه ويعجن الفطير بدمه.  
نهرني أمي وعنفني بشدة:

- من الذي قال لك هذه الخرافات، هذا محض افتراء، مجرد أكذوبة اختلقوها كي يتخلصوا منا، لا تصدق هذا الهراء. فالرب يقول في التوراة «لا تأكلوا دم أي جسد كان».

- ولكن عزيز أكد لي أن تلك تعاليم التلمود. وحمد الله كثيرًا أن عائلته من اليهود القرائيين الذين لا يؤمنون بالتلمود.  
أجابت أمي بضيق وتردد:

- ربما يستخدم جدك في العجين دما مجففًا جاهزًا... يشتريه من الحاخام بنحاس.

عندما أبديت دهشتي، وهممت بفتح فمي لأتكلم. قطعت أمي المناقشة، قائلة بلين:

- حبيبي، نحن فقط نأكل هذا الفطير غير المخمر كي نتذكر خروج أجدادنا من مصر بصحبة موسى أيام الفرعون، وهم يحملون معهم

عجبتهم، الذي لم يتخمر بعد، نظرًا لتعجلهم. هذا كل ما في الأمر.

فأقول لنفسي «مالي أنا ومال خروج أجدادي من مصر، حتى أكون مضطرًا لتناول هذا الفطير المصمت المعجون بالدم». وينقلب هذا السخط داخلي إلى سخرية، ولكني، بالطبع، لا أستطيع أن أفصح عنها، وذلك عندما نتلو صلاة عيد الفصح بعد أكل فطير الماتسا «إن هذا هو خبز بلائنا، نحن اليوم عبيد ولكننا سنكون في العام القادم رجالا أحرارًا، ونحن اليوم موجودون هنا، ولعلنا نكون العام القادم في القدس». أكرز على أسناني كي أكتم ضحكي، فهو بحق خبز بلائنا، إن أكله هو البلاء بعينه. ولكني دائمًا ما كنت أتساءل «هل نحن عبيد حقًا؟ إننا نعيش في مصر أحرارًا! ولم نتمنى أن نكون العام القادم في القدس؟ أنا سعيد هنا بوجودي في مصر». عندما أبوح بتساؤلي هذا تختلف الإجابة حسب من أسأله. فأمي تقول:

نعم يا بني، فأجدادنا من نسل إسرائيل كانوا عبيدًا في مصر أيام الفرعون، وجاء خلاصهم على يد نبي الله موسى، الذي أمرهم بالخروج منها. الخروج من مصر يا ولدي كان محنة وابتلاء لبني إسرائيل، لذا نقول إنه خبز بلائنا. أما ما تعرض له اليهود بعد ذلك من اضطهاد وشتات جعلهم دائمًا يحنون لعودتهم للقدس كي يستعيدوا أعجادهم أيام الملك سليمان. لذا فقولنا: «لعلنا نكون العام القادم في القدس» إنما هذا تعبير مجازي عن شوق اليهود جميعًا وتوقهم الدائم لإنهاء معاناتهم التاريخية. إنهم يحلمون بالعودة للقدس كدعاة وليس كغزاة. ونحن في ذلك اليوم، نأكل هذا الفطير ونتلو هذا الدعاء كي نتذكر تلك المعاناة ونستشعر نعمة

الرب علينا، وما نتمتع به من أمان افتقده أجدادنا. ولكننا باقون في مصر، فلا يوجد داعٍ لرحيلنا عنها.  
أما أبي فأجابته تختلف تمامًا:

- اليهود يا بني قوم مميزون، اختارهم الله ليكونوا أبناءه في الأرض. لذا فتاريخنا واحد، وجوهنا متطابق، وقدرنا مشترك. طبيعة وأخلاق اليهودي لا تختلف باختلاف الزمان والمكان. فنحن قوم لنا خصوصيتنا، لم نتزوج من الأغيار لذا فعرفنا نقي ودمنا خالص. ولهذا فنحن دائمًا محط غيرة وحسد غيرنا من الأمم فاضطهدونا وشتتونا في كل بقاع الأرض وقد آن الأوان أن ننهي شتاتنا ونعود لأرض أجدادنا. فقد قبض الرب لنا من يؤمنون بضرورة عودتنا لأرض صهيون وننهي عذابنا وخوفنا وشكنا. فهذا وعد الرب لنا حين قال لنبيه إبراهيم «لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات».

فأستفسر ببراءة:

- أليس إسماعيل أيضًا من نسل إبراهيم؟ هكذا علمتنا أُمي. إذن فنسله له الحق أيضًا في تلك الأرض.

- ولكن الرب يقول.....

عند هذا الحد ينفد صبر أُمي وتتدخل محتجة على آراء أبي، فهي لا تدعه يحدثنا في أمور العقيدة دون أن تسترق السمع، وعندما لا يروقها الحديث تتدخل لتصويب ما تراه خطأ في كلامه، متخوفة من منطق أبي المقلع ولسانه الفصيح، اللذين مهدا له الطريق ليعمل كصحفي بالقطعة في

جريدة الشمس، ذلك بجوار عمله الأساسي كموظف ببنك مصر. فتقول بحزم:

- أرجو يا حسونة أن تكون آراؤك الصهيونية تلك شأنًا خاصًا بك، ولا تدعها تفسد معتقدات الأولاد. ولا تستغل آيات التوراة المنزلة من رب لا تؤمن به لإثبات معتقد دنيوي تؤمن به.

ثم تنظر إليّ محاولة تصحيح المفاهيم من وجهة نظرها:

- حبيبي، عودتنا إلى صهيون مرهونة بمشيئة الرب، فهو من يحدد مواعدها، لذا فعلينا الانتظار، وأي محاولة منا بالعودة هي مخالفة لأوامره وإجبارًا له على التعجيل بالنهاية، وهذا يعد كفرًا... فهمت فتوجهت لأبي متسائلًا:

- لم أفهم! فهل هذا يعني أننا سنرحل نحن أيضًا لأرض صهيون أو لا؟

حتى ذلك الحين، عام 1946، كانت إجابة أبي لا تزال متارجحة بين النفي والإيجاب، كان موقفه غير محدد بشكل قاطع ونهائي، لكن الأيام بلورته بمرورها والسنون حددته بأحداثها.

في الحقيقة أن كل ما كان يعنيني حينها أن أجد ما أتحجج به لأتجنب أكل هذا الفطير. الذي من أجله شيد جدي بيتًا ليفتح في طابقه الأرضي فرناً ليخبزه فيه، كي يذكرنا دائمًا بعذابنا وشتاتنا، ويعذبني أنا بأكله لمدة سبعة أيام. أسبوع كامل أنتظر انتهاءه بفارغ الصبر، ففي اليوم الثامن تنتهي المعاناة حيث نحتفل بعيد شم النسيم فنأكل الخبز الشامي بدلًا

من خبز الماتسا وبجانبه الفسيخ والبيض الملون. ونلقي بأوراق الخوص أمام مدخل البيت لنباركه.

أعلى الفرن، في الطابق الأول من بيت جدي، تقيم خالتي هيلينا، التي تكبر أُمي بعدة أعوام، ولكنها لم تتزوج حتى الآن، وصارت وحيدة بعد وفاة جدي وجدتي وهجرة خالي يوسف لأريكا، لذا فهي تعتبرنا أبناءها وتفيض علينا من حنانها وعطفها تمامًا كأُمي، كما أنها لا تبخل علينا بها. أما الطابق الثاني والأخير، هو طابقنا الذي نقيم به.

نهبط من السطوح بعد أن نتبارى في أي من دجاجتنا أكبر من الأخريات، حتى تبكي راحيل لأن دجاجتها بالطبع أصغر من ديكانا أنا وداوود. حال هبوطنا نشم رائحة الجاز تعبق البيت ونسمع صوت «وابور» الجاز عاليًا في الحمام حيث تهيئ أُمنا الماء الساخن لاستحمامنا، ونجد طعام الإفطار قد أعد، فول بالزيت وبعض أقراص الطعمية التي تقلبها أُمي في البيت، وقطع الباذنجان بالخل، ومازال هناك بعض من حبات الزلاية التي أهدتنا إياها أُمس، جارتنا أم مصطفى - المقيمة بالبيت المجاور لبيتنا - ترسلها لنا يوميًا بعد تناولهم طعام إفطار رمضان، فقد وافق أن يقع يوم عيد الغفران لهذا العام في منتصف شهر رمضان. صوم يوم عيد الغفران واجب، لذا فمن اليوم، ولمدة خمس وعشرين ساعة، سنشارك المسلمين الصيام، سنمتنع خلالها تمامًا عن الطعام والشراب، بداية من قبل غروب شمس اليوم بنصف ساعة، وحتى نصف ساعة بعد غيابها غدًا. بالطبع لا نستطيع أنا وداوود وراحيل تحمل كل تلك الفترة من الصيام ولكننا نبدأ

في التدريب عليه بالصوم فقط حتى الظهيرة.

قبل الاستحمام، أستمع لنصائح أُمي على عجلة وأنا أردد بضيق وضجر «حاضر، حاضر». فمِنذ أن بلغت السابعة، من عدة أشهر، وأنا أرفض تمامًا أن أستحم بيد أُمي، لذا تظل تردد على سمعي «ليف الليف جيدًا بالصابون، ادعك جسمك جيدًا، لا تنسَ تحت إبطيك، وحول... وتشير بيدها لأماكن لا تفصح عن أسماؤها، وتتبع إشارتها بتأكيد آخر، ها لا تنسَ. لقد أعددت الماء، وخلطت البارد بالساخن حتى صار مناسبًا، فتشطف جيدًا، ولا تترك آثارًا للصابون على جسديك. استخدم «الكوز» الأبيض ولا تستخدم الأزرق، و.....». بعد الاستحمام أرتدي ملابس جديدة، وإن لم تكن هناك ملابس جديدة، فسأرتدي أفضل ملابس، ومن ثم يصطحبنا أبي، أنا وأخي داود، لمعبد «رب موسى» المشيد تحت الأرض بعطفة حمام اليهود بدرج محمود، كي نقيم الصلوات. كانت آخر زيارة لي لهذا المعبد منذ تسعة أشهر بصحبة جدتي لأُمي، من أجل طلب الشفاء، حيث اشتهر هذا المعبد بوفود أصحاب الأمراض المستعصية إليه أملًا في الشفاء. فكما يقال، كم من أعمى أبصر، وكسيح مشى، وعافر حملت، بعد زيارتهم للكنيس. يوم الزيارة التي تمت من تسعة أشهر، وقبل مغادرتنا البيت، اغتسلت للصلوة كما علمتني أُمي. بعد دخولنا المعبد، خلعنا، أنا وجدتي، نعلينا ودخلنا السرداب الذي يفضي إلى الغرفة المقدسة حيث دفن الطبيب المشهور والفقير العالم موسى بن ميمون لمدة سبعة أيام قبل نقل جثمانه ليدفن في طبرية بفلسطين. ولكي ينعم الرب على المريض بالشفاء

يجب أن ينام في تلك الغرفة من غروب الشمس حتى مطلع الفجر. كانت الغرفة مليئة بذوي الحاجات من المرضى، يهود ومسلمين وأقباط. رأيت يومها اللوحة التذكارية التي تصف زيارة الملك فؤاد للغرفة المقدسة طلباً للشفاء. ولكن للأسف، يبدو أن المعجزات التي واجهت كل الأمراض المستعصية، عجزت عن مواجهة حالة جدتي، فقد توفيت بعد تلك الزيارة بيومين.

منذ أن توفيت جدتي لم يتوقف إلحاح أبي على أمي كي نرحل عن حي حارة اليهود الذي لم تعد الإقامة به تليق بمرکز أبي الجديد كموظف ببنك مصر، علاوة على امتلائه باللصوص والعاطلين، إضافة إلى شهرته بأنه يضم فقط فقراء اليهود وأدناهم في المنزل الاجتماعية. فيظل أبي وأمي يتجادلان، حتى يصل أبي دائماً لنفس التبرير الذي يسوقه لها، فيقول:

- أظن أنه بعد رحيل أمك لم يعد هناك مبرر لبقائنا في هذا المكان الموبوء.

لا تجيب أمي، وتظل منشغلة بما تفعله. فلا يئأس أبي:

- أنا أعلم جيداً قدر ارتباطك بهذا البيت، ولكن حبيتي الحارة لم تعد مكاناً يليق بنا. مجرد انتسابنا إليها يعد وصمة يجب علينا التنصل منها... ناتاليا، أنا لا أجروء أن أذكر أمام زملائي في البنك أني من ساكنيها. فتتظر إليه أمي وعيناها يملؤها الرجاء بأن يتوقف عن محاولاته الملحة، ولكن لا أمل، فتتعلل بخالتي هيلينا قائلة:

- وهل نترك أختي وحدها.

- لا بل ترحل معنا.

وعندما يرى أبي أنها قد بدأت تلين، يتحمس أكثر:

- آه لو رأيت الشقة التي أنوي الانتقال إليها، شقة واسعة، بحرية، تطل على حديقة، في حي راقٍ... في الظاهر... تقع في بناية بجوار معبد يعقوب، معبد جديد فسيح به مكان مخصص للنساء، وليس معبدًا صغيرًا لا مكان به للنساء كمعبد رب موسى. وإن كنت قلقة على هيلينا، فكما قلت لك، الشقة واسعة ويمكن أن تقيم معنا. ولعلمك فقد أقنعت زكي أيضًا بالرحيل عن الحارة، وسيؤجر الشقة المقابلة لنا، وبذلك لن تفتقدي حبيبتي إيفيت.

- والفرن.

- أغلقه... بعيه هو والبيت، هناك مشترون كثير.

ترفض أمي قاطعة، ولكن أبي لا ييأس.

تكرر هذا الحوار بينهما مرات عديدة، حتى كان هذا الصباح، قبل خروجنا للذهاب للمعبد، عندما أعلنت أمي عن آخر قراراتها بعد أن دار حوار مماثل مع أبي. فقالت كالمستسلم الذي يتقبل شروط المنتصر:

- لك الحق فيما تقول، لا مفر من الرحيل عن حارة اليهود. فلتؤجر شقة الظاهر، وسنتقل إليها، ولكن لا تتعجلني.

ولكنها استدركت وقالت بحسم:

- ولكننا سنحتفظ بالبيت والفرن. أما هيلينا، فإنها ترفض أن تأتي معنا وستظل هنا لتشرف على إدارة الفرن.

بعد أن شرب أبي قهوته على الريق، كما تقتضي التعاليم الدينية في ذلك اليوم، تهمى ثلاثتنا، أنا وأبي وداوود، للذهاب لكنيس «رب موسى». وقبل خروجنا، نادى أمي من الداخل:

- حسونة... لا تنسَ التفيلين.

- أف، ماذا جرى يا ناتاليا، هل لأن الرب قال «ولتكون هذه الكلمات التي أمرك بها اليوم، علامة على يدك وتكون منشورة بين عينيك» أن يعني هذا أن نطبق هذا الكلام حرفياً، إنه تشدد الحاخامات، هداهم الله. هل ستفسد صلاتي إذا لم أعلق تلك التائم في يدي وفوق جيني؟!... ولكي تتراحي، فهؤلاء الحاخامات أيضاً هم من قالوا بعدم جواز ارتدائها في يوم السبت. وحمداً لله فالיום يوم السبت.

سكتت أمي قليلاً، ثم قالت:

- إذن لا تنسَ ارتداء الطاليت.

بضيق شديد، انتزع أبي شال الصلاة الأبيض المزود بشراشيب تتخللها خيوط زرقاء من فوق المشجب، ووضعه حول رقبته وهو يدعو بصوت عال كي يُسمع أمي «باركني يا سيدي يا ملك العالم يا من عظمتنا بنزول التوراة». علمت فيما بعد لماذا لم تصطحبنا أمي حتى الباب لتودعنا كعادتها، ولم تقبلنا أو تناول أبي التفيلين أو الطاليت، فأكد أن أمي كانت تمر بالتغيرات الأنثوية الشهرية في ذلك اليوم ومحرم عليها مس الأشياء المقدسة أو حتى لمس زوجها. وعند بعض المتشددين، تمنع من مشاركة الأسرة الطعام. ولا ترفع حالة العزل تلك إلا حين تنتهي أيام الحظر

وتطهر المرأة بالاستحمام.

خرج أبي حائقًا وصفق الباب خلفه بشدة للتنفيس عن غضبه. غداً، عيد الغفران، عطلة رسمية لليهود، أما اليوم فالعطلة غير رسمية، ولكن أصحاب الورش التي تملأ الحارة، ومعظمهم من اليهود، يغلقونها في هذا اليوم. أما الموظفون القلائل أمثال أبي، فبالطريقة المصرية المحببة، يتغاضى كل رئيس عن غياب مرؤوسيه من اليهود. لذا فالحركة شبه ساكنة في تلك الساعة المبكرة من صباح السبت في حارة العطار، حيث يقع بيتنا. ساعد في زيادة سكونها أن المسلمين لا يبدأون أعمالهم مبكرًا في شهر رمضان.

أغمضت عينيَّ حال خروجنا من المنزل، اتقاء لضوء الشمس الذي ينعكس عليهما لدى وقوعه على نجمة داوود، سداسية الشكل، المصنوعة من النحاس، التي زين بها جدراننا، عم عوفاديا والد عساف مدخل بيته، ووضع تحتها قطعة من الرخام الأبيض محفور عليها اسمه وتاريخ تأسيس البيت باللغتين العبرية والعربية «عوفاديا صبان حنانيا — 1929»، ويحرص عم عوفاديا يوميًا على تنظيف النجمة وتلميعها حتى تصير لامعة وبراقة، لدرجة أنها تعكس أشعة الشمس فتؤذي عيناى. ثبت عم عوفاديا بجوار اللوحة، من جهة اليسار، صندوق يحوي أوراقا من التوراة بها نصوص من سفر الخروج، كي يتذكر دائمًا خروج اليهود من مصر وما صاحبه من ذل ومهانة. وعلى يمين البوابة ترك مكان أحد الأحجار شاعرًا، بدون بناء، كي يتذكر على الدوام هدم الهيكل ويتحسر عليه. حياة عم عوفاديا كلها

تدور في الماضي، وكأن حاضره لا يتحقق إلا من خلال التاريخ.

بعد خروجنا من البيت نتجه ليسار في اتجاه عطفة حمام اليهود حيث يقع كنيس «رب موسى»، ونضطر للدوران حول هذا البناء الدائري الذي يقيمه عم أبو مصطفى كل عام في شهر رمضان ويسد به حارتنا التي لا يتجاوز عرضها ثلاثة أمتار، ليقوم بعمل الكنافة فوق الصينية الدائرية التي تعلو هذا البناء، الذي يملئ تجويفه بأعواد الحطب التي يدخلها من فتحة صغيرة أسفله، ثم يشعل النار في تلك الأعواد فتسخن الصينية وتصبح جاهزة لعمل الكنافة. وللعجب، لا يعترض أحد، بل يسعد الجميع بما يمنحه لهم عم أبو مصطفى من هدايا الكنافة النيئة أو تلك التي تصنعها زوجته وتحشوها بالزبيب وتحليها بالعسل، أما نحن فتخصنا بحبات الزلابية الساخنة التي يحضرها مصطفى لبيتنا يوميًا بعد أذان المغرب. أحرص على مشاهدة عم أبو مصطفى، حين يبدأ عمله بعد الظهر في صنع الكنافة، مستمتعًا برؤيته من شرفة بيتنا، مستنشقًا رائحة العجين الطازجة، مستمعًا لتلاوة القرآن بصوت الشيخ محمد رفعت وهو يعلو من المدياع الخشبي الكبير الذي اشتراه عم أبو مصطفى العام الماضي ووضعه في غرفة بيته المطلّة على الحارة. أظل أحرك رأسي حركة دائرية تتوافق مع حركة يده وهو ممسك «بالكوز» المصنوع من النحاس، الذي تتساقط من ثقوبه الدقيقة خيوط رفيعة من خليط الدقيق والماء الذي ملئ به «الكوز»، فتتحول على الفور، بفعل سخونة الصينية، إلى شعيرات الكنافة، فيقوم بجمعها، ثم يكرر العمل نفسه عشرات المرات المتتالية.

بعد أن نجتاز بناء عم أبو مصطفى، ننحرف لليمين متجهين لحارة يعقوب حيث يقع بيت عم زكي صديق أبي الوحيد في الحارة، فهو موظف مثله، ولذا يسمح لنا أبي بمصادقة ابنه عزيز. فنصطحبهم معنا وهما يرتديان جلبابين ناصعي البياض. كثيرًا ما طلبت من أبي أن أرثدي الجلباب مثلها وأنا ذاهب للمعبد. فيرفض أبي قائلاً:

- هما من القرائن، أما نحن فربانيون.

- وما الفرق؟

- هم يؤمنون فقط بالتوراة، ويلتزمون بتعاليمها حرفيًا، وما عداها من كتب كالتلمود، أو من تعاليم، كتعاليم الحاخامات، فلا يعتدون بها.

- وهل هذا يمنعني من ارتداء الجلباب.

- كل هذا لا يعني في شيء، ولكن عليك بإقناع أمك.

بعد اصطحابنا لعزيز ووالده، نخترق «حوش قطاوي باشا»، اختصارًا للمسافات، وتقليل وقفات الاستراحة قدر الإمكان، والتي يصبر عليها عم زكي. وفي كل استراحة، يضيق أبي ويجذب عم زكي من يده قائلاً:

- هيا، هيا يا زكي لقد استرحنا.

عندما أراد عم زكي إقامة صلاة السبت في معبد «موسى الدرعي» الخاص باليهود القرائن والذي شيد حديثًا في شارع سبيل الخازندار بحي العباسية، أصر على عدم انتهاك حرمة يوم السبت بركوب الحافلة وقرر قطع المسافة من حي الموسكي إلى حي العباسية سيرًا على الأقدام مع التحايل على التعاليم الخاصة بعدم بذل أي مجهود في يوم السبت بالوقوف

للاستراحة كل ثلاثمائة متر لمدة دقيقتين أو ثلاث. فكما استراح الرب في يوم السبت بعد تعبته في خلق الدنيا في ستة أيام، يجب أيضًا علينا أن نستريح فيه ولا نبذل أي مجهود. ولكن تحايل عم زكي لم يفده كثيرًا، فقد أجبر على الراحة في اليوم التالي عندما التهب «الكالو» الذي يعاني منه في أصبع قدمه اليسرى.

مقهى جداليا هو أول ما يقابلنا عندما نخرج من الجهة الأخرى من «حوش قطاوي باشا». ذلك المقهى الذي يجتمع به العاطلون أملًا في إيجاد عمل. أمامه مباشرة تقف دائمًا عربة عم فرج لبيع الفول المدمس، الذي يتفنن في إضافة نكهات مميزة له، مما أكسبته شهرة تعجل بنفاد فوله في أقل من ساعة يوميًا. هذا الصباح استعان عم فرج بصديقه المسلم، عم حامد، لبيع بدلًا عنه ويتقاسمان المكسب سويًا، تحايلًا على حرمة يوم السبت. وبجواره يقف عم عزرا بائع اللبن والزبادي والأرز باللبن، والذي يضرب بحرمة يوم السبت عرض الحائط، حيث يعرض بضاعته من خلال فترينة محمولة على دراجة ذات ثلاث عجلات. كثيرًا ما وصف لي صديقي عزيز المذاق الرائع للأرز باللبن، فرجوت أبي أن أبتاع منه، فرفض بشدة بل ونهرني. ولكنني تحايلت أنا أيضًا، فكنا نتسلل، أنا وعزيز ومصطفى، وقبلما كان يشاركنا داوود أخي أو هاشم أخو مصطفى، بعد عودتنا من المدرسة وقبل رجوع أبي من عمله، نتسلل إلى عربة عم عزرا ونبتاع الأرز باللبن الذي يضعه في وعاء مصنوع من الفخار، ونذهب لتتناوله خلسة تحت السلم في مدخل بيت عزيز، أثناء تناولنا للأرز باللبن يقوم مصطفى

بتحفيظنا أول آيات كتاب المسلمين المقدس - القرآن - المسماة بالفاتحة، ونقوم نحن بتحفيظه الآيات الأولى من سفر التكوين. بعد أن ننتهي من التهام الأرز باللبن نعيد الأوعية الفخارية الفارغة لعم عزرا.

بعد مرورنا من أمام مقهى جداليا بقليل، يدخل أبي يده في جيبه ويخرج نكلة، ليضعها في يد عجوز يهودية ضامرة، احترفت الشحادة، وجعلت من تجويف صغير في البناية القائمة بجوار المقهى، مستقرًا دائمًا لها، افترشته بقطعة من الخيش، وسقفته بكرتونة، واستضافت فيه كل أنواع الحشرات، وصارت كأنها جزء من البناية، أو كأنها هي موضع الحجر الفارغ الذي يذكرنا بسقوط الهيكل. بعد أن نستمع لدعاء العجوز، يفارقنا عزيز ووالده، فينحرفان يسارًا متوجهين لحارة اليهود القرائين حيث يقع معبد «رب سمحام» الخاص بهم. والذي يوجد به طابق علوي مخصص للسيدات، ولكن اليوم، نظرًا لمرض «طنط» إيفيت، لم تتمكن من مصاحبتهما كعادتها.

ذكر لي عزيز أنهم عليهم أن يخلعوا أحذيتهم ويضعوها في دواليب خشبية خارج المعبد، وأن يدخلوا حفاة. ويجلسوا على الأرض، ويركعوا ويسجدوا كالمسلمين، بل إن بعضهم يتوجه في صلاته لمكة بدلًا من القدس، كما أن منهم من لو لم يجد مكانًا ليقم به صلاته فإنه يدخل لأي مسجد من مساجد المسلمين ويؤدي صلاته في خشوع ولا يتبين أحد حقيقة أنه يهودي. على الرغم من حب أمي الشديد «لطنط» إيفيت والدة عزيز، إلا أنهما كثيرًا ما كانتا مختلفان بسبب المعتقدات الدينية، ولكن هذا

الاختلاف لا يؤثر بأي حال من الأحوال على تمسكهما بصدقاتهما المتينة.

أخيراً، ننحرف يميناً لندخل عطفة حمام اليهود، التي يقع كنيس «رب موسى» في آخرها، ساداً إياها. فنمر أولاً من أمام «حوش» هراري باشا، الذي يقع على يمين الداخل للعطفة ويحتل المساحة من أولها حتى الكنيس، نختلس، أنا وداوود، النظر من باب «الحوش» المفتوح على مصراعيه، فنجده وقد امتلأ بالخدم النوبيين، والتجهيزات تجري على قدم وساق، كي ينتهوا من إعداد كل شيء قبل قدوم الباشا هذا المساء، حيث يستقبل فقراء اليهود لإطعامهم. فتبادل أنا وداوود النظرات، التي نفهم، نحن فقط، مغزاها، دون أن نجرؤ على أن ننسب بينت شفة، وإلا ستكون ليلة سوداء علينا، إذا عرف أبي أننا ننوي الذهاب «للحوش» مع الفقراء والعاطلين.

واجهة المعبد مصنوعة من الرخام الأبيض، محفورة عليه نقوش تمثل نجمة داوود السداسية في المنتصف، وشمعدان المينوراه ذو الأذرع السبعة على جانبيه. ندلف من الباب مباشرة إلى بهو مستطيل الشكل، والذي يعد البهو الرئيسي بالمعبد، وهو مخصص للصلاة وإقامة الشعائر الدينية، حوائطه مكسوة بالرخام ومكتوب عليها الوصايا العشر باللغة العبرية، وتمتد على جانبيه نوافذ من الزجاج الملون المزين بزخارف نباتية. في الوسط توجد منصة الواعظ وحوها مقاعد المصلين. أما الهيكل فيقع في الجانب الشرقي باتجاه بيت المقدس، وسقفه محمول على عمودين رخاميين ويزين جانبيه شمعدانين مصنوعان من الرخام. يحوي الهيكل تابوت العهد ولفائف التوراة.

سرعان ما يكتمل نصاب الصلاة، عشرة رجال بالغين - لذا لا نصلح أنا أو أخي داوود كي نكون ضمن العدد اللازم لاكتمال النصاب لأداء صلاة الجماعة - نقف، أنا وداوود، على جانبي أبي، فصلاة اليوم تؤدي ونحن واقفون. عند بدء الصلاة، ندخل تحت شال الصلاة الخاص بأبي. يبدأ أقدم المنشدين في القراءة من كتاب التوحيد مفتتحاً قراءته بعبارة «بسم الله الحليم الرؤوف» ثم يبدأ في تلاوة الأوصاف الإلهية، ويذكر أنبيائنا بصفاتهم الجليلة «إبراهيم الخليل» «موسى كليم الله» «هارون الإمام». دقائق معدودة ونبدأ في التملل لطول الصلاة، فنفرج عن أنفسنا بمداعبات شقية بالأيدي الممتدة من خلف أبي، وبحركات بالشفاه والأعين والحواجب تثير الضحك، الذي يبدأ بأصوات مكتومة ثم يتحول لضحكات نداريها بالأيدي. أما الفضيحة فتحدث عندما يحمل الحاخام الصندوق الخشبي المرصع بالذهب والفضة ويرفع غطاءه المصنوع من القطيفة المخملية المطرزة بخيوط الذهب، ثم يفتحه، فيبدأ جسده كله في الاهتزاز وهو يخرج الأسفار المخطوطة من تابوت الكتاب المقدس. وعندما يبدأ في التلاوة منها، يغير من نبرات صوته وينوع في نطق الكلمات فتصير ممطوطة وموجة ومنغمة، كأنه يريد أن يستنطق كل حرف سره الذي أودعه الله إياه. وتتشكل تعبيرات وجهه معبرة عن حالة الوجدان الصوفي التي تتناوب، فيضطرب جسده ويترنح، ويصل لقمة النشوة التي تغيبه عما حوله فلا يلتفت لضحكاتنا، أنا وداوود، التي تنفلت منا رغمًا عن مقاومتنا لها، فيضع أبي يده فوق فمينا ليمنعنا، فنظل نداعب بعضنا

البعض بالأيدي من خلف ظهره.

نتنفس الصعداء عندما تنتهي الصلاة. لكننا سرعان ما نتذكر أننا سنعود للمعبد مرة أخرى مساء اليوم، قبل غروب الشمس، كي نقيم صلاة إضافية خاصة بعيد الغفران حيث نتلو دعاء «كل النذور»، الذي نتحلل فيه من كل النذور والتعهدات والالتزامات التي قطعناها على أنفسنا خلال السنة الماضية ولم نستطع الوفاء بها. كي نبدأ عيدنا المقدس غدًا ونحن مرتاحي الضمير.

بعد صلاة كل النذور، ستقع المجزرة الكبرى، حين نأتي بالضحايا من الدجاج والديوك من الحظيرة، ونقوم أُمي بتمرير ضحية كل منا فوق رأسه كي تعلق بها خطايانا. ثم نتوجه بعدها أنا وداوود وأبي لنذبحها في السوق. أما أُمي وخالتي هيلينا وأختي راحيل فستوجهن لحوش الموصيري بمقابر البساتين لزيارة ضريح حايم كابوسي صاحب الكرامات والمعجزات فيركعن عند ضريحه ويقمن الصلوات طلبًا للبركة.

ونحن في طريقنا للسوق لنذبح الضحايا، نرى أصدقاءنا من الأطفال المسلمين وهم يشرعون في النزول للحارة ممسكين في أيديهم بفوانيس رمضان وينشدون: «حالو يا حالو رمضان كريم يا حالو». نشاركهم كل يوم في طقسهم البديع هذا ونجمع معهم الحلويات من الدكاكين التي نمر أمامها. أما اليوم فكل شيء مؤجل حتى ننتهي من الذبح. عندما عدت يومًا ممسكًا في يدي بفانوس مصطفى، سألتني أُمي:

- من أين لك بهذا الفانوس الجميل.

- إنه فانوس مصطفى... نسيه معي.

- آه.

- أمي... هل أستطيع الاحتفاظ به؟

صمتت قليلاً، ثم قالت لا مبالية:

- لا بأس...

ثم استدركت قائلة:

- لكن احذر، إياك أن تفعل هذا، لو كان الشيء يخص يهوديًا، فيجب

أن تعيده إليه، وإلا عاقبك الرب.

في السوق يقف أبي مناديًا «يا شمعون»، وهو الاسم الذي يطلق على «الشوهيت» الذي سيقوم بعملية الذبح، فيأتي شاهرًا سكينه الطويل اللامع الخالي من أي خدش، فيمسك برأس الدجاجة ويلويه للخلف ويحز رقبتها ثم يلقيها على الأرض فتظل تقفز والدم يتفجر من رقبتها وبعضهم يسير لبضعة أمتار قبل أن يسقط صريعًا، ويحمد نهائيًا. نحتفظ باثنتين أو ثلاث دجاجات لأنفسنا ونتصدق بالباقي على الفقراء، الذين يصطفون في طوابير طويلة داخل السوق.

يختلط صوت صياح الدجاج بصوت الأطفال وهم ينشدون «حالو يا حالو». وتتداخل أضواء السوق الخافتة وأنوار الفوانيس الملونة. ويتشابه ترنح الدجاج الذي يرقص رقصة الموت بدوائر الصبية وهم يدورون ويدورون ويدورون. صياح... ضجيج... صرير... صرير... صرير... صرير...

\*\*\*\*\*

أفقت مذهولاً على طرقات تدق زجاج نافذة سيارتي وضوء قوي مسلط على عيني من مصباح يدوي، تسارعت دقات قلبي وأنا أحاول فتح عياني واضعاً يدي فوقهما كي أحجب الضوء المسلط عليهما. فتحت زجاج النافذة بحرص، وقلت محدثاً هذا الغريب:

- أطفئ هذا المصباح كي أستطيع رؤيتك.

أطفأ المصباح، فرأيت وجهه، وإن كان يخفي نصفه الأسفل بكوفية، إلا أنه يمتلك عينيْن جاحظتين مميزتين، يعلوهما حاجبان كثيفان. قال معتذراً:

- آسف سيدي.

- من أنت؟ ماذا تريد؟

أشار بيده للعقار الذي أقف أمامه، ثم قال:

- أنا حارس هذا العقار. أردت فقط الاطمئنان عليك، فقد ظننت أنه

أصابك مكروه. هل أنت بخير؟

- نعم، نعم. أشكرك. يبدو أنني غفوت قليلاً.

- تبدو مجهّداً، هل من خدمة أستطيع القيام بها لأجلك؟

- لا شكراً، سأنصرف الآن.

- صحتك السلامة.

كان المذيع مازال مفتوحاً ولكن صوت عوفرة العذب اختفى وحل محله الصوت الخشن للمذيع نشرة الأخبار «مازالت الاضطرابات تسود مدينة صفد منذ إعلان الحاخام عساف عوفاديا صبان فتواه بتحريم تأجير

الشقق للطلبة العرب الدارسين بالجامعة، مستشهداً بما جاء في سفر عفوذه زاره (ينبغي ألا تؤجر البيوت لغير اليهود في أرض إسرائيل)».

سار عساف على نفس نهج أبيه، عم عوفاديا، الذي كانت تصرجاته تثير الكثير من الغضب في الأوساط العربية. أشدها كانت تلك التي قالها قبل وفاته: «إن العرب أولاد أفاعي، وإن الله ندم لأنه خلقهم، لذا يجب قتلهم». فممنذ أن هاجر عم عوفاديا وعائلته لإسرائيل بعد حرب ثمانية وأربعين، لم يجد، ومن بعده ولده عساف، طريقاً يسلكانه كي ينالا وضعاً مميزاً وسط مجتمع لا يكن أي احترام لليهود القادمين من دول عربية سوى أن يتطرفا دينياً، فصار عم عوفاديا أكثر حاخامات اليهود الأرثوذكس تشدداً، وسار عساف على خطاه، بل فاقه، بتأسيسه حزبا دينيا متشددا يجذب له مئات، بل آلاف، الأنصار سنوياً، في مجتمع تعلق فيه نعمة العنصرية، مما يؤجج نار الصراع بين طوائفه المختلفة.

لشدة ضيقتي مما سمعت، أغلقت المذياع. تلفت حولي وتساءلت: «من أين جاء هذا الحارس؟ هذه البنايات نادراً، بل يستحيل، أن يكون بها حارس. فمن هو؟». ساورتني الشكوك حول حقيقة هذا الرجل، وبدأت الهواجس تلاحقني. ماذا يريد؟ من الذي دفع به لينبهني من غفلي؟ فموعد إقلاع الطائرة اقترب ويجب عليّ التحرك الآن. ولو ظلمت غافلاً ربما أفلعت ولم ألق بها. هناك شيء غامض في أمر هذا الرجل. إذن فلا تأوخي الحذر وأحاول بذل المزيد من حركات التمويه.

قادت السيارة متوجّهاً لشارع «سوكولوف»، حيث تقع محطة قطار

«هود هشارون». صففت السيارة في المكان المخصص للانتظار، ودونت في ورقة صغيرة مكانها بالضبط خشية النسيان. حملت الحقيبتين وأسهرت الخطى للمحطة كي ألحق، ربما، بآخر قطار. أمام شباك التذاكر سألت الموظف عن موعد قيام آخر قطار، فأجابني بأنه لا يوجد آخر قطار فالمحطة تعمل أربعًا وعشرين ساعة. المنتظرون لا يتعدون أصابع اليد الواحدة. أخرجت هاتفي وأخبرت دافيد وشيمون بما اعتزمت عليه، ووصفت لهما المكان الذي صففت به السيارة.

دقائق معدودة، ووصل القطار. انتظرت حتى صعد كل المنتظرين، وتأكدت من عدم وجود أحد غيرهم، وقبل انطلاق القطار مباشرة ركبته مطمئنًا لأنني آخر الركاب، إذن فما من أحد يتعقبني. انطلق القطار، أخرجت من حقيبتني كتابًا أقرأ فيه خشية أن يغلبني النعاس، وأيضًا كوسيلة للقضاء على توترتي.

لمزيد من التمويه، لم أهبط إلا في آخر محطة في هذا المسار، محطة ها ريشونيم، واستقلت القطار العائد على مسار آخر متوجهاً للمطار، وبنفس الطريقة تأكدت من أن ما من أحد يتعقبني. قررت عدم المغادرة في محطة مطار بن جوريون، ولكن في المحطة السابقة له، محطة كفار حباب، على أن أستقل من هناك سيارة أجرة للمطار. الهبوط في محطة كفار حباب له ميزة أخرى بالإضافة لميزة التمويه، فأهلها من الحريديم المتشددين دينيًا، وفي الأغلب لا يمتلكون أجهزة تلفاز لأنها محرمة، وما من أحد سيتعرف على القاضي موسى حاسون صاحب فضيحة تسريب الوثائق السرية،

الذي كان ضيف القناة الثانية منذ يومين.

منذ أن هبطت في محطة قطار كفار حباب شعرت بأنني في مكان آخر غير إسرائيل التي أعرفها. لا يوجد سوى امرأة واحدة بالمحطة، ملابسها الفضفاضة تستر سائر جسدها، وترتدي طرحة تغطي شعرها. أما الرجل الذي بصحبته، وكذلك بقية الرجال، فيرتدون قبعاتهم السوداء المميزة ذات الحواف العريضة، والمعطف السوداء الطويلة، وجميعهم بلا استثناء يطلقون لحاهم. يصحب الرجل والمرأة ستة أطفال بالإضافة لرضيع تحمله المرأة، فهؤلاء الحريديم هم أملنا في إحداث التوازن العددي بيننا وبين العرب، فهم يحرمون تحديد النسل. تأملت هؤلاء الأطفال، إنهم يشبهون تمامًا الأطفال الذين شاهدناهم أنا وأبي منذ أكثر من أربعين عامًا يوم أن كنا في زيارة لمستوطنة كريات أربع - معقل جماعة جوش إيمونيم - في شمال الجليل عام 1968، ودولتنا في ذروة النشوة بعد انتصارها الساحق في حرب الأيام الستة، ومجتمعنا مازالت تحكمه قيمنا العسكرية قبل أن تجتاحه قيم الحضارة الغربية. الزيارة كانت بدعوة خاصة من الجنرال ديان، أيقونة إسرائيل في ذلك الوقت، قبل أن يتم تحطيم ذلك الصنم الذي عبده الإسرائيليون كأه عجلهم الذهبي. أتذكر يومها أن أبي اقترب بجوار أذني وقال بصوت منخفض وهو يعدل بيده القلنسوة الكبيرة الملونة البراقة التي وزعوها علينا حال دخولنا المستوطنة وأكدوا أهمية ارتدائها طوال فترة الزيارة بدلًا من القلنسوة التقليدية الصغيرة المستوية:

- أتدري بما يذكرني هؤلاء الأطفال؟

- بما يا أبي.

- بسينما مترو الواقعة في قلب مدينة القاهرة.

قلت مندهشاً:

- سينما! وفي القاهرة.

نعم يوم صحبت أمك لمشاهدة فيلم ممنوع الحب، وفي الجريدة السينمائية التي تسبق عرض الفيلم شاهدنا برنامجاً يث دعاية مضادة للنازي يتضمن مشاهد لفتيان يرتدون زيًا موحدًا ويقومون بعمل تدريبات عنيفة ويتقاتلون بوحشية، ويعلمونهم الدقة والانضباط التامين، والطاعة المطلقة، ويلقونهم مفاهيم خاصة مثل «تذكروا دائماً، أنتم الأفضل، أمل المستقبل وزعماء الغد». ويذكر الفيلم أنهم بذور التعصب والتطرف والتفرقة العنصرية في العصر الحديث. إنهم شبيبة هتلر، الذين كان يعدون ليكونوا قادة ألمانيا المقبلين، وتملاً عقولهم بأفكار عن تميزهم على سائر الخلق، وعن نقاء الجنس الآري وتفوقه، وبأنهم ينتمون لشعب عضوي مرتبط بالأرض والعرق.

توقف أبي قليلاً، ثم قال متهكماً:

- أي أنهم شعب الله المختار.

وبعد تنهيدة عميقة أكمل أبي كلامه قائلاً:

- شبيبة هتلر هم تماماً كهؤلاء الأطفال الذين تراهم أمامك الآن يا

موسى. وهم من سيسيطر على دولتنا في العقود المقبلة. وسيمثلون جيش المستقبل.

- أنت تبالغ يا أبي.

- الأيام بيننا.

بعد جولتنا في تلك المستوطنة، التي شاهدنا خلالها أولئك الأطفال وهم يتلقون تدريباتهم، دعينا لسماع محاضرة ثقافية، يأتي خصيصاً أحد المحاضرين من قادة جماعة جوش إيمونيم لإلقائها أسبوعياً. امتلأت الساحة الكبيرة المعدة لممارسة التدريبات الرياضية بجمهور غفير من سكان المستوطنة والزائرين. بدأ المحاضر كلامه بتمجيد شعبنا اليهودي مثنياً على قداسته المستمدة من حلول الإله فيه. ثم قال بخشوع وتبتل وهو مغمض العينين: «إن الإله اختارنا لأننا اخترناه». ثم تحلى فجأة عن هدوئه، وعلت وجهه أمارات التحفز، كي يصير مقنعاً، وهو يبدي استنكاره الشديد لمن يدعون للعيش المشترك بين العرب واليهود على أرض إسرائيل المقدسة، وصاح متسائلاً: «أندرون ما وجه الشبه بين اليهود وحبّة الزيتون؟»، سكت قليلاً ثم قال: «أقول أنا لكم، لأن زيت الزيتون لا يمكن خلطه مع المواد الأخرى» ثم استأنف رافعاً صوته وقال بحماس باد وهو يلوح بيديه في الهواء على طريقة هتلر: «وكذلك شعب إسرائيل لا يمكن اختلاطه بالشعوب الأخرى»، ووسط صياح الحاضرين واستحسانهم وحماستهم المتقد الذي لم يطفئه ذلك الرذاذ الخفيف الذي سرعان ما تحول لمطر منهمر، أتى المحاضر بدمية على شكل مواطن عربي وأخذ يركلها، ثم مزقها وحرّقها وهو يقول: «إن إسرائيل يجب أن تكون خالصة لليهود». عندئذ التفت أبي إليّ وقال:

- نفس العبارة التي قيلت في الجريدة السينمائية «يجب أن تكون ألمانيا بلا شوائب».

إيه يا أبي، رحمة الله عليك. كلامك يتحقق لم يعد أحد قادرًا على وقف التطرف في بلادنا، إنه الوحش القادم، وكما قلت لي ذات يوم «من السهل أن تتبنى وحشًا ولكن من الصعب أن تتخلص منه». وها هو كلامك يتحقق، فهؤلاء الرجال الذين أراهم أمامي الآن في محطة القطار، هم أنفسهم الأطفال الذين رأيتهم يوم زيارتنا لكريات أربع، وإن اختلفوا في المعتقد. مجتمعنا الديمقراطي جعل منهم، على قلتهم، قوة متعصبة تتحكم في مجريات الأمور ولا يمكن دفع تعصبها أو مناقشته. لقد صاروا ديكتاتورية دينية ستقضي على ديمقراطيتنا.

بكي الرضيع، الذي تحمله المرأة المصاحبة لزوجها وأطفالها الستة وهم واقفون في انتظار القطار. علا صراخه، فانتحت به جانبًا كي ترضعه. أتراها ترضعه لبنًا يختلف عما ترضعه سائر نساء الأرض لأطفالهن؟ لا بد أنه لبن خاص يعطي رضيعها تميزًا ويكسبه صفات خارقة لا تتوافر لأقرانه من أطفال الأغيار!

\*\*\*\*\*

## داوود «دافيد»

### نيويورك - باريس

عبور الأطلنطي ليس بالأمر الهين، خاصة بالنسبة لشيخ جاوز السبعين.

لا أفأ أنظر لساعتي، مضت حتى الآن ساعتان من أصل سبع ساعات، هي زمن الرحلة من مطار نيويورك الدولي إلى مطار شارل ديغول بباريس. هذا موعد تناول دوائي، أخرجت قارورة عقار الورفارين، المضاد لتخثر الدم، وابتلعت قرصاً منه تبعته بكوب كامل من الماء. لم يكن هذا أول كوب ماء أشربه، لكنني، عملاً بنصيحة الطبيب، شربت خلال الساعتين الماضيتين سوائل تكفييني لثلاثة أيام قادمة. فمنذ نجوت من موت محقق إثر إصابتي بجلطة دموية في الشريان الرئوي منذ عامين وأنا ألتزم حرفياً بتعليمات الأطباء مهما كانت سخيفة أو مبالغاً فيها. منذ أمس وأنا أراجع ما قاله طبيبي السيد أرنون، عندما دفع بكرسيه الدوار للخلف مبتعداً عن سطح مكتبه، واعتدل في جلسته ملصقاً ظهره بخلفية المقعد ووضع كاحله الأيمن فوق ركبته اليسرى وقال وهو يشير بسبابة يده اليمنى، بما

يوشي بأهمية ما سيقول وبوجوب الإنصات والالتزام التامين: «اسمعني جيداً سيد دافيد، شرب السوائل بكثرة مهم جداً في الرحلات الجوية الطويلة، عموماً لكبار السن، وخصوصاً لمن يعانون مثلك من جلطات متكررة في الأوردة العميقة. فشرّب السوائل سيجنبك الجفاف، كما أنه سيحبّرك على التردد كثيراً على دورة المياه لقضاء حاجتك، فمغادرة مقعدك كل ساعة على الأكثر والتجول بممرات الطائرة أمر مهم للغاية. ولا تنسَ أثناء جلوسك تحريك ساقيك وقدميك ما بين الشئ والفرد، وكذلك تحريك أصابع القدمين، و.....» التزامي الحرفي، المبالغ فيه، بتعليمات السيد أرنون، أثار ضجر الجالسين في المقعدين المجاورين لي، ولكن حمداً لله أنهم ليسوا غرباء.

حثت صديقي أبو إياد الجالس إلى يساري على القيام بالتدريبات، فهو يكبرني ببضع سنين وأولى بممارستها. ولتحفيز همته، رفعت له سروالي كاشفاً عن ساقي وقلت:

- انظر لتلك الجوارب المرنة، إنها تضغط على الأوردة فتساعد على إعادة ضخ الدم إلى القلب، إنها...

قاطعني أبو إياد بهدوء وهو ينزل نظارته الطبية لأسفل، ناظراً إليّ بعينه الضيقتين من فوق إطارها وقال:

- خيي دافيد، العرب لا يموتون إذا لم يحركوا سيقانهم، ولكن يموتون إذا فتحوا أفواههم...  
ثم ابتسم قائلاً:

- وكذلك فإن هذه المقاعد الضيقة، لا تسمح بتلك الرفاهية.

- الحق عنده، فالمقاعد ضيقة ولا تتيح لي الراحة التي اعتدتها في رحلاتي السابقة مستمتعاً برحابة مقاعد الدرجة الأولى الوثيرة. أذكر سهولة الإجراءات وحسن الضيافة والابتسامة الساحرة والطعام الفاخر وسلاسة مرور الوقت، كل تلك الأشياء التي كنت أنعم بها فيما قبل. أما الآن، فأحسد راكبي الدرجة الأولى ويهين لي أنهم سيصلون قبلنا.

أظن أنني سأسجل في موسوعة جينيس كأول يهودي يفلس. لم أسمع شيئاً كهذا من قبل. ولكن ماذا أفعل؟ إنها الأزمة المالية التي ودع بها بوش الابن فترة رئاسته الثانية وتركها لنا كميراث أسود عصف بشركاتي وبشروتي وقذف بي محشوراً في أحد المقاعد الأربعة التي تتوسط الطائرة بدرجة الضيافة، حيث يجلس إلى يساري صديقي أبو إياد وإلى يساره ابنه إياد، أما إلى يميني، فيجلس ابني أبراهام أو... بينو.

لا يدرى أبراهام كم تعبنا، أنا وأمه، من أجل اختيار هذا الاسم. ولا بقدر الجهد الذي بذلنا في البحث والنقاش، كي نتجنب الخلاف قدر الإمكان. ثم يأتي هذا الأحق وبكل بساطة ولا يتردد في تغييره. ليتخذ اسماً لا طعم له ولا لون، بينو. قال دعماً لفكرته «إن هذا اسم لا يفرض أي قيود، ولا يحدد أي هوية، ومن ثم يشعرني بالحرية». لم يأبه لاعتراضنا، فأمرىكا بلد حر، يفعل فيه كل فرد ما يشاء.

اختيار الاسم لم يكن أول مشكلة تواجهنا، أنا وزوجتي هازل، فمشكلتنا الكبرى كانت في كيفية إقناع خالي يوسف بزواجنا. فيوم

واجهته برغبتي في الزواج بهازل، ثار ثورة عارمة. إذ وقف متحفظاً وقال  
وهو ينتفض غضباً، وبنبرات صوت يملؤها الاستنكار:

- مسيحية، تريد أن تتزوج مسيحية يا داوود، هل جنت!

- وما الضير في هذا يا خالي.

- وكاثوليكية أيضاً، هؤلاء الذين ينعنوننا بالشياطين وبأننا مملوئين  
بالغرور وبالرغبة في الانتقام... رحمة الله عليك يا ناتاليا، رحمة الله عليك  
يا أختي. أظن لو أن أمك موجودة الآن كانت ستوافق.

- خالي.....

- أتدري أن أولادك لن يصيروا يهوداً إذا تزوجتها.

- اسمعني يا خالي.....

- خالي، خالي، انس تماماً أنني خالك لو أتممت هذا الزواج.

- ولكن.....

- ولكن ماذا، إنك لن تجد حاخاما أرثوذكسيا واحداً يوافق على  
تهويدهم، سيقول لك إن اليهودي هو فقط من كانت أمه يهودية...

ثم قال هازئاً وهو يشيح بيده:

- ابحث لك عن حاخام إصلاحي يوافق على تهويدهم.

- أرجوك اهدأ واسمعني.

أخيراً جلس، ولكنه لم يهدأ، إذ قال بغضب:

- ها، اسمعني ماذا ستقول، بماذا ستبرر طلبك السخيف هذا الذي  
سيقضي على شعبنا. لو أن كل يهودي فعل فعلتك الحمقاء تلك لتلاشنا.

- هذا موت بطيء لنا. هذا هو الهولوكست الصامت.
- أنت لم تهدأ بعد، أرجوك اسمعني للنهاية.
- ها، أنا منصت، هيا قل، برر فعلتك.
- خالي هل أنت اخترت أن تكون يهوديًا؟
- آه، سنبدأ في الفلسفة، ألا يمكنك أن تنسى دراستك للفلسفة، تلك التي أفسدت عقلك وتكاد أن تفسد دينك. ألم تنسها منذ أن عملت معي بالتجارة فور انتهاء دراستك الجامعية... أقسم أن هازل تلك كانت زميلتك في السوربون، ها كانت زميلتك، صح.
- نعم كانت زميلتي، ولكن كلامي ليس فلسفة ولكنها قناعة. أرجو أن تدعني أكمل لك وجهة نظري، التي اتفقنا بشأنها أنا وهازل.
- قال بضجر وهو يضرب فخذه براحة يده:
- أكمل.
- لقد اتفقنا أن نترك لأبنائنا حرية اختيار معتقدتهم الديني. فأنا يهودي بالمولد، وهي كذلك مسيحية بالمولد. أي أن هذا لم يكن اختيارنا ولكنه فرض علينا. فقررنا ألا نصادر أبناءنا حقهم، ونترك لهم حرية اختيار معتقدتهم عندما يبلغون ويكونون راشدين قادرين على تمييز الحق من الباطل.
- عندئذ قام خالي ثانية وكاد أن يضربني وهو يقول:
- أيها الوغد، هل تشك في أننا على الحق.
- لا، لا، لم أشك للحظة... ولكن هازل أيضًا لا تشك في أنها على

حق. تناقشنا كثيرًا، وتجادلنا، فاجتمع رأينا في النهاية على خوض التجربة، تجربة التحدي.

- تحدي، تحدي من؟

- تحدينا بعضنا، صممت أنا على رأيي، وهو أنه لو ترك للإنسان حرية الاختيار فلا شك سيختار اليهودية كمعتقد، كما صممت هازل أيضًا على أنه سيختار المسيحية. فقررنا أن يكون أبنائنا هم مجال التجربة وموضع التحدي.

- أجننت؟ أقسم أنك جنت، هل تجرب في أبنائك؟! هل تراهن عليهم. بنس ما اتفقتما عليه.

- اهدأ يا خالي كي أوضح وجهة نظري... هل تشك أنت في أننا على الحق.

- بالطبع لا.

- إذن فلو كان هناك إنسان عاقل، راشد، مكتمل الأهلية، حر الاختيار، فلا بد سيختار اعتناق الديانة اليهودية. فما الخوف إذن؟

- وهل نسيت أيها الحمار أنك كيهودي فهذا اختيار الرب لك منذ آلاف السنين. فكيف تفرط في حق أبنائك الذي أعطاه الرب لهم؟... وهل نسيت أيضًا طقوس الحاخامية الأرثوذكسية في التهويد.

- لا لم أنس...

- إذن هل ستدع ابنتك بعد أن تكون قد تجاوزت العشرين أو الثلاثين، أن تخلع ملابسها لتصير عارية أمام ثلاثة حاخامات كي تنغمس في ماء

الحوض المقدس لتتطهر... وإن كان ابنك ذكرًا، فهل سيقبل أن يخنن وهو رجل كبير بالغ.

- لا مشكلة. فيمكن لأبنائي أن يتهودوا على يد حاخام إصلاحى وقتما يشاءون. فبمجرد أن يستمعوا لمحاضرة عن تاريخ اليهود أو يتلون بعض مقاطع التوراة فهذا كاف كي يصيروا يهودًا.

- هؤلاء الإصلاحيون، سيقضون علينا، على هويتنا، على تميزنا. بقية الأمم خلقت على شاكلتنا فقط كي تيسر لهم عملية خدمتهم لنا... فلتذهب أنت وهؤلاء المخربون الذين يسمون أنفسهم إصلاحيين إلى الجحيم، أغرب عن وجهي.

طردي خالي من حياته كلها، وبالطبع من العمل معه. فأسست شركتي الخاصة، وتزوجت بهازل، زواجًا مدنيًا بالطبع. لم يحضر أحد من أهلها المراسم، فقد كان غضب أبيها، القس الكاثوليكي ذي الأصول الإيطالية، أشد من غضب خالي، لزوجها من يهودي شرقي.

عندما صارت هازل حاملاً، بدأت المشاكل. صممتُ على اختيار اسم له هوية يهودية، فرفضت هازل تمامًا، وقالت إن هذا يعد نقضًا لاتفاقنا بما لذلك الاسم من تأثير على العقل الباطن في تحديد الهوية الدينية. وقالت أيضًا، إذن لم لا يكون الاسم بول أو بيتر. اشتعلت الأزمة بيننا، وكان هذا أول صراع للأديان. ولم تهدأ الأمور إلا حين قررنا أن نطلق على المولود اسمًا يعطى انطباعًا عامًا لا يدل على دين محدد، فلو كان ولدًا سيكون اسمه أبراهام، ولم أصر على أن يكون «أفراهام» مادمنًا في أمريكا. ولو

بنت ستكون سارة. فهذان اسمان شائعان عند كل من اليهود والمسيحيين، وأضفت أنا «إنهما شائعان عند المسلمين أيضًا. ولكن أبراهام ينطقونه بالاسم المعدل إبراهيم».

لم يحب الله رجاءنا، فرزقنا بسارة ومن بعدها أبراهام. ليتجدد الصراع مرة أخرى وتشتعل الأزمات واحدة تلو الأخرى. فلم يأل أحدنا جهدًا من أجل التأثير على صغيرنا وبرجة عقليهما وتهيته نفسيهما لتقبل معتقده. سارعتُ بشراء نسخة من التوراة حيث لم أكن أمتلك واحدة من قبل، وكذلك هازل لم يكن لديها نسخة من الإنجيل فابتاعت واحدة. بدأت أهتم باتباع تعاليم يوم السبت والذهاب للمعبد، وبالتالي انتظمت هي في الذهاب للكنيسة يوم الأحد. أي رمز ديني يشير لهويتي اليهودية لم أتردد في استعماله، التفيلين، شال الصلاة، القلنسوة الصغيرة.....، كذلك هازل ملأت البيت بالصلبان وصور المسيح ومريم.

كل يوم يتفتق ذهن أحدنا عن فكرة تقوي مركزه في الصراع، وتساعده على حسم التحدي لصالحه. قرأت أن أول الحواس تأثيرًا في إدراك الطفل هي حاسة السمع، فصرت أختلس أي فرصة، وفي غفلة من هازل، وأجلس بجوار سارة، وأتلو مقاطع من التوراة أو التلمود. عندما اكتشفت هازل هذا لم تتردد في استبدال مناجاة رضيعتها وهددهتها بمقاطع من الإنجيل. شيئًا فشيئًا تحول البيت لساحة صراع وأطفالنا مازالوا رضعًا لا يفقهون شيئًا.

توالت الأحداث، وتتابعت المواقف. توترت العلاقة بيننا. والصراع

لم يعلن عن نفسه بوجه سافر بعد، كان كالحرب الباردة. لم يجرؤ أحدنا على المواجهة المباشرة. حتى كانت الطامة الكبرى عندما شهر كل منا سلاحه في وجه الآخر. سلاحاً أشد فتكاً من صواريخ كروز وطائرات إف 16. إنه سلاح الكلام. ذلك السلاح الذي تدربنا عليه جيداً أثناء دراستنا للفلسفة. كان ذلك يوم أن عدت للبيت وعلمت أن هازل اصطحبت سارة التي لم تتعدّ العامين وأبراهام الرضيع إلى الكنيسة. لم أقو على الاحتمال أكثر من هذا ولم أشأ أن يكون الرد بأن أ اصطحبهم للمعبد. كانت المواجهة ضرورية، والحسم لابد وأن يكون قاطعاً، تفجر النقاش، فتراشقنا بالكلمات وتصارعنا بالأفكار. قلت لها بهدوء:

- هازل، إن ما فعلته يُعد نقضاً لاتفاقنا.

- أنت الذي بدأت.

- إنما أردت الخير لأبنائنا.

- وأنا كذلك أردت لها الخير.

- أتشكين أن موسى أتى بشريعة متكاملة للبشر.

- لا، لا أشك.

- إذن لم ألغيتم شريعته بالكامل، أليست منزلة من الرب الذي نؤمن

به جميعاً.

- لأن الرب نفسه هو من صححها لنا.

- صححها لكم! أليست كلها تعاليم واردة في التوراة. إذن فأنت

تعني أن الرب صحح التوراة، أو بالأحرى ألغاهها، فلم إذن تعتبرونها

العهد القديم في كتابكم.

- كما قلت لك، لم يلغها، إنما صححها، أو إن شئت، أكملها.
- إكمال الشيء يعني الزيادة على ما هو موجود. ولكنكم لم تلتزموا بأي شيء من شريعة موسى... أتشكين في نبوة موسى.
- لا.

- إذن لم لا تتبعينه.
- أنا أتبع من أشار العهد القديم لمجيئه... أتبع المخلص، مخلصنا جميعاً. وأولى بك أنت أن تتبعه... أتشك أنت في ألوهية المسيح.
- بالطبع أشك.
- أنت تكابر.
- بل أنت من يكابر.

هكذا دار الحديث في دائرة مغلقة. فتصاعدت الأزمة، وتبادلنا الاتهامات.

دارت بيننا أحاديث مشابهة قبل زواجنا، ولكنها لم تكن بتلك الحدة والعنف. فقد كانت تدور حول نظريات وحسب. أما الآن فهي تدور على أرض الواقع في وجود تجربة حية نابضة.

أنهكنا من كثرة الجدال وأدركنا عقمه. توقفنا ونظر كلانا للآخر نظرة توحى بعدم جدوى المناقشة. فقررنا أن نتوقف، ولكن بعد أن اتفقنا على الكف عن تلك المحاولات الصببانية الساذجة التي يبذلها كل منا في محاولة استقطاب أبنائنا لمعتقده.

تخلصنا من نسختي التوراة والإنجيل، ومن كل المظاهر التي قد تشي بأي انتفاء لمعتقد ما. في محاولة منا للعودة بتجربتنا لمسارها الصحيح. وتعاهدنا بعدم بذل أي مجهود ظاهر أو خفي من شأنه التأثير على فكر أبنائنا.

هدأ الصراع، ولكنه كان هدوءًا مؤقتًا، إذ سرعان ما واجهتنا أسئلة الطفولة، من أين جئنا؟ كيف جئنا؟ من خلقنا؟. كنا حينها قد صرنا أكثر تعقلًا في إدارة الصراع، فقررنا أن نهى عقول ابنينا إلى وجود خالق «إله» دونما الإشارة لكنهه. فلا هو إله جبار حل في الأرض والشعب فأكسبهما القداسة كما تقتضي عقيدتنا، ولا هو إله ذو ثلاثة أقانيم «الأب والابن والروح القدس» وله طبيعة بشرية وأخرى إلهية، يتنقل بينهما كيف يشاء، كما تدعي العقيدة الكاثوليكية. ولا حتى ذكرنا لهم أنه إله واحد لكل البشر كما يدعي المسلمون. إنما هناك إله وحسب هو من خلقنا، وتركنا لخياهم تصور هذا الخالق كيفما تسمح بذلك عقولهم.

في النهاية لم يثمر ذلك الصراع وتلك الأزمات، ولا حتى ذلك الاتفاق، إلا عن خيبة أمل عميقة وفشل مروع لتجربتنا.

كارثتنا الكبرى ومصيبتنا الحقيقية كانت في اختيار سارة، التي انتابتها الحمى التي أصابت الكثير من الأمريكيين بعد انهيار أبراج التجارة العالمية في سبتمبر 2001.

في اليوم الذي واجهتنا فيه بحقيقة اختيارها، كنا واقفين نعد طعام الغذاء بالمطبخ، حينها لم نملك أنفسنا، وانهرنا كبرجي التجارة، وتمالكنا

على الأريكة الخشبية المعدة للجلوس عليها أثناء تناول الطعام بالمطبخ. قالت وهي تتمايل يمينًا ويسارًا، وترفع يدها لأعلى لتخلع قطعة القماش التي غطت بها رأسها:

لقد أشهرت إسلامي في المركز الثقافي الإسلامي منذ ساعات، وسأتزوج وزميلي المصري بهاء. وسنتقل للعيش في مصر فور انتهائه من دراسته وعودته للعمل بإحدى جامعاتها كأستاذ لمادة البيولوجي. غلفنا الصمت لبرهة. نظرت لهازل، فرأيت علامات التحفز بادية على ملامحها، شعرت أنها تكاد أن تنفجر في وجهها، فضغطت يدها كي تهدأ. حاولت للممة بعض الكلمات المبعثرة وقلت بتردد:

- ولم الإسلام؟

- البداية كانت عندما أيقنت أنه لا بد من وجود مدبر لهذا الكون، يتحكم به ويضبط إيقاعه. لا شك أن دراستي لعلوم الأحياء ساعدتني كثيرًا في إثبات يقيني هذا، فهذا الكون بكل ما فيه لا يمكن أن يكون أبدًا محلاً للصدفة أو نتيجة بعض الطفرات العشوائية... الحقيقة أن الفضل يرجع للعلم الحديث في تقريب الصورة لذهني وتثبيتها وجعلها أكثر وضوحًا. فأمريكا مثلاً تستطيع بما بلغته من علم أن تتبع أي إنسان على ظهر الأرض وتترصد حركاته وسكناته، وكذلك يمكن برقيقة ذاكرة لا تتجاوز البوصة المربعة أن نحتفظ عليها بذاكرة إنسان وتفاصيل حياته من مولده حتى مماته. هذا كله بعلمنا نحن الذي بلغناه حتى الآن فما بالكم بما سيكون بعد مائة أو ألف سنة. هذا العلم وهذه التكنولوجيا لا بد لها من

أصل تستمد منه، فلا شيء يأتي من فراغ. فكرت كثيرًا حتى اهدتيت إلى ضرورة وجود قوه مطلقة تتجاوزنا ونستمد منها كل شيء. تلك كانت البداية، البحث عن إله.

عندئذ تدخل أبراهام، الذي جاء متسللاً، أو ربما أننا لم نشعر بوجوده، إذ قال هازئاً وهو مستند بكتفه إلى قائم فتحة باب المطبخ:

- إنها قوانين الطبيعة يا عزيزي.

- وهل تأتي تلك القوانين من فراغ! لا بد من وجود من يعطيها خصائصها ويهيمن عليها ويسيطر على تحركاتها وتوجهاتها.

- إنها الصدف والطفرات.

- من دراستي لعلوم الأحياء أدركت أننا في حاجة لمليارات الصدف والطفرات كي تصل الحياة على كوكبنا إلى واحد من المليون لما هي عليه الآن، فما بالك بالكون كله ومجراته وكواكبه وشموسه التي تتحرك في إيقاع رائع متقن لا يمكن أن يكون من باب الصدفة بأي حال من الأحوال.

ثم أضافت مستنكرة:

- لا بد أن الطبيعة التي تفعل كل ذلك تكون عاقلة جداً!

- دعينا من هذا، لنفترض أن هناك إله. لن أسألك السؤال الساذج من

أين جاء. ولكن سأسألك لم خلقنا؟ أخلقنا ليتلهى بنا؟

- إن هذا السؤال كما لو أنك تسأل. لم اخترع الإنسان الساعة؟

- إجابة بسيطة. كي نعرف الوقت.

- ولم نريد أن نعرف الوقت؟
- كي نتنظم حياتنا.
- ولم نريد أن نتنظم حياتنا.
- كي، كي، ماذا تقصدين بالضبط؟
- أقصد أن خلف كل إجابة ستقولها يمكن أن يكون هناك تساؤل آخر، وهكذا سلسلة لا تنتهي. المهم هي البداية، وهي أن تؤمن بوجود إله، وإذا ما حدث ذلك، لن أقول لك أنك ستعرف الإجابة عن التساؤل، ولكنك ستدرك أن هناك حكمة ما لا تستطيع أن تدرك مغزاها بحدود عقلك الضيقة وراء أفعال قد تبدو لك لا منطقية، أو غير مبررة... ولكن إذا أردت الإجابة كما أوردتها القرآن، فإن الله خلقنا لعبادته، فنحن مخلوقون من جسد وروح، غذاء الجسد هو الأكل والشرب، وغذاء الروح هو العبادة والتقرب إلى الأصل الذي نشأت منه أي من الله، وعلينا إشباع كليهما.
- قال أبراهام غير مبالي وهو يغادر المطبخ:
- كل ما أعرفه أن وجود الإنسان هو مجرد حدث عارض في تاريخ هذا الكون... وربما ينتهي في يوم من الأيام، أو يتطور لمخلوق آخر مختلف.
- ضربنا صفحاً عن كل الحديث الذي دار بينهما، كأنه لم يكن، كل ما كان يهم حينها هو هذا السؤال:
- ولماذا إله المسلمين بالذات؟
- صورة الإله الذي تخيلته أجل وأعظم من إله ينزل إلى الأرض ويختلط

بمن خلقهم ويتصارع معهم فيهزم، أو أنهم يغلبون عليه فيقتلونه. الإله الذي تخيلته لا يحده زمان أو مكان، إله فوق التخيل والتصور والوصف. هو قوة مطلقة متعالية منزهة... لا أنكر أن بهاء ساعدني كثيرًا خاصة عندما أمدني بترجمة للقرآن ولفت انتباهي لأحد آياته تسمى آية الكرسي. فوجدت بها صفات الإله الحق المستحق للعبادة... على الأقل كما تمنيته. إله نفهمه ببساطة بعقولنا دونما تعقيد أو فلسفة. اليهودية يا أبي جاءت بدين الله وهو ثابت منذ الأزل، وجاء الإسلام مجددًا وموضحًا. فالدين الذي أرادنا الله أن نعبد عن طريقه واحد وكذلك الشريعة التي نتبعها منبعها واحد، نزلت على موسى، ثم جاء محمد ليحدثها ويوضحها ويصحح الأخطاء التي لحقت بها والتحريف الذي أصابها. استسلمنا أمام قوة منطقها وحجتها البالغة. وكذلك أمام إصرارها وقناعتها المطلقة بما أقدمت عليه.

اليوم كتبت سارة المشهد الأخير في السيناريو الذي خطت بيدها أول مشاهدته ساعة أن فجأتنا بقرارها ونحن بالمطبخ نعد طعام الغداء. فيها هي تسطر كلمة النهاية. فاليوم ذهبنا جميعًا للمطار. أنا وأبراهيم، كي نستقل الطائرة المتجهة لباريس، وسارة وزوجها المصري بهاء، ليركبا الطائرة المتجهة لفرانكفورت ومنها للقاهرة حيث سيقمان. وبقيت هازل وحدها في نيويورك.

فشلت التجربة، وخفق التحدي في حسم الخلاف بيني وبين هازل... كلانا خسر الرهان.

فكذلك هذا الوغد الجالس إلى يميني، لم يحسم اختياره حتى الآن. وها هو في بداية العقد الرابع، وما زال بلا دين. يوم واجهنا بآرائه لم يشكل صدمة كنتلك التي فجعتنا بها سارة. لم يعنينا كثيرًا أنه صار ملحدًا، وجوديًا، عديمًا. المهم ألا يصير مسلمًا مثل أخته. قال وهو يعبث بخصلات شعره: - هكذا أنا حر، لم ألزم نفسي بالانتماء لهوية غير محددة، ولم ولن تتحقق يومًا ما. أي، هل تستطيع أن تقول لي ما معنى أن تكون يهوديًا؟ تعبد إلهًا خاصًا بك دوننا بقية البشر! ويجعلك أفضل منهم جميعًا. ما معنى أن أعبد إلهًا يندم ويأسف على أفعاله، وعندما يراجع خلقه ممن خلقهم، يقنع بوجهة نظرهم ويبدل رأيه.

ثم توجه لأمه قائلاً:

- أو أن أعبد إلهًا ولدته امرأة، مثلك تمامًا، وأرضعته، وغيرت له الحفاض. إله لا يقوى على الدفاع عن نفسه فيصلب ويصرخ مستنجدًا. أما سارة فكان نصيبها:

- أو إله دموي يحض أتباعه على العنف والإرهاب. ألا تحجلين وأنت تضعين جبهتك على الأرض لإله كهذا... سارة، هل فقدت عقلك يا عزيزتي؟!

ثم أضاف هازئًا وكأنه يخاطب مجموعة من البلهاء:

- أحبائي، الأديان كلها فكرة ساذجة اخترعها الإنسان ليوافقه بها خوفه وضعفه وعجزه عن مواجهة الغيب والكوارث الطبيعية و.... أما الآن ومع تطور العلم، وقدرة الإنسان المتزايدة على كشف المجهول

ومعرفة القوانين الطبيعية المنظمة للكون وبالتالي إمكانية السيطرة عليها... فما حاجتنا إذن لإله!

لكن ماديته الطاغية تلك، كادت أن تدفعه لأن يتهود منذ عامين. بل رحب بأن يختن خضوعاً لشروط الحاخامية الأرثوذكسية. ليس قناعة باليهودية كديانة ولكن قناعة بالحياة المترفة التي سينعم بها إذا آلت إليه ثروتي. خاصة بعد أن تعرضت لتدهور مفاجئ في حالتي الصحية، وشعوره بدنو أجلي، وعلمه بأنه لن يستطيع أن ينال دولاراً واحداً من ثروتي إذا ظل على إلحاده. فاليهودي يمكنه أن يرث أي إنسان، أما غير اليهودي فليس له الحق في ميراث اليهودي. ولكنه تراجع عن التهود بعد إفلاسي. وقال لي حينها ساخراً: لقد أنقذ ذكرى من التلف.

- أما الآن فقد عاد الأمل يراوده، وأبدى استعداداً مرة أخرى لقطع جزء من ذكره. ذلك بعد أن لاحت في الأفق الفرصة، ليست فرصة واحدة بل فرصتان، لاستعادة ثروتي. إحداها هي السبب وراء هذه الرحلة التي نقطعها من نيويورك إلى باريس بصحبة صديقي الفلسطيني أبو إياد وولده.

وراء بداية علاقتي بأبي إياد سائل، سائل ذهبي اللون سحري الصفات، يسمى زيت الزيتون.

تحت ضغط الجماعات الصهيونية، عقدت أول صفقة، في منتصف الثمانينيات، لاستيراد زيت الزيتون الذي تنتجه المستوطنات اليهودية في

الضفة الغربية لدعمها. لم أعن كثيرًا بما يتحقق لي من مكسب، كان همي هو إرضاء ضميري كيهودي لم يهاجر لإسرائيل.

تغيرت رؤيتي لزيت الزيتون عندما نصحني طبيبي، السيد ارنون، باستخدامه. ذلك بعد أن أظهرت التحاليل الطبية التي أجريتها عن ارتفاع نسبة الدهون في دمي، ونصحتني بنوعية ممتازة، يستخدمها هو شخصيًا، تستورد من إسبانيا. عندما قرأت معلومات المنتج عرفت أنه زيت مستخرج من زيتون زرع في الجليل بالضفة الغربية. عزمت على الاتصال بالشركة المستوردة... فكانت شركة أبو إياد.

عندما سألته عن سر جودة زيت الزيتون الذي يستورده عن ذلك الذي أدمع باستيراده المستوطنات، قال:  
- الأرض تعرف أصحابها سيد دافيد.

توطدت أواصر الصداقة بيننا، مدعومة بالكثير من الصفقات الناجحة التي عقدنا سوياً ليكلل ذلك النجاح بتأسيس شركة تجارية ظلت تعمل بكفاءة لأكثر من عشرين عامًا. انتقلنا خلالها من الاستيراد إلى التسويق العقاري والمضاربات العقارية، مدفوعين، بحماس أبنائنا، أبراهام وإياد. اللذين كرها العمل الروتيني والصفقات التقليدية وأرادا استغلال الرواج الاقتصادي بشكل أفضل منتهزين فرصة الطفرة التي حدثت في التسعينيات والسباق المحموم لدى الأمريكيين من أجل شراء أو تغيير منازلهم. إلا أننا لم نتوقف، تحت ضغط من أبو إياد، عن استيراد زيت الزيتون، ولكن مباشرة من الجليل. إذ قال:

- لا أستطيع أن أتوقف عن استيراد الزيتون وزيته. فتجار الزيتون هي قلب كل فلسطيني وزيتها هو دمه.

التآلف الذي حدث بيننا، مدعومًا بأصولنا الشرقية وما يتبعها من حب للفضفضة وصيانة العشرة وعلاقات الصداقة والقرب والمودة، التي افتقدناها كلانا في مجتمع مادي لا يخضع إلا لحسابات المكسب والخسارة فأفقد الحياة عمقها وجعلها بلا طعم. هذا التآلف دفع علينا للبوح للآخر بأسباب رحلته من الشرق للغرب.

\*\*\*\*

أعاد أبو إياد فنجان القهوة التركية - الذي نعهده بأنفسنا في غرفة مكثي بشركتنا، رافضين للقهوة الأمريكية سريعة التحضير - إلى مكانه فوق سطح المكتب بعد أن رشف منه رشفة ذات صوت مميز، ثم نظر لعينيّ وقال:

- دافيد، هل جربت يومًا أن تفقد النطق للحظات عندما يستبد بك الخوف؟

- حدث ذلك عدة مرات عندما كنت صغيرًا.

- هل تتذكر شعورك حينها؟

- رهيب، شعور رهيب حقًا.

- فماذا لو طالت تلك اللحظات وصارت أيامًا.

صمتُ ولم أجبه. فشرّد بفكره بعيدًا، وصوب نظره خارج نافذة مكتبنا ناظرًا إلى لا شيء، كأنه يستعيد ماضيًا بعيدًا، محاولاً تذكر تفاصيل

ظننت في بادئ الأمر أن النسيان طواها، ولكنني حقاً كنت مخطئاً، فذاكرته مخفورة على صفحة عقله كأنها نقشت على الحجر، وما شروده إلا كي يختار الكلمات التي تعبر عن أحاسيسه بعناية، وترسم التفاصيل وتوزع الألوان لتخرج لوحة ذكرياته مصورة قدر الإمكان حقيقة ما حدث. بدأ حكايته بعد أن أغمض عينيه لبرهة، ثم قال بصوت مفعم بالدفع مغلف بالأسى وبمرارة الذكرى:

- «إحساس رهيب حفر على جدار نفسي. إنه كوحش غامض تعرف بوجوده ولكنك لا تراه، تشعر به يختبئ خلف كل جدار، ووراء كل باب كي يفاجئك. أو ربما تجده منتظرك ليطل برأسه القبيح إذا نظرت تحت المنضدة أو تحت فراشك الذي تأوي إليه لتستريح. قد يأتي من السماء، أو حتى من الفراغ. فينشأ أظافره في قلبك، ويغرس أسنانه في عنقك. تحاول الصراخ فلا تستطيع، تستغيث فلا يسمعك أحد... إنه الخوف. عندما يملأ حياتك، يتسلل إلى أحلامك، ويحتل يقظتك. فيسيطر على تفكيرك، يهيئ لك أنك عندما تستيقظ ستجد نفسك وحيداً، تبحث عن أهلك، أمك، أبيك، إخوتك، الكل خانك، رحلوا جميعاً، وتركوك وحيداً. أو تجدهم قتلوا، ذبحوا، فتجد نفسك أيضاً وحيداً.

ابتلعني هذا الشعور، فصرت حبيساً في جوفه، حين هبط قريتنا، قرية عين كارم بفلسطين المحتلة، في مساء يوم الجمعة التاسع من أبريل عام 1948، رجلاً وامراً، حالتهم المزرية والهلع البادئ عليهم ينبآن بتعرضهم لكارثة. اقتيدوا لبيت جدي، كبير القرية ومختارها. أمهلهم

جدي بعض الوقت كي يغتسلوا ويستريحوا. اجتمع أهل القرية حول بيت جدي. أما وجهاءها فجلسوا يستمعون لهم في ساحة الدار. خيمت لحظات من الصمت المهيّب، قطعت المرأة بصرخة تلتها بكاء يقطع القلوب وهي تولول «ولدي عمار، زوجي فايز، عمتي فاطمة، خالي صالح.....» فأخذتها نسوة البيت إلى الداخل وهن يحاولن أن يهدئن من روعها.

قال أحد الرجلين:

- أعذروها فكل من ذكرتهم قتلوا أمام عينيها.  
لم يصدق أحد من الحاضرين ما سمعوه، فقال أحدهم:  
- أثار هذا؟

- لقد بدأ الثأر ولن ينتهي.

قص أحد الرجلين، ويدعى خالد، كيف أنهم استيقظوا فجر نفس اليوم الذي هبطوا فيه إلى قريننا، على صيحات تنبيه ممن عليهم نوبة حراسة القرية، قرية دير ياسين، القرية منا، بوجود هجوم وشيك من مجموعات مسلحة تحاول أن تحيط بالقرية لتقتحمها من جانبها الغربي. قاطعه الرجل الآخر، ويدعى محمد، قائلاً:

- منذ قرار التقسيم وهناك حالة من التوتر تسود العلاقات بيننا وبين اليهود المجاورين لنا في جيفات شاول. زادت حدة التوتر من شهر تقريباً بعد إعلان بريطانيا عزمها على نفوذ يديها من الانتداب. فعقد مختار قريننا معهم معاهدة عدم اعتداء، يلتزمون فيها بمنع شبابهم من مهاجمتنا ونحن

كذلك نمنع شبابنا من مهاجمتهم. ومع ذلك حرصنا على تعيين رجال من القرية في نوبات للحراسة الليلية خوفاً من أي هجوم غير متوقع... لكن يبدو أن الصلح الذي حدث بين عصابتي الأرجون وشيرن الصهيونيتين وقع أثره على رؤوسنا.

استأنف خالد قص الرواية. وذكر كيف أنهم لم يعطوهم أي تحذير وداهموا القرية وأهلها نيام، وصبوا نيران بنادقهم ومدافعهم، وألقوا بالقنابل اليدوية، بلا تمييز على أي شيء يتحرك. سرعان ما تجمعت المقاومة المسلحة بالقليل مما لديها من بنادق بدائية في الطرف الغربي حيث مركز القرية وبه معظم ساكنيها. استبسلوا في الدفاع عن قريتهم وكادوا، بإمكاناتهم المحدودة، أن يردوا المعتدين لولا أن جاءتهم تعزيزات من قيادة الهاجاناه، مقاتلون كثر ومدافع مورتر ورشاشة، وأحاطوا بالقرية من الجهة الأخرى.

استطاع المعتدون، بفضل القوة الجديدة، أن يخذلوا المقاومة، وأن يقتلوا القناصة المتمركزين فوق أسطح المنازل.

صمت أبو إياد قليلاً، وتنهّد تنهيدة عميقة ثم استأنف وهو لا يزال ملقياً ببصرة إلى خارج نافذة مكتبنا بنيويورك.

وهنا بدأت المذبحة، كما وصفها خالد. جاس المعتدون في طرقات القرية، قسموا أنفسهم مجموعات تنتقل من بيت إلى بيت، يقتحمونها ويقتلون بوحشية كل من يقابلهم، شيوخاً، نساء، أطفالاً، ويسرقون كل ما تطل أيديهم. قال محمد:

- عندما تحول الجنود إلى وحوش ضارية تقتل بلا تمييز، سمعت أحد قاداتهم يصيح فيهم «كفوا، كفوا». ولكن بعد فوات الأوان، فقد أصيب الجنود بالسعار، كانت عيونهم تلمع وكأن القتل أصابهم بنشوة جارفة، فصاروا خارج السيطرة... عادوا لغرائزهم الوحشية البدائية.

قال خالد وهو يبكي:

- ذبحوا خمسة وعشرين فردًا، هم كل عائلتي. أنا الوحيد الذي كتبت له النجاة. انتزعوا فؤاد من حضن أمه وذبحوه أمامها، لم تحتمل المسكينة وأصيبت بلوثة وانطلقت تصرخ في شوارع القرية، لم يتركوها وإنما تجمعوا حولها يسخرون منها... عفاف كانت على وشك الوضع، فقتلوها، وشقوا بطنها، واستخرجوا جنينها وذبحوه، ثم أعادوه مرة أخرى لبطن أمه. قُتل عمي علي أمام عيني وحين استغاث وهم يجرونه فصاح «أنقذوني»، سارعت إليه عمتي فاطمة فقتلوها، سارع لنجدتهم جارهم عم يارح فقتلوه هو وابنه وزوجته.

توقف خالد ليمسح دموعه بكم قميصه، حاول أن يكمل، فعاوده البكاء المتقطع الذي تحول لهنهة ونشيج:

- نجاة، نجاة ذبحت بلا رحمة أمام طفليها، أحد الطفلين أطاحوا به فارتطم رأسه بالجدار فسقط جثة هامة أما الآخر فسقط على الأرض، لا أدري أمغشياً عليه أم مات من هول ما رأى. اجتاحتهم حالة من الهياج ووصلوا لقمة حيوانيتهم عندما سقطت، أجمل فتيات القرية، المسكينة وفاء، في أيديهم، سحبوها للساحة الغربية، حيث مركز المدينة، وتناوبوا

الاعتداء عليها أمام أهلها، وعندما فرغوا منها بدءوا في تعذيبها، فقطعوا  
ثديها وألقوا بها في النار، و.....

عندئذ قال جدي بصوت مختنق:

- كفى، كفى.

لكنه أكمل:

- كنت أقرب كل ما يحدث من مكمني خلف التل شرق القرية. جميع  
من رأيهم كانوا ممن يسحبونهم للشوارع وملأوا بجثثهم الطرقات، أما  
من قتلوا في بيوتهم فلا يعلمهم إلا الله. لا يوجد بيت خلا من القتل،  
بمجرد أن يقتحموا أي بيت يلقون داخله بقنبلة يدوية يتلون بها بدفعات  
من بنادقهم ورشاشاتهم. استغاثات الشيوخ صمت أذني، بكاء الأطفال  
شق سمعي، صراخ النساء مزق قلبي.....

بدأ الرجال ينتحبون من هول ما سمعوا وتعالى بكاء النساء، فأكمل  
محمد المأساة بقوله:

- جمعوا الجرحى، وعددهم يفوق الثمانين، وأطلقوا النار عليهم وهم  
يضحكون قائلين «أذهبوا للعلاج في الجحيم». أما الأسرى وكانوا خمسة  
وعشرين فاقتادوهم إلى أحد المحاجر، وأداروا وجوههم للحائط وأطلقوا  
عليهم عدة دفعات من مدافعهم الرشاشة، ثم أكملوا المهمة برصاصة في  
رأس كل واحد على حدة.

عند هذا الحد، توقف أبو إياد عن قص حكاية مذبحه دير ياسين. قال  
معلقاً عليها والدموع تملأ عينيه:

- لا أدري كيف لرجل مثل مناحم بيجين، عرف الظلم والقهر على يد النازيين والبلاشفة، وذاق مرارة السجن والتشرد والبعد عن عائلته بلا ذنب جناه. أن يقترب كل تلك الجرائم في حق أناس لم يتدنؤوا العداء. كيف لمن تعرض للكره بلا سبب أن يكره بهذا العمق. كيف لمن أبعد شعبه بلا جريرة أن يقدم على محاوله إبادة شعب بلا ذنب. كيف يتحول من ضحية لجان، ومن مغتصب لمغتصب. لفار من هولوكست لمرتكب لعشرات الهولوكستات.

- وما دخل بيجين بكل هذا.

- ألم يكن قائد عصاة الأرجون التي هاجمت دير ياسين وغيرها... وكي تكتمل المأساة، أو قل عليها المهزلة، يمنحونه جائزة نوبل للسلام!! هل استمعت لقصيدة «بيجين يتكلم»<sup>(1)</sup> من أشعار إريش فريد؟

- لا.

أأسمعك إياها حتى تعرف أي حق؟

- لا بأس.

صمت قليلاً، ثم نظر إليّ متجاوزاً عينيّ، وبدأ في إلقاء القصيدة.

بيجين يتكلم

وهو يتكلم

كرجل دولة

(1) قصيدة «بيجين يتكلم». منقول من ديوان «من يهودي إلى الصهاينة ... اسمعي يا إسرائيل» للشاعر إريش فريد. ترجمة الأستاذ/ محمد أبو رحمة. الصادر عن دار حاي للنشر والتوزيع.

يريد أن يُسمع  
فمن يسمع؟  
السادات .. جائز  
حسين .. جائز  
لكن ما معنى هذا؟  
ما معنى أن يتكلم بيجين؟  
يعنى أن القاتل يتكلم  
مجرم دير ياسين  
مجرم فندق الملك داوود  
قاتل مئات كثيرة  
نساء ورجال وأطفال  
ويزداد العدد من عام لعام  
والآن صار  
مجرم لبنان  
مناحم بيجين يتكلم  
القاتل يتكلم عن السلام  
القاتل يتكلم عن الحق والعدل  
مناحم بيجين يتكلم  
القاتل يتكلم عن المستقبل  
فمن يسمع؟

السادات جائز  
حسين جائز  
فماذا يسمعان؟  
ما معنى كلام القاتل؟  
القاتل يتكلم عن مستقبل  
ولكنه بلا مستقبل  
فالطريق من دير ياسين  
إلى قتلى لبنان  
كان أطول بسنين عديدة  
من الطريق من لبنان  
إلى قبر مناحم بيجين  
وطريقنا من اليوم  
إلى فلسطين حرة  
سيكون أقصر من طريق  
الثلاثين سنة الأخيرة  
بلى: أقصر من الطريق  
من دير ياسين إلى هنا.  
بعد أن ألقى القصيدة أعاد النظر لعينيّ، فكان الأمل المستوحى من  
أبيات القصيدة المختلط بالدمع المترقق في عينيه أقوى من أي تعبير.  
وقال:

- ما رأيك؟

- الحقيقة أنها قصيدة رائعة. ولكن كيف لرجل مثل إريش أن ينظم قصيدة كهذه؟

- السبب بسيط. فهو يهودي وليس صهيوني... مثلك يا دافيد.

- ليس مثلي أنا فقط، بل مثل الكثيرين ممن يرون تعارض الصهيونية مع اليهودية كما قال الحاخام هيرش «إن تعريف الشعب اليهودي ككيان قومي يعد هرطقة». أو أينشتاين حين قال «إحساسي باليهودية يتعارض مع فكرة إقامة دولة يهودية ذات حدود وجيش ومشروع سلطة دنيوية». هز أبو إياد رأسه مصدقاً على كلامي. فأكملت مخفضاً نبرات صوتي كأنني أحدث نفسي لألومها:

- مع كل هذا، أشعر بأنني مذنب لأنني لم أهاجر لإسرائيل. لا أدري سبباً لهذا الإحساس مع إيماني بعدم شرعيتها. ربما هو التناقض الذي يفجره الإيمان المطلق بالعقائد؟ أو الكامن داخل نفس أي منا؟... ربما! طلبت منه أن يكمل بقية حكاية دير ياسين، فاستعاد عينيه الشاردتين مرة أخرى واستأنف سرد المأساة.

ظل خالد متجمداً في مكانه خلف التل الواقع في الجهة الشرقية من القرية، منبطحاً على بطنه، لا يقوى على الحركة، شلت أطرافه، جفت دموعه، حتى أنفاسه حاول أن يكتمها، خوفاً من أن يكتشف أمره. وعند الساعة الرابعة مساءً تقريباً، رأى أن الفرصة مناسبة للحركة دون أن يراه أحد، فاتجه غرباً. وفي الطريق التقى محمد وعلياء وتوجه ثلاثتهم لقريتنا.

اختتم خالد كلامه محذراً جدي ومن خلفه أهل قريتنا جميعاً:

- وما أظن إلا أن قريتكُم هي الهدف القادم لتلك العصابات.

- انقسم أهل القرية فريقين، فريق يرى البقاء والصمود والتصدي للمعتدي، وفريق آخر يرى أن لا قبل لنا بمواجهتهم فهم يملكون السلاح الذي زودتهم به قوات الاحتلال البريطاني ونحن لا نمتلك إلا عدة بنادق عتيقة من بقايا الحرب العالمية الأولى.

- حينئذ تعلقَت جميع الأنظار بجدي تنتظر رأيه. فصمت قليلاً، وأطرق يفكر. ثم رفع رأسه ببطء. هالني التعبير المرتسم على ملامحه حينها، أتذكره جيداً، ولكني لا أستطيع أن أصفه، كان خليطاً من الحيرة، الشفقة، التحدي، لا أدري.

- أشار جدي بأن ينقسم أهل القرية فريقين. فريق من الرجال القادرين على حمل السلاح يبقون للدفاع عن القرية. وفريق آخر يضم الشيوخ والعجائز والنساء والأطفال، يغادرون القرية لمكان آمن على أن يتم تعيين عدد من الرجال لصحبتهم لتأمينهم. أجمع أهل القرية على صواب هذا الرأي. وأشار الأستاذ راضي، المعلم بالمدرسة الابتدائية، أن يتوجه الفريق الثاني لحيفا، ظناً منه أنها مازالت بمأمن من غارات العصابات الصهيونية، فهي كانت ولا تزال خاضعة لحماية القوات البريطانية، على أن يعودوا للقرية بعد هدوء الأحوال، واستقرار الأمن.

عندئذ تدخل خالد، الناجي من مذبحة دير ياسين، بالنصيحة، فقال موجهاً كلامه لجدي:

- ساحني سيدي. أترى أن هذا هو الرأي الصواب.
- وماذا ترى؟
- أتمنى ألا يتكرر هنا ما حدث في قريننا من قبل...
- صمت قليلاً كأنه يتذكر ما حدث، ثم قال والألم يعتصره:
- هجوم... مقاومة... ثم تقع المذبحة.
- فليكن ما يكون. أن نستشهد فوق أرضنا، أشرف لنا من الفرار.
- كانت تلك آخر ليلة قضيتها في عين كارم، وفي الليلة نفسها ولد الوحش، وحش الخوف، ولد وكبر وتوحش في ليلة واحدة. تخوفت من أن أوي لفراشي وحدي كما يحدث في كل ليلة فتعللت بأنني رجل وعليّ البقاء والعمل والتخطيط مع رجال القرية. ولكن قرب الفجر سقطت مغشياً عليّ من التعب. حتى أيقظتني أمي بعد شروق الشمس بقليل استعداداً للرحيل خيفاً.
- عُين أبي كقائد لمجموعة الرجال التي ستصطحب الشيوخ والعجائز والنساء والأطفال لتأمينهم أثناء رحلتهم من عين كارم خيفاً.
- بعد أن ابتعدنا عن القرية مسيرة ساعة، وقفنا للاستراحة، تجمع الشيوخ والعجائز وظلوا يتهايمسون ثم أعلنوا رفضهم أن يكملوا المسير معنا، ربما تخرجاً من أن يشكلوا عبئاً على الباقيين. فقال عم جراح بصوته العميق الذي صقلت نبراته خبرة السنين، فكان إلقاؤه معبراً وكافياً للإقناع دون أن يحتاج لحجة أو برهان. أمسك بيد أبي واحتضنها بين كفيه، ونظر لعينية وقال:

اسمعني يا شامل يا ولدي. ولا تراجعني. لقد أجلت حديثي معك حتى نكون قد ابتعدنا عن القرية. انظر إليَّ جيداً وإلى عمك خليل وعمك رضوان وخالتك رقية ونبوية وكل الشيوخ والعجائز الباقين، أظن أن أحد منا يستطيع العيش بعيداً عن عين كارم. وماذا تساوي الحياة بعيداً عن أرضها وشمسها وزرعها وهوائها... وأهلها. اذهبوا أنتم على بركة الله، سنستريح نحن هنا قليلاً، ثم نعاود القرية.

همّ أبي بأن يرد معترضاً، فمد عم جراح يده المرتعشة ووضعها على فمه، وأشار لمجموعته من الشيوخ والعجائز، فهزوا جميعاً برؤوسهم كعلامة للموافقة. أيقن أبي عبث الاعتراض فاحتضن عم جراح وقبل يده ورأسه. واستأنفنا المسير تتبعنا دعوات أجدادنا وجدتنا.

اقترح أبي خلال جلسة الاستراحة التالية. أن ننقسم لمجموعات، كل مجموعة تمثل نساء وأطفال أربع أو خمس أسر على رأس كل مجموعة رجل يقودهم، على أن نلتقي في حي حواسه بحيفا. وقال حينها:

- هكذا أفضل. ستسهل حركتنا، ويصعب رصدنا من قوات الصهاينة.

بالطبع ترأس أبي مجموعتنا، وكانت تضم أسرتنا، أمي، أنا، ولم أكن تجاوزت الثانية عشرة حينها، وأختي صفية وهناء، أما أخي الأكبر، وليد، فقد كان على مشارف السابعة عشرة، فبقى مع رجال القرية للدفاع عنها. أسرة عم حنا ومنهم صديقي كميل. وأسرة عم نجاح. وأسرة عم بخيت. وأسرة عم شمعون، أحد ثلاث أسر يهودية مقيمة في قريتنا منذ زمن بعيد،

ومنهم صديقي جلعود، صديق طفولتي المقرب، قدم جدوده من أزمير بتركيا واستقروا في فلسطين منذ أوائل القرن التاسع عشر فصاروا بمرور الوقت عرباً فلسطينيين، وليسوا كهؤلاء التتار الذين أتوا من شتى بقاع الأرض ليحتاحوا أرضنا منذ عشرينيات القرن العشرين.

بعد رحلة شاقة، مليئة بالخوف ومحفوفة بالمخاطر. أطل فيها وحش الخوف بوجهه البغيض من خلف كل صخرة، ومن فوق كل شجرة، ومن وراء كل تل، أنتظر في كل لحظة انقضاضه علينا لابتلعنا في جوفه ويدخلنا في ظلمة قبره. وصلنا لمشارف حيفا، ننشد الراحة والأمان. ولكن يبدو أن هذا صار حلماً بعيد المنال في أي بقعة من بقاع فلسطين. فأول ما صك أسماعنا كان صوت طلقات البنادق ودوي المدافع، وأول ما صدم أبصارنا الوجوه الفزعة ودخان الحرائق. بالكاد وصلنا بيت عائلة النشاشيبي بحي حواسه الفقير - بالطبع هذا كان بيتهم القديم في حيفا قبل أن ينتقلوا للأحياء الراقية بمدينة القدس - حيث قررنا، نحن وباقي المجموعات أن نلتقي. وجدنا أهل البيت رحلوا ولم يبق سوى بعض الخدم الذين يتهيئون للرحيل. قادنا كبيرهم إلى قبو المنزل، فوجدنا به عددًا من المتطوعين العرب الذين أتوا للدفاع عن فلسطين، سوريين وعراقيين وأردنيين ومصريين. انتحى بنا أحدهم جانباً وسأل أبي:

- ما الذي أتى بكم هنا؟

فقص عليه أبي ما حدث في قرية دير ياسين. وما قدومنا لحيفا إلا طلب للأمان. قال والامتعاض يملأ وجهه:

- لقد وصلتم متأخرين. أنباء دير ياسين وصلتنا، وعرفنا أن الصهاينة أرسلوا في اليوم التالي فرقة مكونة من مئة رجل لدفن القتلى قبل وصول مندوبي وكالات الأنباء العالمية وممثلي بعثة الصليب الأحمر، كي يخفوا آثار جريمتهم. يقولون إنهم قضوا يومًا كاملاً في دفن الجثث التي تجاوزت الثلاثمائة. وعندما كلوا وملوا من دفن الجثث ألقوا بما بقي منها في بئر القرية.

- وماذا سنفعل الآن.

- باتوا هنا الليلة وفي الغد نتدبر أمرنا... ما علينا الآن سوى الانتظار، حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

- ألم تأتوا للدفاع عن أرض فلسطين.

طأطأ الرجل رأسه ولم يجب، واستدار مخلصاً وراءه ألف سؤال وسؤال يدورون في ذهن أبي. فانطلق خلفه وأمسك بذراعه وجذبه. وقال بغضب محموم:

- أجبنني، لم لا ندافع، لم يعد هناك شيء نبقى عليه، إذا كان من أجل هؤلاء النسوة والأطفال، فأنا على استعداد لقتلهم لو سيكونون سبب تخاذلنا، قل لي، صارحني، ولا تتركني هكذا.

- اهدأ خي. الجنرال ستوكويل البريطاني، قائد المنطقة الشمالية، أعلن أول أمس أن قواته سوف تترك خط الحدود بين الأحياء العربية واليهودية خلال يومين. يعني الإنجليز نفضوا أيديهم، والجامعة العربية التي وعدتنا بإرسال السلاح لم توف بوعدها. فكيف سنواجه العربات

المصفحة والمدافع والرشاشات والبنادق والقنابل، بلا سلاح. أيدينا لن تصد القنابل وصدورنا لن تصمد أمام المدفعية. اسقط في يد أي، ولم يدر ماذا يفعل، فتوجه لأحد أركان الغرفة وجلس منطويًا على نفسه.

الليلة التي قضيناها في حي حواسه بحيفا، يمكن أن نطلق عليها ليلة مواجهة الوحش، فقد كشر فيها عن أنيابه وأخرج مخالبه وجاس بحرية في خيالي. عندما أمسكت يد صديقي جلعود، وجدتها باردة كقطعة الثلج، وجسده كله يرتعش. سألته:

- ما بك، هل أنت مريض؟

أجابني وهو يرتجف:

- أنا خائف.

أخيرًا واجهت الوحش، فقد رأيته متمثلًا في نظرات جلعود الفرعة، استجمعت شجاعتي واستعددت للمواجهة. فالمرء يا دافيد يظل خائفًا من المجهول وعندما يواجهه تزول رهبته. وجدت نفسي مضطرًا لتشجيع جلعود، وبالتالي تشجيع نفسي، وشيئًا فشيئًا زالت الرهبة من نفسي، وخرجنا خارج الدار ومعنا كميل لنلهو سويًا.

فجأة اشتعلت الدنيا من حولنا، حاصر الصهاينة حي حواسه وألقوا ببراميل الزيت في الطرقات ثم ألقوا بكرات نارية من أعلى التل الواقع شرق الحي فندحرجت حتى مست الزيت فتحول الحي في دقائق لكتلة من اللهب، صار قطعة من الجحيم. اتبعوا هذا بهجوم بالقنابل والمدافع.

سادت حالة من الفزع والهلع والاضطراب، لم ندرِ ماذا نفعل. أشار أحد المتطوعين العرب بأن علينا التوجه للميناء فهو مازال تحت سيطرة القوات البريطانية، علنا نجد هناك سفناً تخرجنا من المدينة. علق متطوع آخر على هذا الاقتراح بضحكة تهكم وسخرية وقال ساخطاً:

- القوات البريطانية! أليسوا هم من قام بإخلاء السلاح من الأحياء العربية، وكدسوه عند الصهاينة في الأحياء اليهودية... أنت واهم يا أخي.

- هناك حل آخر برأيك.

انتحى أبي بالخالة أستير، والددة جلعود، جانباً. وأشار عليها بأنها يمكنها وأولادها البقاء، فالصهاينة لن يمسوها بسوء كونها يهودية، ويمكنها العودة لعين كارم واللحاق بعم شمعون عندما تهدأ الأحوال. رفضت في البداية، ولكنها خضعت عندما تطلعت خارج البيت ورأت حالة الفوضى والذعر التي تسوده.

احتضنتُ جلعود، وظلت أيدينا متشابكة وأمه تشده لداخل البيت وأبي يشدني لخارجه، قلت له مطمئناً:

- مازالت يداك ترتعشان. لم الخوف، أنت يهودي، ولن يمسوك بسوء.

- طه، القنابل لا تسأل عن ديانتك قبل أن تفتك بك.

انزعني أبي. وسرنا وسط الحرائق وتحت دوي المدافع وطلقات الرصاص ونداءات الجيش البريطاني المنطلقة من مكبرات الصوت «يجب إخلاء البيوت فوراً»، «النساء والأطفال حياتهم معرضة للخطر».

تداخلت نداءات الجيش البريطاني مع صيحات الصهاينة المربعة في مكبرات الصوت «الاستسلام أو الموت»، «استسلموا أو انتحروا»، «سوف نقتلكم حتى آخر شخص فيكم».

بالكاد وصلنا للميناء، فوجدناه اكتظ وما حوله من شوارع بالآلاف ممن سبقونا من الفارين الباحثين عن النجاة. صاح منادياً بأن نتوجه للسوق المواجهة للميناء كي نستطيع تنظيم أنفسنا ومحاولة استدعاء القوات البريطانية لحمايتنا.

في السوق، كانت مواجهتي المباشرة، والثانية تلك الليلة، مع الوحش، وبها قضي على كل خوف بداخلي تجاهه.

فعندما عمت الفوضى أثناء انتقالنا من الميناء للسوق، ضللت الطريق وابتعدت عن أبي، دخلت أحد المباني كي أصعد للسطح وانظر من أعلى علّ أجد أبي.

فوق السطح وجدت الوحش واقفاً متحفزاً مكشراً عن أنيابه. فقد كان هناك جندي صهيوني مجهز مدفعه المورتر ليطلقه على الحشود المتجمعة في السوق، والآخر التفت ناظراً إليّ مصوباً بندقيته إلى رأسي، تسمرت في مكاني، فظل ناظراً تجاهي ولم يفعل شيئاً، استجمعت شجاعتي وظللت واقفاً بتحد، لم أهتز، لم أرْتجف، لم أرْمش. وتحفزت للمواجهة. كما لو كنت داوود الضئيل في مواجهة المارد الجبار جالوت. عندئذ شعرت أن الوحش يتضاءل ويتضاءل حتى تلاشى. لم يحرك الجندي ساكنًا، فاستدرت بثبات وانصرفت. وما إن اطمأنت أني غبت عن ناظره أطلقت ساقِي للريح

وأنا أصبح محذراً «سيقتلوننا، اهربوا، اهربوا». ما إن انتهيت من تحذيري إلا وكانت المدافع من داخل السوق ومن أسطح المنازل التي تحيطه تنهمر قذائفها فوق رؤوس الآلاف. بلا تفكير انطلقت الحشود في اتجاه الميناء، الكل يحاول النجاة بحياته. تدافع الناس يركبون أي مركب راسية بالميناء. داسوا فوق رؤوس بعضهم البعض، سُحق الأطفال، اُنْتُهكت أجساد النساء. امتلأت السفن وانطلقت سريعاً. انقلب بعضها بسبب حملته الزائدة وغرق ركاها.

وسط هذا الذعر وتلك الفوضى لمحت أبي يحتضن أختاي، صنية وهناء، ويتلفت حوله باحثاً عني وينادي بأعلى صوته «طه، طه» بخطوة واحدة طرت في الهواء وتعلقت بعنقه، احتضنني وانفجر باكياً. شققنا طريقنا وسط الحشود وبالكاد استطعنا الصعود لأحد مراكب الصيد.

عند هذا الحد قاطعت أبو إياد متسائلاً:

- ولكن كيف يترك الناس بيوتهم هكذا...

- كما أوضح لك يا دافيد، إنه الخوف، الذي لو تملك منك لأفقدك القدرة على التفكير المنطقي ومن ثم الرأي الصواب. الخوف الذي إذا تسلل داخلك واختلط بدمك فمن اليسير أن تصاب بالهلع. الخوف عدوى والهلع وباء، ينتشران سريعاً بمجرد نظرة عين أو التفاتة أو صيحة فزع. الحياة غالية، يهون أمامها كل شيء.

زمت شفتي، غير مقتنع. ربما لأنني لم أمر بتجربة مماثلة. فقلت:

- إذن أكمل ماذا بعد أن قفزتم في مركب الصيد.

أقلعت المركب سريعاً متجهة لغزة. في الطريق بدأ رجل وزوجته في التقيؤ وأصيبا بحمى شديدة وصداع قاتل، وآلام بالبطن، فحصبهما أحد الركاب، قال إنه طبيب، فكان تشخيصه المبدئي حمى التيفود. لم يمر وقت طويل وانتابت راكب آخر الأعراض نفسها، الشيء الوحيد الذي يجمع بين ثلاثتهم أنهم أتوا أمس من عكا ليلحقوا بأهلهم. عند منتصف الليل مات الرجل، اضطررنا للصلاة عليه وإلقاء جثته في البحر. أما زوجته والرجل الآخر فقاوما حتى وصلنا غزة ونقلناهما للمستشفى. الطبيب المصري قال إنهما سيتعافيان بإذن الله، وذكر لنا أن الله أنقذ غزة من وباء مماثل عندما تم القبض على عميلين للصهيانة وهما يحاولان تلويث آبار مياهها بجراثيم التيفود، وهناك أنباء أنهم هم أيضاً خلف تلويث مياه عكا بالجراثيم نفسها.

في غزة كان على كل عائلة أن تحدد اختيارها فيما ستفعل. معظم الأسر، ونحن منهم، قررت البقاء في غزة ومحاولة العودة بعد استقرار الأمور. والقليل قرر الرحيل إلى عمان ومنها يحاولون العبور للضفة الغربية لنهر الأردن في محاولة للوصول لعين كارم مرة أخرى. أسرة عم حنا قررت السفر للقاهرة والاستقرار بها، مستعينين بأقارب لهم هناك، آملين أن يستطيع عم حنا اللحاق بهم.

بعد عشرة أيام تقريباً من مكوثنا في غزة، حلت علينا ليلة سوداء، ليلة الخامس عشر من شهر مايو من عام ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين، أعلنت بريطانيا إلغاء انتدابها المفروض على أراضي فلسطين منذ عام

1920، وبعدها بدقائق أعلن بن جوريون، بصوته الشبيه بأين ناي مشروخ، قيام دولة إسرائيل فوق أراضينا المسروقة.

«نجتمع هنا، نحن أعضاء مجلس الشعب، ممثلي الجالية اليهودية في أرض إسرائيل والحركة الصهيونية، في يوم انتهاء الانتداب البريطاني على أرض إسرائيل. وبفضل حقنا الطبيعي والتاريخي، وبقوة القرار الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة، نجتمع لنعلن بذلك قيام الدولة اليهودية في أرض إسرائيل والتي سوف تدعى دولة إسرائيل».

وبعدها بدقة أعلنت كل من الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي اعترافهما بالدولة الصهيونية. أذكر جيداً أبي وهو يستمع للمذيع، لم يحتمل المصيبة، فظل جالساً وهو صامت لمدة تجاوزت الساعة وعندما قام خر على الأرض مغشياً عليه. في المستشفى، صارحنا الطبيب بأنه أصيب بنزيف داخل المخ من جراء ارتفاع شديد في ضغط الدم، وغالباً سيخلف شللاً في الجانب الأيسر من جسده. بعد مرض أبي كان الانتقال والإقامة في القاهرة هو خيارنا الوحيد. ولكن ظل أبي يردد دائماً «سنعود قريباً، سنعود قريباً» حتى وفاته، كان يعيش الحلم كالحقيقة.

علمت فيما بعد أن قرينتنا لم تتعرض للهجوم. مات جدي، أما أخي فرحل للأردن وانضم لكتائب الفدائيين وقتل في هجوم للصهاينة فيما عرف بمعركة الكرامة.

استقرت عائلتنا في مصر، أصر أبي أن يصير اسمي طه الكرماوي كي أظل متشبهاً بجذوري في عين كارم، أنهيت دراستي الجامعية بمصر،

تزوجت أختاي من مصريين وحصلتا على الجنسية. أما أنا فأبعدت عن مصر في نهاية السبعينيات لمعارضتي لاتفاقية السلام مع إسرائيل، فرحلت لأمريكا. ولكن بقيت عين كارم في ذاكرتي، تحتل ماضيَّ وحاضري وكل مستقبلي، وبقي بيتنا فيها مغلقاً وبقيت شجرة السنديان التي غرسها جد جدي وبقي الكنز مدفوناً تحتها. عندئذ قاطعت أبو إياد مستفسراً:

- كنز أي كنز؟!

قال لي أبي إنه كنز من العملات الذهبية القديمة، تعود لعهد الرومان، عثر عليه مدفوناً تحت بعض الأنقاض الأثرية التي تقع شمال كنيسة يوحنا المعمدان.

قطع أبو إياد قصة الكنز وسألني:

- أتدري أنهم يقولون إن النبي يحيى أو كما تطلقون عليه يوحنا المعمدان ولد في قريتنا وأن تلك الكنيسة بنيت فوق الكهف الذي ولد فيه. أجبته بضيق:

- ولد في قريتك، ولد في الهند. المهم قصة الكنز أكملها.

- أثناء قيام أبي بعمل ترميمات للكنيسة، فقد كان أبي يعمل مقاولاً. وجد صندوق العملات الذهبية هذا. لم يخبر أبي أحداً بما اكتشفه. وقبل رحيلنا قام بدفنه تحت شجرة السنديان. وظل يذكرني به دائماً. ولا يكمل ولا يمل من أن يقول: «لا تنسَ عندما تعود استخراج الكنز، إنه ثروة تكفيك أنت وأولادك وأحفادك».

- وهل بيتكم مازال موجوداً.

- نعم.
- فلم لا تعود وتستخرج كنزك.
- غير مسموح لي بالعودة لبيتي.
- كيف؟!
- إسرائيل تمنع أي فلسطيني ترك داره حتى ولو كان مجبراً من أن يعود إليه. فأنا ممن يطلقون عليهم «غائب حاضر».
- وإذا ساعدتك في العودة.
- كيف؟
- نتفق أولاً.
- لك ما تشاء.
- نصف الكنز.
- اتفقنا، على أن نصطحب معنا ابني إياد. فأنا شيخ كبير.
- لا بأس. سأدبر الأمر مع أبراهام.

\*\*\*\*\*

لم أنس يوماً حديث ذكريات أبو إياد هذا، خاصة ما يتعلق بكنز أبيه، حتى اضطررت للسعي بجدية للحصول على نصف الكنز الذي ربما تتشكك في قيمته من أزميتي وتؤجل إشهار إفلاسي.

اهتزت الطائفة، فانبض قلبي ولعنت الأيام التي قذفت بي محشوراً في مقاعد درجة الضيافة، لم أكن أشعر بأي اهتزاز عندما كنت أستقل الطائفة منعماً بخدمات الدرجة الأولى.

- ملت إلى اليسار مقتربًا من أذن أبو إياد وقلت:
- ألا تلحظ المفارقة في رحلتنا هذه.
- أي مفارقة؟
- كلانا كانت إقامة دولة إسرائيل وراء رحلته من الشرق للغرب.
- هز رأسه موافقًا، ثم عقب بقوله:
- كل أبناء عين كارم في كل مكان على الأرض على اتصال ببعضهم البعض، وصل تعدادنا الآن 22653، ومنتظر جميعًا العودة.
- إجابة أبو إياد البعيدة تمامًا عن المفارقة التي أشرت إليها جعلتني أدرك مدى استغراقه في ذكرياته عن بلده ومسقط رأسه. فآثرت أن أدعه وشأنه دونها إزعاج بشرثرة لا طائل من ورائها.
- الحصول على نصف كنز أبو إياد هو فرصتي الأولى للخروج من أزمتي المالية. أما الفرصة الثانية التي من أجلها أبدى أبراهام استعداداه لقطع جزء من ذكره، فقد لاحت في الأفق منذ عدة أسابيع، وذلك بعد أن تلقيت اتصالًا هاتفيًا من السيد أفنيري:
- سيد دافيد، أين أنت؟ لم نرك منذ عام.
- قريبًا، قريبًا سيد أفنيري، سأزورك في مقر الصندوق.
- لم تكن تلك أول مرة يتصل بي أحد مسئولو جمع التبرعات لدعم دولة إسرائيل، فمنذ وصولنا لأمريكا لم تتوقف مطالباتهم بمساندة إخواننا هناك. عشرات المنظمات والهيئات تقوم بجمع الملايين وإرسالها لدعم مشروعاتها وتنمية نشاطاتها... منظمة النداء اليهودي، منظمة النداء

الإسرائيلي، لجنة التوزيع المشترك، الصندوق القومي اليهودي، صندوق وقفية فلسطين، صندوق وقفية إسرائيل، صندوق إسرائيل الجديد..... كنت أدفع طوعاً أو كرهاً، لا أنكر أن قيمة تلك التبرعات كانت معفاة من الضرائب، إلا أنها صارت في السنين الأخيرة مصدر عبء لا أستطيع تحمله. فبعد الأزمة الاقتصادية، لم أعد قادراً على مواجهة طلباتهم الملحة، ولا أطيق سماع شعاراتهم الممجوجة «أنقذ شعب إسرائيل، ادعم أرض الميعاد، اليهود في خطر، اليهود في حاجة لمساعدتك»، كنت أتمنى لو رددت قائلاً: «وأنا من يساعدي ويوقف تدهوري المالي». أما أكثر شعاراتهم إثارة لحنفي «ادفع دولاراً لتقتل عربياً»، من قال لهم إنني أريد قتل أحد، عربياً كان أو غير عربي.

في الآونة الأخيرة عندما وجدوا تجاهلاً للإلحاح، وعدم استجابة للشعارات، حاولوا تصعيد الإغراء أكثر، ففي آخر مقابلة جمعتني والسيد أفنيري، قال بطريقته الناعمة، وهو ينظر من خلف الزجاج السميك لنظاراته الطبية:

- سيد دافيد، إن لنا أساليبنا القادرة على تسهيل أعمالك وإعطائك الأولوية دون غيرك، بل وتهيئة فرص خاصة لك.  
- كيف؟

- سنضع اسمك في الكتاب الذهبي الذي يتضمن أسماء كبار المتبرعين. ليس هذا فقط بل سترسل لك دعوة لحضور الحفل الذي سيقام الشهر المقبل في ديترويت وستتم تلاوة اسمك واستدعاؤك للمنصة وسط

حفاوة واحترام الجميع.

- وماذا أيضًا.

- لو تبرعت بمبلغ....

ورفع رأسه لأعلى كعلامة على عظم قيمة التبرع. وهو لا يدري أني لا أستطيع سداد أقساط بيتي الجديد. فهزئت رأسي موضعًا فهمي لمعنى إشارته، فأكمل:

- حينئذ ستتاح لك الفرصة لمقابلة مسئولين متنفذين في حكومتي إسرائيل والولايات المتحدة وربما أوباما شخصيًا. وتحيل مدى التسهيلات التي ستمنح لك حينها.

وعندما لا أستجيب لمحاولات الترغيب، يبدأ في ممارسة الضغوط النفسية والمعنوية.

- سيد دافيد، إن وجودك في المنفى بعيدًا عن أرض الميعاد إنما هو نقص في يهوديتك.

هممت أن أقول: «أنا أرض ميعادي هنا، ولا أشعر بنقص في يهوديتي»، ولكنني تراجعته تجنبًا لإثارة حفيظة عشرات المؤسسات الشرسة، فخففت من حدة الرد بقولي:

- أنا أعيش هنا منذ أكثر من خمسين عامًا، أنا أمريكي.

- لا بأس، كن أمريكيًا كما تشاء، ولكن يجب أن يكون ولاؤك لدولة إسرائيل. فإذا اضطررت للبقاء في الشتات فليس أقل من مساعدة إخوانك.

- كيف أعيش هنا ويكون ولائي لدولة أخرى.
- إسرائيل ليست دولة أخرى، إنما هي المركز الروحي لكل يهود العالم، كالفاتيكان للكاتوليك أو كمكة للمسلمين.
- تريد لعقلي أن يكون هنا وقلبي هناك.
- بالضبط، فكلنا هكذا في المنفى.
- أليس هذا ازدواجًا في الولاء.
- وما الضير في هذا، العقل هنا يعمل كي يدعم القلب هناك. سياسة وتاريخ هنا، ودين وروح هناك. يجب أن تظل أرواحنا تهفو لأرض الميعاد، الأرض التي اختارها لنا الرب.
- لا شأن لي باختيار الرب، ولا علاقة لي بدولة إسرائيل، كما أنني لا أؤمن بالصهيونية. ولكن هذه الضغوط ترهق ضميري وتثير إحساسي بالذنب، فكنت أدفع استجابة للضغوط وإرضاء للضمير. أما وقد شارفت على إشهار إفلاسي فيجب أن أتملص بلطف، فقلت مستعطفًا:
- ألا يمكن أن تبقى إسرائيل لمن بها من يهود ونبقى نحن خارجها نبحث عن حقوقنا.
- هذا بمثابة انفصال الروح عن الجسد، يجب علينا الشعور بالذنب دائمًا لأننا باقون في المنفى ولم نسع للصعود لأرض الرب.
- لا مفر من الاستسلام، ولكن فلأؤجل إعلان الهزيمة قدر الإمكان:
- سيد أفيري، معذرة، امنحني مهلة لتدبر أمري.
- عندما لم تفجح محاولات السيد أفيري في ابتزاز جزء من أمواله، هو

غير موجود في الحقيقة، أحالني للسيد مزراحي.

هم ولا شك، على دراية تامة بما لحقني من انهيار نتج عن زلزال سوق العقارات وتوابعه في البورصة، ويعلمون ما أصابني من جرائه من ضياع ثروتي وعدم قدرتي على دفع أي إتاوات نظير بقائي بعيداً عن أرض إسرائيل. ولكن يبدو أنها كانت خطة مرسومة بعناية، يضغط عليّ السيد أفيري ثم يتلقفني السيد مزراحي.

- سيد مزراحي، لا يوجد لدي ما أستطيع أن أقدمه لكم.

- بل يوجد.

- ماذا؟

- إننا نريد ذيلك سيد دافيد.

رددت متعجباً:

- ذيلي!

أطلق ضحكة، وقال معتذراً:

- آسف سيد دافيد، فهذا تعبير مشهور لدينا، فكما تعلم عندما يقطع

ذيل البرص يبقى حيّاً ويظل يتلوى.

- لا أفهمك سيد مزراحي.

- كل مكان نغادره، يجب أن نبقى به الذيل.

ثم توقف قليلاً وقال:

- أنا عشت في العراق قبل الهجرة لأمريكا. ألسنت أنت من مصر؟

- نعم.

- ألم تسمعهم يقولون مسمار جحا.
- كثيرًا.
- إن ذيل البرص عندنا كمسمار جحا عندهم.
- الآن فهمت قصدك، يذهب البرص ويبقى ذيله يرقص.
- بالضبط.
- وما المطلوب مني.
- ستطالب باسترداد ذيلك.
- لكن مصر لم تقطع ذيلي.
- ألم يكن لكم بيتًا تمتلكونه في حارة اليهود؟
- نعم، وأختي راحيل مازالت تقيم به حتى الآن.
- هذا ما نريد بالضبط، أختك راحيل.
- رفعت حاجبي وأنا أقول:
- راحيل!
- نعم، ستكون صوتنا في مصر، ستملأ الدنيا ضجيجًا ومن ورائها سفارتنا هناك، ستطالب بوصفها المسئولة عن الطائفة في مصر بحقوق كل اليهود الذين غادروها إبان حرب 48 وحتى يومنا هذا، ستطالب بفندق شبرد وشركات بنزايون وعدس وريفولي وعمر أفندي، و..... سندعهما بحجج الملكية... كما يتضح لك سيد دافيد، ليس المهم ذيلك أنت، ولكن أي ذيل يهودي، لا تشغل بالك بالتفاصيل، فتلك مهمتنا.
- وضع لي أكثر.

- هناك معابدنا، مقابرنا، أضرحتنا المقدسة، آثارنا..... أي شيء تركه أي يهودي مر على مصر منذ زمن الفراعنة هو موضع مطالبتنا... حتى الأهرامات سنطالب بحقنا فيها.
- عندما أبدت دهشتي، أطلق ضحكة عالية، وقال في إثرها:
- لا تتعجب سيد دافيد. أتريد أن تستمع لأكثر من هذا.
- هزرت رأسي موافقاً، فقال مبتسماً:
- إننا نجهز لجنة خاصة لتطالب بحقوقنا في خير.
- وكأن تاريخنا واحد وقوميتنا مشتركة.
- تمامًا.
- ولكن ما هو دوري.
- أولاً عليك إقناع أختك بقبول المهمة.
- أشحت بوجهي وأنا أضرب سطح المكتب الفاصل بيننا براحة يدي
- تعبيراً عن صعوبة المهمة وقلت:
- مستحيل.
- لا تنس، إذا نجحت، فهذا يعني انتشارك من أزمته المالية.
- انتشاري من أزمته المالية مقابل إقناع راحيل؟!
- ليس فقط إقناع راحيل، فقد شكلت منظمات خاصة بهدف المطالبة بحقوق اليهود العرب، المنظمة العالمية لليهود العرب ومؤسسة العدالة لليهود الدول العربية، كلها منظمات تعد امتداداً لمنظمة «ضحايا الاضطهاد المعادي لليهود في مصر» التي أسسها شموئيل عطية أو كما كنتم تدعونه

في مصر سامي عطية. ستكون أنت المنسق بين هذه المنظمات وبين أختك في مصر ومن خلفكما جيش من المحامين والحقوقيين والسياسيين والجمعيات والهيئات، جميعهم سيدعمونكما ويدفعونكما... أما إذا استطعت تأدية دورك الأكبر فستكون لك نسبة من التعويضات التي سنحصل عليها.

- وما هو دوري الأكبر هذا.

- أن تثبت أنك فررت من مصر تحت وطأة التهديد والتعذيب والاضطهاد وبالتالي يتم إدراج كل يهود مصر وأبنائهم وأحفادهم على أنهم لاجئون. وكما دفعت ألمانيا تعويضات لضحايا الهولوكست سيدفع العرب، أو سنستطيع المساومة، ستطالبون بعودة الفلسطينيين أو بتعويضات لهم، سنطالب بمائة مليار دولار تعويض لنا. سنحفر الأنظمة العالمية على مساعدتنا وربما استطعنا إقناعهم باستقطاع نصيبنا من التعويضات من عائدات العرب البترولية مباشرة أو الحجز على أرصدهم في البنوك الغربية.

عندما لم أبدأ الحماس الكافي لعرض السيد مزراحي، أراد استشارة عواطفي بسر د قصص معاناة اليهود على مر التاريخ، استمعت له بصبر لا ينفد، ولما وصل لتاريخ يهود العراق قال بصوت تشوبه نبرة أسي:

- في العراق مازلنا نتألم مما فعله بنا نبوخذ نصر. أتذكر ما لاقيناه من هوان ونحن نساق كالعبيد من القدس إلى بابل. أجبته مبتسماً:

- ساحني سيد مزراحي، لا أتذكر جيدًا، فقد كنت صغيرًا.

قطب حاجبيه وقال:

- سيد دافيد، نشأتك في مصر مازالت تسيطر عليك، فروح الدعابة لم تفارقك.

- لا تؤاخذني.

- لا عليك.

اتفقنا، أنا وأبراهام، أن الفرصة الأولى، كنز أبو إياد، أقرب وأسهل وأسرع. ولن تكلفنا سوى خمسة أو على الأكثر عشرة آلاف دولار. وها نحن في طريقنا إلى باريس. وعن طريق أصدقاء أبراهام في السفارة الإسرائيلية هناك، سيتم استخراج جوازي سفر إسرائيليين لإياد وأبوه يسمحان لهما بالوصول لقريتهما، عين كارم، التي غادرها أبو إياد منذ ما يزيد على الستين عامًا، وهناك نستخرج الكنز من تحت شجرة السنديان. مرت ساعة أخرى، وأنا مازلت محشورًا في هذا المقعد الضيق. لا توجد لدي رغبة في التبول، ولكن يجب أن أحرك ساقي، الفرد والثني وأنا جالس في مكاني لا يكفيان، يجب أن أسير ولو قليلًا. ليس من اللائق أن أتجول في ممرات الطائرة هكذا بلا هدف، فلأظهر أنني ذاهب لدورة المياه.

- بينو، بينو.

أيقظت أبراهام للمرة الثالثة، ففرك عينيه وقال:

- نعم يا أبي.

- افسح لي، أريد الذهاب لدورة المياه.

- ثانية.

أجبت بحدة:

- أنا حر.

- نعم، نعم، حر، آسف.

وقفت لدقائق بلا هدف داخل دورة المياه ثم غادرتها. أثناء عودتي مررت أمام القسم الخاص الذي تقوم به المضيفات بتجهيز الوجبات والإشراف على تلبية طلبات الركاب.

- آنسة.

- نعم سيدي.

- عذراً، هل أطمع في كوب من الماء.

- اذهب لمقعدك وسأأتيك به.

- أنعرفين مقعدي!

- بالطبع.

نظرت إليها خجلاً وقلت:

- أشكرك.

طبعاً تعرف أين مقعدي، فهذا عاشر كوب ماء أطلبه. تأخرت المضيضة في تلبية طلبي، فكدت أن أضغط على زر استدعائها، ولكني سمعت أصوات آتية من أول الممر بالقرب من القسم الخاص بالمضيفات، فمددت رأسي مستطلعاً الأمر، فرأيتهم يتهيئون لتوزيع وجبة العشاء، إذن فلا أنتظر.

- أي وجبة تفضل سيدي، لدينا دجاج، لحوم، أسماك.
- وجبة كوشر من فضلك.
- السؤال نفسه وجهته المضيقة من الجهة المقابلة لصديقي أبو إياد، فطلب أيضًا وجبة كوشر، ثم التفت إليّ قائلاً:
- الحلال والحرام في الأكل والشرب واحد لكلانا... تقريبًا.
- هززت رأسي موافقًا، وانتهزت الفرصة للتأكيد، للمرة العاشرة، على اتفاقنا بحصولي على نصف الكنز فقلت:
- أندرني يا طه إن أكثر ما يثير إعجابي بشخصك هو تمسكك بتعاليم دينك، وخاصة الحلال والحرام.
- لم يعقب، فأكملت:
- الوفاء بالعهود أهم ما يميز المسلمين.
- أدرك على الفور ما أعنيه، فقال، دون أن يلتفت إليّ، وهو يتناول صينية الطعام من يد المضيقة:
- يا دافيد، أؤكد للمرة المائة أن نصف الكنز لك، أنا لا أحنث بوعدتي ولو قطعت رأسي، اطمئن.
- قلت وأنا أقضم قطعة من الخبز بعد أن دهنتها بقليل من الزبد:
- ولكن هل أنت واثق أن بيتكم مازال قائمًا.
- أكيد.
- هل ستذكره.
- لقد ظل أبي رحمة الله عليه، حتى يوم مماته، يذكرني بقريتنا،

شوارعها، طرقاتها، ساحاتها، بيوتها. يذكرني بيتنا، أين يقع، كيف أصل إليه من ساحة القرية الرئيسية، بسوره الخارجي، بوابته، مدخله، شجرة السنديان...

- آه، شجرة السنديان. رجاءً يا أبو إياد لا تنسَ شجرة السنديان. توقف أبو إياد عن تناول الطعام، رجع للخلف وأسند ظهره لقائم مقعده، لم ينظر إليّ وإنما رفع رأسه لأعلى وقال كأنه يحدث نفسه:  
- أنا منفعل حقيقة، مستثار لأقصى حد. هل حقاً سأرى قريتي، سأسير في طرقاتها، أتنسم هواءها. هل سأدخل بيتي، أتجول في غرفه، أجلس في فنائه. آه، أكاد لا أصدق. أخاف أن أموت قبل أن أدرك تلك اللحظة.

رددت عليه مازحاً:

- طه، أبو إياد، حبيبي، تماسك. ماذا تقول! تموت؟! لا، إياك أن تموت. أنا فداك، ولكن لا تموت.

\*\*\*\*\*



## موسى «موشيه»

### تل أبيب - باريس

لا أصدق أن الإجراءات مرت بسلام في مطار بن جوريون. لم أواجه مضايقات من أي نوع، وها هي الطائرة تنهياً للإقلاع لباريس، وها أنا أستمتع بالتدليل الزائد لراكبي الدرجة الأولى بمقاعد الوثيرة، وخدماتها المميزة.

- عذراً آنسة.

- نعم سيدي.

- فضلاً، هل يمكن أن تحضري لي قلماً وبعض الأوراق، يبدو أنني كنت في عجلة فنسيت أقلامي.

- على الرحب والسعة سيد موشيه.

- أتعرفيني؟!

- بالطبع، فقد كنت زميلة لابنك دافيد طوال فترة دراستنا في جامعة

تل أبيب، ألا تتذكرني، فكم من مرات عديدة زرتكم في البيت بصحبة دافيد... آه، كم تأملت لما...

أشرت لها بألا تكمل، فأدركت خطأها، ويبدو أنها شعرت بتخطيها حدود مهنتها، فبدا عليها الارتباك، فقالت وكأنها تحاول أن تدفع عن نفسها تهمة ما:

- آسفة... آسفة، ما أردت أن...

أشفقت عليها، فقلت مهدئاً من روعها:

- لا عليكِ يا بنيتي... لا عليكِ.

- أنت رجل رائع سيد موشيه.

تلك العبارة التي قالتها كانت حافزي لإعادة النظر إليها، إنها جميلة حقاً. قد ممشوق، خصر نحيل، وجه باسم بطبعه دون تكلف، عينان تشعان ببريق جذاب، وشعر ناعم مصفف لأعلى، تبدي رقة ونعومة غير مصطنعتين، فتذكرك دائماً بأنها أنثى. كيف لم أنتبه إليها من قبل، يبدو أن هذا من علامات التقدم في العمر، فأني لرجل مثلي تجاوز السبعين أن يطمح برفقة فتاة مثلها، فات أوان الجدد هذا فقط أوان المداعبات. قلت ردّاً على مجاملتها الرقيقة:

- أشكرك، في الحقيقة أنكِ أنتِ الرائعة.

قلتها بطريقة تتعدى حدود المجاملة، لكنها لم تنفر مني، واستقبلتها بابتسامة مشجعة، فتراجعتُ سريعاً، متذكراً أنني في أوان المداعبات. فقلت مغيراً دفة الحديث:

- ولكن أخبريني، هل كنتِ ودافيد في نفس الكلية.

- نعم.

فقلت متعجباً:

تدرسين اقتصاد وعلوم سياسية، ثم تعملين كمضيفة في شركة  
العال!

أجابت باستسلام:

- ومن يجد عملاً سيد موشيه.

- صحيح، لك كل الحق.

- تسمح لي بالانصراف.

تفضلي.

انصرفت، فتنفست الصعداء وشكرت الرب أنها لم تُعرفني كصاحب  
فضيحة تسرب المعلومات الشهيرة، والتي بسببها أنا مطارذ الآن وحياتي  
معرضة للخطر في كل لحظة. جهات شتى تتعقبني، الشاباك... الموساد...  
متطرفون إسرائيليون... جهات فلسطينية عديدة... وأخيراً السي أي آيه،  
الجميع يسعى خلف الوثائق التي يحويها الملف الذي بحوزتي.

أدركت حرج موقعي عندما اتصل بي هاتفياً هذا الصباح صديقي  
شاؤول منبهاً لخطورة التصريحات التي أدليت بها للقناة الثانية بالتلفزيون  
ليلة أمس الأول، وحذرني كذلك أن هناك مساعي حثيثة لإدراج اسمي  
على قوائم الممنوعين من السفر، وأن القرار قد يصدر خلال ساعات قليلة  
قادمة. بعدها علمت بخبر مصرع الرائد جاك في حادث سير. بالطبع لن  
يسعوا لقتلي كجاك إلا بعد الحصول على الوثائق. إذن فهذه الوثائق هي  
ضمان بقائي على قيد الحياة.

سرعان ما أطلقت وسائل الإعلام اسمًا على الفضيحة التي فجرتها في التلفزيون أمس الأول، فظهرت الصحف بعنوان رئيسي هو «القاضي موشيه حاسون يفجر فضيحة دافيد». لا أدري ماذا يعنون بفضيحة دافيد، هل دافيد ولدي هو الفضيحة، أو ما حدث له؟ ... قديمًا رحلت عن مصر مع والديّ بسبب ما عرف باسم فضيحة لافون، واليوم أرحل عن إسرائيل بسبب فضيحة دافيد. يبدو أن الفضائح هي قدرتي وسبب شتاتي.

من لافون إلى دافيد، أكثر من خمسين عامًا، قضيت معظمها في إسرائيل.

بنحاس لافون، وزير الدفاع الإسرائيلي في عام 1954- عام اكتشاف خلية التجسس التي شكلتها المخابرات العسكرية الإسرائيلية في القاهرة، وجندت من أجلها عددًا من الشباب اليهودي المقيمين في مصر، وأطلق عليها اسم عملية سوزانا، وقيل إنه لافون هو من أعطى الإذن بها - لافون هذا هو السبب وراء رحيلنا عن مصر، ومصدر عذابنا وشتاتنا. حقًا شتاتنا، فقد تشئت شمل أسرنا تمامًا ولم يلتئم حتى يومنا هذا. فبرغم تحملنا، كيهود مصريين، حملات الهجوم العنيفة التي شنت علينا إبان حرب عام 1948، كرد فعل غاضب لهزيمة الجيوش العربية وقيام دولة إسرائيل، إلا أننا لم نستطع تحمل مشاعر العداء والتشكيك في ولائنا التي تصاعدت بصورة مفزعة بعد الكشف عن فضيحة لافون.

الكثير من أسر أقاربنا وأصدقائنا ممن لم يستطيعوا تحمل آثار حرب

عام 48، رحلوا عن مصر. هجرة أسرة خالي يوسف لأمریکا، وأسرة عم زكي لفرنسا، أصابنا أُمي بحزن عمیق، إلا أنها لم تفكر أبدًا فی الهجرة، كانت دائمًا تردد «أنا مصرية أبا عن جد، جدي الأكبر سمعان رحل من سالونیک لمصر فی عهد محمد علی هربًا من الحرب التي اندلعت بین تركيا واليونان، وأقام فی حي باب الشعرية، وتزوج بجدي، عناد، التي نزحت عائلتها من إسبانيا لمصر هربًا من الاضطهاد الكاثوليكي لليهود منذ مئات السنين. كلاهما اندمج تمامًا مع المصريين وتطبع بطباعهم وتبنى عاداتهم، حتى إن جدي عندما قاربت السنة العاشرة من زواجها ولم يعيش لها مولود ذكر، خافت أن يطلقها جدي، فلجأت إلى إمام مسجد الشعراني، تطلب منه العون، كما يفعل جميع المصريين، فنصحها بإطعام عشرة من فقراء المسلمين وكسوتهم، وإذا رزقها الله بالولد فعليها أن تلقنه تعاليم الدين الإسلامي وتطلق عليه اسمًا إسلاميًا، وجاءتها البشري يوم ولادتها بالمولود الذكر، فأطلقت عليه اسم عبد الله، وبالفعل حفظ أجزاء من القرآن... أنا مصرية... أنا مصرية ولن أترك مصر لمجرد ظروف طارئة». حتى عندما طالت أحداث العنف أُمي بشكل مباشر لم تراجع عن رأيها. ففي صيف عام 1948 عادت من عملها كرئيسة لقسم الملابس الحریمی بمحلات شيكوريل وقد ضمدت يدها برباط طبي، قال لها أبي بلهفة:

– ماذا أصابك، هل وقع لك حادث؟

– ألقى المطرفون قبلة على المحل فتهشم الزجاج وأصيب ساعدي.

صمت أبي قليلاً ثم قال:

- رحيلنا عن حارة اليهود أنجانا من الهجوم الذي وقع عليها. ولكنه لاحقك وطاولك في وسط القاهرة.

- هذا جرح بسيط، لا تقلق سيتعافى سريعاً. السيد سالفاتور شيكوريل أمر بصرف تعويض لجميع العاملين المتضررين، أنا واثقة من أن كل شيء سيعود لطبيعته سريعاً، والسيد سالفاتور سيعيد افتتاح المحل في أقرب وقت بمعاونة صديقه، الملك فاروق.

نظر أبي لها مشفقاً عليها، فهو يعلم مدى تحملها حتى لا تصاب بالهلع، وقال وهو يداري وجهه عنها:

- أنا أحب مصر مثلك تماماً، وأتمنى ألا أعادها... ولكن...

- لكن ماذا؟

- ماذا بعد يا ناتاليا؟

- أزمة وستنتهي.

بالفعل كانت أزمة وانتهت، واستطعنا تجاوز تلك المحنة وهدأت الحملة التي كان ينقصها الدليل على عدم وطنيتنا أو تورطنا في علاقة مع الدولة اليهودية الناشئة أو اتهامنا بازدواج الولاء.

حتى بعد قيام الجيش بانقلابه في عام 1952 لم نتعرض لأي مضايقات من السلطة الجديدة بل على العكس تمت طمأننتنا والتأكيد بأننا جزء من النسيج الاجتماعي المصري، وتوج إحساس الاطمئنان بزيارة قائد الانقلاب اللواء محمد نجيب لمعبد عشار هشمايم بشارع عدلي بوسط

القاهرة. حتى جاء لافون وقدم الدليل على تورط الجماعة اليهودية بمصر على طبق من فضة. فقد كانت عملية سوزانا نقطة فاصلة، بسببها اختلط الشك باليقين لدى المصريين، والحقيقة بالشائعات لدينا. فكنا نتناقل فيما بيننا ما يصل لأسماعنا من أخبار عن خبايا القضية. «قبضوا على مائة وخمسين يهودي ويخضعونهم لأبشع أنواع التعذيب»، «ضربوا أرمان قرمونة حتى الموت ويدّعون أنه انتحر»، «هناك ضباط نازيون هم من يقومون باستجواب المتهمين ويدربون المصريين على أساليبهم المروعة في انتزاع الاعتراف»، «انتحر ماكس بينيت هرباً من التعذيب»، «لقد تعرضنا لموجة عنف غاضب إيان حرب 48 وبدون سبب، فما بالنا إذا كان هناك سبب سيسحلوننا في الشوارع»، «تم إعدام شموئيل عازار وموسى مرزوق».

أثارت تلك الشائعات حالة من الفزع والرعب بين الأوساط اليهودية على الرغم من طمأنة السلطات المصرية وتأكيدها في حينها بأن من قدموا للمحاكمة لم يقدموا لأنهم يهود وأن الطائفة اليهودية مؤمنة ولن تتعرض لأي اضطهاد.

ما أثار خوف عائلتنا، بشكل خاص، هو علاقة أبي بأحد المتهمين الرئيسيين في القضية، فيليب ناتاسون، وكذلك ارتباطه السابق بالجماعة الصهيونية «ها - شומר ها - ترائير». كانت تلك الشائعات والأقوال التي تترد في بيتنا وكذلك في لقاءات أبي بأصدقائه تثير قلقي ومخاوفي وتطلق العنان لخيالي، فكنت في كل لحظة أترقب مداهمة رجال الأمن

لبيتنا لإلقاء القبض على أبي وربما أمي، ولم يتركونا، أنا وداوود وراحيل، سيأخذونا معهم كي نكون أداة ضغط عليهما. سيضربونا، سيطفئون السجائر المشتعلة في بطوننا، وربما يعتدون على راحيل، ولم لا وقد أعطت الصحف انطباعاً عاماً بأن جميع الفتيات اليهوديات هن مثل مارسيل نينيو - المتهمه في القضية والتي تحترف الوسائل الجنسية المثيرة لتجنيد الشباب اليهودي - طاردتني تلك الأوهام في يقظتي فنزعت الأمان عن نهاري، وتحولت لكوابيس في منامي فحرممتني نعمة النوم الهادئ في ليلي.

لم نتعرض لأي اعتداء ولم تلاحقنا أجهزة الأمن ولكن صرنا مدانين، حتى دون كلام، بمجرد نظرات الأعين أو إشارات الأيدي. ومما زاد الطين بلة تلك الغارة التي شنتها إسرائيل على قطاع غزة في عام 1955.

اكتشفنا فيما بعد كذب الكثير من تلك الشائعات، ولكن بعد فوات الأوان. علمنا أيضاً أن من أطلقها وروج لها في الأوساط اليهودية المصرية حينذاك هي أجهزة المخابرات الإسرائيلية لترويع اليهود المصريين ودفعهم للهجرة لإسرائيل. هذا ما أكدته لي شخصياً أحد المتورطين في عملية سوزانا - عرفته عن طريق صديق أبي، فيليب ناتاسون، وباح بما لم يبيع به ناتاسون شخصياً - لم أستطع يوماً الإفصاح عن اسمه حفاظاً على حياته، فقط أرمز إليه بالحرف «س». قابلته في عام 1975، في حفل خاص باليهود المصريين، دعت إليه جماعة «جوشين» في كيوتو نأحشونيم احتفالاً بعيد بوريم. بعد أن تلونا باللغتين العبرية والعربية - فهذا هو المكان الوحيد الذي نستطيع أن نعلن فيه عن لساننا العربي دونما

حرج - تلونا «الميجيلات مصر ايم»، التي تروى وقائع مأساة الهجوم على الحي اليهودي بالقاهرة على يد المماليك عام 1524، ثم نجاتهم على يد القوات العثمانية. جرف تيار من الحنين مشاعري فأبحرت في قارب بلا شراع لمصر، لحارة اليهود، للظاهر، لأصدقاء الطفولة عزيز ومصطفى... لأمي، غلبتني دموعي فخرجت إلى الشرفة، ولم تلحق بي تسالا - زوجتي - كعادتها، وجدت «س» يجلس وحيداً وقد خلع معطفه رغم برودة الجو في شهر مارس، وكأس الشراب موضوع أمامه على منضدة صغيرة وقد أوشك ثلجه على تمام الذوبان. كان رأسه ملقى للخلف، فظننته نائماً. أخرجت منديلاً من جيبي لأجفف دموعي. فسمعت صوتاً يقول:

- دموع الحنين لمصر.

التفت إليه، فوجدته مازال مغمض العينين. فأكمل:

- هيا... تعال اجلس يا موسى.

- ياه، موسى، كم أحببت هذا الاسم... لماذا تركت الحفل وتجلس وحيداً.

تنهد بحرارة ولم يجب، فسألت مستنكراً:

- لا تقل إنه الحنين لمصر.

- بالطبع لن تصدقني إذا قلت لك إنه كذلك.

- على الرغم مما عانيته هناك.

- نعم على الرغم مما عانيته هناك. في مصر كنا يهوداً أما هنا فنحن

مصريون، في مصر كنت سيّداً أما هنا فمن أنا، ألم تصدمك هذه العبارة

من قبل «ماذا يريد هذا المصري». نحن هنا محتم علينا أن نطرد من عقولنا جزءاً من عقولنا... أنا ألوم نفسي ألف مرة على ما أقدمت عليه.  
- حقاً.

- بكل تأكيد، فمصر كانت أرحم بنا من إسرائيل.  
- كيف.

- المصريون كانوا يدافعون عن ثورتهم فسجنونا. ولكن قل لي لم تجاهلونا في إسرائيل.

يبدو أنه أفرط في الشراب فانطلق لسانه متجاهلاً التحذيرات بالتزام الصمت، رافضاً التهديدات بالملاحقة والعقاب إذا أفشى أسرار العملية.  
قال لي المسكين في أسى:

- لأننا يهود عرب فإننا لم نكن ذوى أهمية بالنسبة للسلطات في إسرائيل، تركونا في السجون المصرية حتى أطلق سراحنا بعد حرب 1967، ولم يبذلوا أي جهود أو مساعٍ دبلوماسية لتحريرنا ولا حتى في أثناء عملية تبادل الأسرى بعد حرب السويس. انحصرت القضية في الخلاف بين لافون وبن جوريون ونسونا تماماً. وعندما أطلق سراحنا ورُحِّلنا إلى إسرائيل ظننا أننا سنستقبل استقبال الأبطال، ففوجئنا بالعكس، تم التعامل معنا وكأننا خونة، تم التعتيم علي وصولنا، وعشنا كمكمنى الأفواه غير مسموح لنا بذكر القضية من قريب أو بعيد...

صمت قليلاً، أطرق، مد سبابته داخل كأسه محرّكاً بقايا الثلج بداخله.  
ثم رفع رأسه، جفونه المرتحية لم تمكنني من رؤية عينيه. قال بعبارات

مبهمة، استطعت بالكاد تفسيرها:

- موسى، قيام دولة إسرائيل لم يضمن أمن كل اليهود في جميع أنحاء العالم، كما يدعون، وإنما صار مصدر شقاء وتعب وإثارة أحقاد الآخرين ضد الكثير منهم... هل تشك في أن قيام دولة إسرائيل زاد من اضطهادنا بدلاً من أن يحده... ستتذكر كلمتي هذه مع مرور الوقت «الانفجار ضدنا قادم، إن لم يكن اليوم فربما غداً، ليس من العرب فقط بل من العالم أجمع». أنا خائف أن نعود لنقطة الصفر حيث ينتهي الأمر بنا إلى مأساة أخرى ونجد أنفسنا مضطرين للرحيل عن فلسطين ونعود للشتات مرة أخرى.

ليلتها أسر لي بأن الكشف عن عملية سوزانا كان متعمداً من قبل أجهزة المخابرات الإسرائيلية، حيث أعطوا المسكين عبوة قابلة للاشتعال ذاتياً بعد زمن معين، وذلك كي يفتضح أمره ويقبض عليه وبذلك تضع السلطات المصرية اليهود المصريين جميعاً في سلة واحدة كداعمين لدولة إسرائيل وللصهيونية فيكونون موضعاً للشبهات ويتم التضييق عليهم فيضطرون للهجرة لإسرائيل. وما أذيع من أن القصد من العملية كان ضرب العلاقات المصرية الغربية كان مجرد تضليل.

صمت «س» واسترخى تماماً في مقعده. فجأة هبت ريح باردة فسرت قشعريرة في جسدي. أشفقت عليه، فقلت ناصحاً وأنا أدعك راحتي يديّ سوياً طلباً للدفع:

- ألن تأتي للداخل، الجو صار شديد البرودة.

- لا سأظل هنا. فقط أرجو أن تخبر من بالداخل أن يطفىء النور آخر المغادرين.

لا أدري، هل رجال المخابرات هم من يوجهون السياسة أم العكس؟ ولكن ما أنا على يقين منه أن كليهما لا يغير نمط تفكيره، من عهد الرومان ليومنا هذا، فقط ينوعون في أسلوب تطبيق أفكارهم. فالفكر نفسه الذي قاد لفضيحة لافون هو ذاته الذي أدى لفضيحة دافيد.

المصادفة هي التي قادتني لكشف ملابسات فضيحة دافيد وإمالة اللثام عن غموضها. كان ذلك يوم أن تم انتدابي لرئاسة اللجنة التي شكلت للتحقيق في التجاوزات التي حدثت في أثناء الحرب على قطاع غزة، المساهم بعملية الرصاص المسكوب التي وقعت في نهاية عام 2008. اكتشفت لاحقاً أن التحقيق ما هو إلا مجرد إجراء روتيني. فكل شيء كان معد مسبقاً... التقرير الذي سيصدر عن اللجنة، توجيه اللوم لبعض القيادات، إيجاد المبررات لبعض التجاوزات.... وأن اختياري لرئاسة اللجنة هو محاولة من الحكومة لاستغلال اسمي وتاريخي الطويل في مجال الدفاع عن حقوق الإنسان وتضعني كواجهة مشرفة وموثوق بها لهذا التقرير المشوه. فالمطلوب مني فقط هو تذييل التقرير بتوقيعي فيكتسب شرعية أمام الرأي العام في الداخل، ويُمنح المصادقية لدى القوى الغربية في الخارج.

لم يكن الاهتمام منصباً باتجاه كشف الحقيقة ومحاسبة المسؤولين، ولكن المهم، من قبل بداية التحقيق، أن يخرج التقرير بشكل متوازن، بحيث

تستطيع الدوائر السياسية الغربية أن تقبله دون أن تلقى اعتراضاً من منظمات حقوق الإنسان لديها. أما الاعتراض، أو حتى النقد، المتوقع من بعض الجهات العربية، فقد قيل لي: «لا تلق بالآ لهؤلاء الأموات». تلك العبارة الأخيرة، والتي يبدو أنها زلة لسان أفلتت من قائلها أمامي دون قصد، هي ما استوقفني واستنفر كل حواسي القضائية والحقوقية وضميري الإنساني، وجعلتني أراجع كل أقوال الشهود أو المتهمين بحرص، وأن أدقق في تفاصيل الأحداث بأمانة. وهذا ما دفعني للتسلل لمبنى الأرشيف الخاص بجهاز المخابرات العسكرية «أمان»، فاكشفت بالصدفة ذلك الملف الذي أنا بسببه مطارّد ومعرض للقتل، وكذلك فإن ما حواه ذلك الملف هو ما أفقدني آخر ما تبقى لدي من إيمان بالصهيونية.

حتى ذلك الحين، قبل انتدائي كرئيس للجنة التحقيق، كانت الصهيونية لا تزال لها آثار باهتة على طريقة تفكيري. فعلى مر السنين فقدت الكثير من إيماني بها كمعتقد سياسي يجب عليّ أن أقاتل من أجله. الفضل في ذلك يرجع لأبي، فكثيراً ما ألقى على سمعي نصائحه، التي كان أولها منذ ما يزيد على الستين عاماً عندما اصطحبنا، أنا وأخي داوود، في ليلة التاسع والعشرين من شهر نوفمبر من عام ألف وتسعمائة وسبعة وأربعين - ليلة الإعلان عن القرار الصادر عن الجمعية العامة للأمم المتحدة بتقسيم أرض فلسطين بيننا وبين الفلسطينيين - في تلك الليلة اصطحبنا أبي، لمدرسة «أبراهام بيتش»، مقر مجموعة مصر الجديدة من جماعة «ها - إفري ها - ترائر» - وذلك قبل أن تتحول للعمل السري وتبنيها الاسم

الدولي للحركة «ها - شومر ها - ترائير» - لم يكن انضمام أبي لمجموعة مصر الجديدة بالأمر الهين، فقد كانت تحكمهم طبقة فريدة من نوعها، مفرطة في حدتها. إذ يرون أنفسهم، بطلاقتهم في اللغة الفرنسية والتزامهم بقواعد التعامل الراقية «الإنيكيت»، أفضل من باقي اليهود وجديرين بالانسلاخ عن، أو حتى التنصل من، فقرائهم، خاصة ممن يقطنون في حارة اليهود. حتى عمل أبي كموظف في بنك مصر لم يكن ليشفع له بما لتلك الوظيفة من وجهة اجتماعية. فقط عندما انتقلنا للسكن في حي الظاهر، حينها رأوا أنه لا بأس من انضمامه لهم، دعم قرارهم هذا وساطة عم يعقوب، صديق أبي وزميله في العمل بينك مصر.

دارت المناقشة بين أعضاء الجماعة في ليلة صدور قرار التقسيم، حول «هل يجب على الجماعة تأييد القرار أو إدانته؟» كانت معظم الآراء حينها تدعو لتأييده متعللين بأن ذلك هو الموقف العام للجماعة سواء مقرها الرئيسي بنيويورك أو ذلك الذي في إسرائيل أو مصر، كما أنهم كانوا يدعمون قبولهم للقرار بذريعة أن كلاً من الصهيونية العالمية والاتحاد السوفيتي أيدا القرار، وعلينا ألا نشذ عن القاعدة. كان أبي أبرز المعارضين للقرار، ويرى أن الإدانة واجبة. أتذكر جيداً كلماته يومها «الصهيونية لا تعني أن نغتصب أرض الغير بالقوة، أقصى ما نتمناه هو قيام دولة تضم كلاً من اليهود والفلسطينيين على أساس العيش المشترك، فلا بأس من مساعدة أبناء عمومنا، من العرب المتخلفين، والأخذ بأيديهم للنهوض من كبوة التخلف الحضاري الذي يعيشونه. وأنا أرى أنه لا مبرر لتأييد

القرار لمجرد أن الاتحاد السوفيتي أيده، هذه تبعية غير مقبولة، كما أنها ارتباط غير مفهوم لديّ بين الصهيونية والشيوعية».

تبنّت الجماعة تأييد القرار على الرغم من معارضة بعض الأعضاء وعلى رأسهم أبي. ليلتها، بعد أن غادرنا مقر الجماعة، ظل أبي صامتاً، لم نجرؤ، أنا أو داوود، على كسر حالة الصمت التي انتابته. ظل يتجول في شوارع مصر الجديدة بلا هدف ونحن خلفه. وعندما مررنا أمام محل جروبي، لم أستطع المقاومة، فملت ناحية داوود وهمست في أذنه:

- ألا تريد أن تأكل «آيس كريم كاساتا» من جروبي؟  
- يا ليت.

- إذن هيا قل لأبينا.

- لا قل له أنت.

صمتُ لثوانٍ، ثم تشبعت وقلت:

- أبي ألا يمكن أن نستريح قليلاً.

التفت أبي إليّ وظل محملاً في وجهي لبرهة، فبدا وكأنه عاد من مكان بعيد. أو كأنه فوجئ بأننا معه، ثم قال:

- نعم، نعم.

قلت وأنا أحك رأسي:

- ألا تريد أن تحتسي فنجاناً من القهوة... ها هو جروبي.

ابتسم أبي، إذ أدرك الهدف من كل تلك المناورة، فقال:

- لك الحق، لا بأس هيا بنا.

أثناء استمتاعنا بتناول «الكاساتا» ونحن جالسون في شرفة المحل المطلة على قصر مصر الجديدة، عاد أبي لشروده حتى إنه غفل عن شرب فنجان القهوة، ولم ينتبه إلا عندما علا صوتي محتجاً على اختلاس داوود لقطعة من «الكاساتا» من طبقي. فلامه أبي قائلاً:

- ألن تكف عن عادتك هذه يا داوود، لم تصر على أخذ ما ليس حقك؟.

- أردت فقط مداعبته.

- مداعبته... إذن سأداعبك أنا أيضاً.

استدعى أبي النادل وطلب «كاساتا» أخرى، عندما أحضرها، فض أبي غلافها وقسمها بيننا، وأعطاني نصيباً أكبر بكثير من نصيب داوود، عندما اعترض قال أبي:

- هذا جزاؤك لأنك أخذت ما ليس حقك.

- لكن ما أعطيته له أكثر بكثير مما أخذته منه.

ثم دمت عيناه وهو يقول:

- هذا ظلم.

- أنت من ظلم نفسه. مددت يدك لطبق أخيك دون إذنه.

صمت داوود خجلاً.. أبديت تعاطفاً معه وأعطيته قطعة من نصيبي

بعد أن استأذنت أبي.

استأنف أبي حديثه:

- داوود، لقد حذرتك أكثر من مرة، وحشتك كي تغير من سلوكك

هذا، ولكنك لم تمتثل، لم لا تقنع بما قسمه الله لك؟! .  
علا صوته وهو يقول جملته الأخيرة تلك، وازدادت حدته. وصار  
هجومياً أكثر منه ناصحاً وهو يقول:

- إنك تفعل مثلهم تماماً.  
لم ندر سبب حدة أبي المفاجئة، فنظرنا لبعضنا متعجبين، وتساءل  
داوود ببراءة:

- مثل من؟  
- هؤلاء الذين يريدون الاستيلاء على ما ليس لهم بالقوة. أساس  
انضمامي لجماعة ها - إفري ها - تزاير كان العمل على لم شمل اليهود  
في مكان آمن، في أرض فلسطين، أرض الميعاد، ولكن على أن يتم هذا  
في إطار العيش المشترك بيننا وبين العرب، وليس طردهم من أرضهم أو  
تقسيمها بيننا.

صمت قليلاً ثم قال:  
- أما وقد تغيرت الأهداف وتبدلت المواقف، فيجب عليّ أنا أيضاً أن  
أراجع أفكاري ومعتقداتي.

ثم قال ناصحاً إيانا، وإن بدا وكأنه يحدث نفسه:  
- إذا ترك الإنسان أفكاره بدون تنقيح واختبار دائمين، فإنها تتحلل  
وتذوب، تماماً كتلك الكاسات التي أمامكم، إذا تركتها دون أن تأكلها  
وتهضمها، فإنها ستذوب ولن تستفيدا منها ولن تستمتعا بطعمها اللذيذ.  
لم نعقب، فقط هزنا رأسينا استجابة لقول أبي:

- هل فهمتما؟

ونحن في الحقيقة لم نفهم شيئاً في حينها، إنما أردنا فقط إرضاء أبي. وإن ظلت نصائحه تلك عالقة في ذاكرتي أسترجعها كلما غفلت فأصحح مساري وأراجع أفكاري.

قبل مغادرتنا لمحل جروبي قال أبي:

- يجب ألا ننسى أمكم وأختكم.

ولكن «الكاساتا» لا يمكن أخذها معنا للبيت. ستذوب قبل أن نصل. فلنأخذ شيئاً آخر.

هتف أبي مستدعيًا النادل قائلاً:

- «متر».

عندما أتى طلب منه فاتورة الحساب على أن يضيف إليها قيمة نصف كيلو «مارون جلاسيه»، صرخنا أنا ودادود من الفرحه، «المارون جلاسيه» الذي يصنعه جروبي يعد الأفضل على الإطلاق، وشراؤه يعد من المناسبات التي ينبغي الاحتفاء بها.

لم أع أن تلك الليلة هي بداية تراجع أبي عن إيمانه المطلق بالصهيونية كعقيدة يجب على اليهود تبنيها والدفاع عنها، إلا عندما وصلنا للمنزل، فبقدر ما كانت المعركة محتدمة والحوار ساخناً في مقر جماعة ها - إيفري ها - تزاير، كانت أيضاً المواجهة بين أبي وأمي من الحدة بالقدر الذي طغى على صوت ليلي مراد وهو يصدق من المذيع الذي اشتراه أبي حديثاً بمناسبة انتقالنا لحي الظاهر «منايا في قربك أشوفك سعيد، وأشوف

نفسى جنبك ده شيء مش بعيد، مش بعيد». فقد أبدت أمي اعتراضاً شديداً على اصطحاب أبي لنا لمقر الجماعة.

كانت أمي تخاف السياسة وتحذرهما، وتكره الصهيونية وتراها حركة عنصرية، وكثيراً ما حذرت أبي. ولكن أبي كان مدافعاً شرساً، وكثيراً ما دارت بينهما مناقشات ساخنة حول جدوى انضمام أبي لجماعة ها - إيفري ها - ترائير:

- حسونة، أظن أن السلطات في مصر ستترك تلك المنظمات الصهيونية تعمل بحرية مع تزايد مقاومة الفلسطينيين للغزو اليهودي لبلادهم.  
- وما المانع، فلا يوجد أي تعارض بين كوني صهيونيا وبين ولائي لمصر.

دائماً ما كانت ترد أمي بتهكم:

- أنت تخدع نفسك. هل تظن أنك عندما تشتري شيكلات كي تدعم الصهاينة وتحضر مؤتمراتهم أن هذا أمر خافٍ على السلطات. وهل تظنهم بالسذاجة التي تجعلهم يعتقدون أن دعمك للصهيونية لا يتعارض مع ولائك لمصر.

- أنت تعلمين جيداً أني أحب مصر ولا أنوي مغادرتها، ولكن...  
- لكن، ماذا؟

- لكنني أيضاً يهودي، وعليّ دعم وجود إخواني من اليهود داخل كيان مجملهم وبقية شر الاضطهاد. ألم تسمعي بما أصاب إخواننا على يد هتلر في معسكرات الاعتقال؟

- لا تدع ما حدث مبرراً للاستيلاء على أرض الفلسطينيين، ولا تنس أن زعماء الصهيونية وكبري منظماتهم كانوا حلفاء لهتلر وللنازية. أنت تعلم جيداً أنني يهودية متدينة بل قد أكون متعصبة، ولذا فإني أكره ما تفرضه الصهيونية على الرب بتعجيل النهاية.

- من قال إننا نريد أن نستولي على أرضهم، فقط نريد أن نعيش معهم في سلام على أرض الميعاد.  
عندئذ تهزأ أُمي وترد بتهكم:  
- ها.

ولكن في تلك الليلة - ليلة قرار التقسيم - شعرت أن حماس أبي في الدفاع عن الأفكار الصهيونية كان فاتراً وذلك أثناء المشاجرة التي دارت رحاها بينه وبين أُمي والتي كانت خلفيتها الألمان الشجيرة والصوت الملائكي لليلي مراد.

علا صوت أُمي محتجاً:

- حسونة، حذرتك أكثر من مرة بأن تجعل أفكارك الصهيونية شأناً خاصاً بك، وأن تجنب أبنائي ذلك العبث بمعتقداتهم الدينية.  
فرد أبي بصوت منخفض مفتقد لحماسة المعتاد:  
- الصهيونية ليست عبثاً وإنما.....

~~~~~

- سيد موشيه، تفضل.

أفقت على صوت المضيفة الناعم وهي تمد يدها بالأوراق والقلم:

- أشكرك يا... لم تخبريني باسمك.
- مدت يدها وجذبت قطعة معدنية صغيرة معلقة أمام صدرها من جهة اليسار مكتوب عليها اسمها وهي تقول:
- ليليت.
- آه، ساحيني فصعب عليّ قراءتها.
- شجعتني ابتسامتها، فأكملت:
- ولكن لا أظنك أبدًا مثلها.
- مثل من؟
- ليليت.
- هزت رأسها معبرة عن عدم فهمها، فقلت:
- يبدو أنك لم تدرسي التلمود.
- رفعت شفتها السفلى لأعلى كأنها أرادت أن تقول «ومن يقرأه». فقلت لها:
- ليليت، المرأة الأولى في حياة آدم، وعشيقته بعد ظهور حواء.
- التي تمردت لاحقًا على الإله وعلى وضعها كأنثى ورفضت كل الرجال وأرادت الانتقام من جميع المتزوجين، رجالًا ونساءً على حد سواء. في اعتقادي أنها فعلت ذلك بدافع الغيرة.
- وما يدريك ربما أكون هي، أو قل إن كل النساء يمكن أن تكون ليليت لو تملك الغيرة منهن.
- وضعت يدي فوق رأسي وأنا أقول:

- أجرينَا يَا إلهي .
- ثم ضحكتُ بعنفوية، ولكنها فقط ابتسمت وقالت :
- تأمر بشيء آخر سيد موشيه .
- سؤال .
- تفضل .
- سافرت كثيرًا إلى باريس من قبل . وفي كل مرة أنسى كم تستغرق الرحلة .
- قرابة خمس ساعات .
- أخرجت ساعتِي المعلقة بسلسلة في جيب سترتي الداخلي، وفتحت غطاءها المزين بنقوش وزخارف وكتابات باللغة العريية . وقلت :
- هذا يعني أننا سنصل قرابة الفجر .
- تقريبًا .
- ثم علقت ليليت بقولها :
- تحفة .
- ما هي ؟
- ساعتك، تحفة حقيقية .
- تفضلي .
- أشكرك . تأذن لي بالانصراف .
- هزرت رأسي وصحبتهَا بابتسامة .
- أغلقت غطاء الساعة وأعدتها لجيب سترتي متذكرًا اليوم الذي أعطاني

إياها أبي، ليل السبت السادس من شهر أكتوبر من عام ألف وتسعمائة وثلاثة وسبعين، كنت حينها قد تهيأت لمغادرة بيتنا بتل أبيب - بعد أن رحلنا عن كيبوتز عين شيمر الذي استقررنا به منذ قدومنا لإسرائيل - للتوجه فوراً لوحدي العسكرية بناء على الاستدعاء العاجل الذي تم بثه عبر قنوات الإذاعة والتلفزيون، بسرعة توجهت قوات الاحتياط لوحدهم العسكرية لرد الهجوم الذي شنته القوات المصرية والسورية على جبهتي القتال في سيناء والجولان. كنت في عجلة من أمري، حتى إنني لم أنتظر فراغ تسالا من الاغتسال بعد أن تبادلنا لحظات حب سريعة كوداع لحياتنا الزوجية التي لم تتعد ثلاثة أسابيع، واقتحمت عليها الحمام وقبلتها وهي واقفة تحت الماء المنهمر، حاولت التشبث بي وإثارتي من أجل ممارسة نوبة عشق أخرى تحت الماء، فتملصت منها وغادرت الحمام سريعاً قبل أن أرضخ لرغبة جنسية متأججة لم تُشبع، فأخضع لجزاء عسكري لن يرحم.

وجدت أبي ينتظري عند باب الشقة، فمد يده يحفف الماء الذي يقطر من رأسي، وقال مبتسماً:

- انتظر دقيقة.

- لا وقت يا أبي.

- لحظة واحدة.

غاب قليلاً وعاد يحمل صندوقاً خشبياً صغيراً فتحه وأخرج هذه الساعة وأعطاه لي وهو يقول «عندما تعود، سأقص عليك حكاية هذه

الساعة، ولكن حتى ذلك الحين حافظ عليها كسلاحك تمامًا». لم أكن أدري حينها أن هذه الساعة سيكون لها الفضل في إنقاذ حياتي.

كانت وحدتي من ضمن الوحدات التي تم الدفع بها إلى وسط سيناء لتعزيز تأمين منطقة الممرات ومنع القوات المصرية من احتلالها. في صباح يوم الحادي عشر من أكتوبر تمركزت الوحدة عند المدخل الغربي للممر «متلا»، وتم توزيع أفرادها على نقاط حصينة مزودة ببطاريات صواريخ مضادة للدبابات. كنت مع خمسة أفراد آخرين مسؤولين عن أول نقاط الدفاع عن الممر من جهته الغربية. في ليلة الرابع عشر من أكتوبر، بعد أن انتهت نوبة حراستنا، أنا وزميلي عاميت، أوينا للاستراحة بالمنطقة الخلفية لنقطة التمرکز. كانت الجبهة هادئة، والقمر بدرًا، ونسمات خريفية منعشة تهب بين حين وآخر فتداعب خيالي بلطفها وتدغدغ مشاعري برقتها. استجبت لليل الصحراء الملهم وأخرجت صورة تسالا من حافظتي التي أضعها في جيب سترتي الداخلي. ناجيت تسالا وبثت صورتها أشواقي ممنيًا نفسي بانتهاء الحرب سريعًا حتى أعود إليها ونستأنف شهر العسل الذي أفسدت حلاوته هذه الحرب اللعينة. أعدت الصورة للحافظة وأثناء وضعها في جيب سترتي الداخلي لامست يدي الساعة التي أهداني إياها أبي، فأخرجتها وحاولت تأمل نقوشها في ضوء القمر، فكانت مفاجأة مذهلة، حتى إني انتفضت جالسًا ودققت النظر في النقوش، أشعلت عود ثقاب وقربته من غطاء الساعة في محاولة للتأكد مما قرأت، فنهرني عاميت قائلاً: «أطفئ هذا الثقاب فورًا، أتريد كشف موقعنا

للعدو»، أطفأته ولكن بعد أن تأكدت أن المحفور على غطاء الساعة هو كتابة باللغة العربية لعبارة «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». طار عقلي، تقلبت أفكارى، تأججت وساوسى، من أين أتى أبى بهذه الساعة؟ ولم يقتنى مثله؟ أعتنق الإسلام؟ أهو مسلم؟ ولكنى أعرف أنه متمسك بالمعتقدات الصهيونية حتى وإن فقد الكثير من إيمانه بها فهذا لا يعنى تغيير يهوديته! تذكرت ضجره من الأوامر الدينية، ومشاداته المستمرة مع أمى بسبب التزامها وتعصبها، ربما إذن كان يخفى إسلامه. ظللت على تلك الحالة من التششت والحيرة، حتى غلبني النعاس وأنا قابض على تلك الساعة بيدي.

استيقظت على وخز مؤلم في عنقي من جهة اليمين دفعته بيدي وانتفضت مذعوراً خوفاً من أن يكون ثعباناً أو عقرباً لدغني. فتحت عيني فوجدت شبحاً جاثماً فوق رأسي يدفع خنجره بقوة في عنقي حتى شعرت أنه يكاد أن يخترقه وصرت عاجزاً عن تحريكه أو حتى بلع ريقى. عندما هممت بفتح فمي، أطبق بيده اليسرى عليه فكتم أنفاسي وشلت حركتي تماماً. تملكني خوف قاتل، وآثرت الاستسلام. أدركت أن نهايتي صارت وشيكة. كانت يدي اليمنى مازالت قابضة على الساعة، حركت يدي اليسرى متحسساً الأرض من حولها عليها تلتقط شيئاً أدافع به عن نفسي فانغمست في سائل ساخن. مال الشبح برأسه مقترباً بفمه من أذني وقال هامساً بالعبرية: «كم عددكم»، فرفعت يدي اليسرى مشيراً بعلامة الخمسة، أدت عيني ناظراً ليدي المرفوعة لأعلى فوجدت أن السائل

الذي انغمست فيه هو الدم، ووقع بصري على عاميت مذبحاً بجواري. قررت عدم إبداء أي مقاومة كي لا أصير لما صار إليه عاميت. عندما شعر الشبح بأنني لا أنوي المقاومة، وضع ركبته اليمنى فوق صدري فسحقه، ثم حرر فمي وأخرج شريطاً لاصقاً من جيبه ووضعه فوق فمي وقام بتقييد يديّ وقدمي. تنفست الصعداء، إذ إن هذا يعني أنه لا ينوي قتلي، ربما فقط أراد أسري، لا بأس فالأسر أفضل من الذبح. أثناء تقييد يديّ سقطت الساعة من يدي اليمنى فالتقطتها.

أجلسني أمامه، ثم رجع للخلف ساندًا ظهره لصخرة كبيرة. فسقط ضوء القمر عليه فاستطعت أن أراه بوضوح، قوي البنية، صبغ وجهه بصبغة سوداء فضاعت ملامحه، بزته العسكرية تنبئ بأنه من أفراد قوات الصاعقة المصرية.

أمسك بخنجره فاستعطفته بعينيّ ألا يذبحني، فإذا به يمسه في ستره عاميت ليزيل ما علق به من دم ثم دسه في غمده المربوط بإحكام حول ساقه اليمنى. وجلس يتفحص الساعة، أخذ يقربها من عينيه ويدقق النظر وعلامات التعجب ترسم على ملامحه ودهشته تزداد شيئاً فشيئاً. ثم نظر إليّ وقال بالعبرية:

- من أنت؟

أعملت عقلي سريعاً «بماذا أجبه، ربما هذه فرصتي للخلاص»، فأصدرت صوتاً مكتوماً يعني أن عليه إزالة الشريط اللاصق حتى أستطيع الإجابة عن تساؤله. مديده ونزع الشريط وهو يقول:

- لو فتحت فمك فهذا.

وأخرج خنجره من غمده ولوح به، ثم دفعه ثانية في عنقي وقال:

- قل بهدوء وبصوت منخفض. من أنت؟

أسعفني عقلي فقلت:

- أنا موسى، مسلم، أبي أصله من يهود الدونمة الأتراك الذين يُظهرون الإسلام ويبطنون اليهودية، ولما اكتُشفت هويتهم في منتصف الثلاثينيات لم يجد مكاناً يهرب إليه سوى فلسطين. لكن فيما يبدو أنه كان قد اقتنع بالإسلام ديناً له فنشأني تنشئة إسلامية.

- وماذا تفعل مع جيش إسرائيل.

- التجنيد إجباري، ولا مفر منه.

- أأكون مسلماً وتقتل إخوانك من المسلمين.

- لا، لن يكون هذا أبداً، أنا مع هذا الجيش مجبراً، وقررت أن أكون

معوقاً لهم، ولقد عاهدت ربي على ألا أطلق رصاصة واحدة على مصري.

- كيف.

«كيف! ماذا أقول له؟»:

- هذا أمر بسيط، في المعارك يموت الناس ولا يعرف أحد من قتلهم.

هز رأسه، فلم أدر، أصدقني أم مازال متشككاً. الساعة المهداة من أبي،

كانت بداية نجاتي، فلتكن نشأتي المصرية هي التأكيد عليها، وصداقتي

لمصطفى هي طوق نجاتي. فكرت سريعاً «ماذا لو اخترت معلوماتي عن

الدين الإسلامي؟»، فقررت أن أبادر أنا باستعراض معلوماتي الضئيلة

عن الإسلام.

في لحظات الخطر تستنفر كل حواسنا وتتحفز جميع إمكاناتنا. استنهضت ذاكرتي، حاولت العودة بها للوراء لأكثر من عشرين عامًا، محاولاً استنطاقها كلمات حفظتها، ولكنها توارت خلف آلاف الأحداث والصور والمواقف.

أغمضت عيني، فلاح أمامي صورة ثلاثة صبية، أنا ومصطفى وعزيز، يجلسون تحت السلم يأكلون الأرز باللبن، الذي أحضره من عربية عم عزرا، ويرددون آيات من القرآن. قلت وأنا أعتصر ذاكرتي سائلاً الرب أن يلهمني الصواب، محاولاً التشبث بطوق نجاتي:

- سأقرأ لك الفاتحة.

لم أنتظر إجابته وشرعت في القراءة:

- بسم الله الحليم الرحيم.

فقاطعني قائلاً:

- بسم الله الرحمن الرحيم.

رددت متلعثماً:

- هكذا علمني أبي.

وأكملت:

- الحمد لله رب العالمين، مالك يوم الدين.

فقاطعني ثانية.

- وأين الرحمن الرحيم.

اضطربت اضطراباً شديداً، لكنه لم يشتتني بل زادني تحفزاً وزاد ذاكرتي انتقاداً. فبدأت من جديد:

- بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين...

أكملت القراءة حتى نهايتها، دون خطأ واحد، كنت أسحب الكلمات من فم مصطفى ليخرجها فمي. عندما انتهيت من القراءة بدت على وجهه علامات الارتياح وانبسطت عضلاته المنقبضة، فارتحت قبضة يده الممسكة بخنجره، وخف ضغطه على عنقي فاستطعت ابتلاع ريتي. ربح أول جولة وكسبت ثقته، ولكنه أبقى على يديّ وقدميّ مقيدين. فليدق الناقوس ليعلن بدء الجولة الثانية. قلت بطريقة متبسطة مبدئياً تعاطفي:

- ولكن ماذا تفعل في هذا الجبل الموحش؟ وكيف وصلت إلى هنا؟

- إنني هنا منذ أسبوع، من قبل بداية الحرب.

- كفرقة استطلاع.

مازال على حرصه، فلم يجب، فقلت:

- تقول هنا منذ أسبوع! ... لا بد أنك جوعان.

ظل على صمته، فحشثته بقولي:

- ها، جوعان، بالطبع جوعان.

- آخر شيء أكلته كان ثعباناً اصطدته بالأمس.

- انظر لهذه الحقيبة، إنها مليئة بالطعام. وكذلك يوجد ماء... إذا

أردت.

تردد، فشجعتَه بقولي:

- سنأكل سوياً، يجب أن أتسحر، فأنا صائم غداً، ألن تصوم؟

نظر إليّ بدهشة وقال:

- ستصوم!

- بالطبع، ألسنا في رمضان وأنا مسلم.

سحب الحقيبة ومد يده داخلها وأخرج مغلفاً يحتوي على قطع من

البسكويت. فقلت له:

- دعك من هذا، فهناك أغذية محفوظة أشهى بكثير.

فعبث ثانية بمحتويات الحقيبة وأخرج عبوة معدنية، فقلت:

- حسناً، هذه فاصوليا، أتحبها.

- لا بأس.

أخرج خنجره من غمده وفتح به العبوة وشرع في التهامها بيده، فقلت:

- هناك ملعقة، وخبز أيضاً.

أخرج قطعة من الخبز، ثم نظر إليّ وقال:

- تأكل.

- سيغشى عليّ من الجوع.

أخرج عبوة أخرى وفتحها بخنجره ومد يده بها لي، فأشرت برأسي

«كيف وأنا مقيد اليدين». حل يديّ وهو يقول:

- فقط لتأكل، إياك الإتيان بأي حركة وإلا.

ثم نظر لجثة عاميت وهو يلوح بخنجره ثم وضعه بجواره واستأنف التهام الطعام.

ريحت الجولة الثانية، لا مجال لكسب المباراة بالنقاط، ولكن فقط بالضربة القاضية. فليدق ناقوس الجولة الثالثة.

راحت على شيء واحد، أنه مرهق، وتشيت تفكيره ليس بالأمر الصعب. قلت:

- ولكن كيف عرفت بموقعنا.

- عود ثقاب أشعله غبي منكم.

بلعت ريقى وأنا أنظر لجثة عاميت وقررت الانتقام من غبائي. فقلت محاولاً التغلب على ارتباكى:

- متزوج.

أشار برأسه موافقاً وهو يلتهم الفاصوليا، فأكملت:

- لديك أطفال.

توقف عن تناول الطعام، وضع العبوة المعدنية على الأرض بجوار الخنجر، وأخرج حافظته من جيب سرواله الخلفي، وسحب منها صورة قربها مني وهو يشير لمن بها ويقول:

- محمد ثلاث سنوات، وريم ستان.

نظرت لوجهه. لم تستطع الصبغة السوداء أن تداري إشراقه ولمعان عينيه وهو يقول:

- ريم نطقت كلمة بابا منذ عشرة أيام فقط.

- رائعان. بارك الله لك فيهما. أنا أيضًا تزوجت منذ عشرين يومًا فقط.
وأخرجت صورة تسالا وأعطيتها له، قال:
- جميلة حقًا، أكيد تتمنى أن تعود لها سريعًا.
- أكيد.

- إذن التزم بأوامري تعد سالمًا.
هزرت رأسي موافقًا. أولاني ظهره عائداً للجلوس أمامي ساندًا
ظهره للصخرة الكبيرة، فانتهزت الفرصة ووضعت عبوة الطعام المعدنية
بجوارتي وداريت يداي خلف ظهري لبيدوا وكأنهما مقيدتان. ثم قلت:
- ماذا ستفعل الآن.

- قريبًا ينتهي كل شيء.
«قريبًا ينتهي كل شيء؟! هذا يعني بالتأكيد أن هناك هجوما وشيكا
سيقع على منطقة الممرات، يجب أن أتدبر أمري سريعًا. لا مجال للمزيد
من الجولات. ليس أمامي سوى الجولة الأخيرة والضربة القاضية.»
استدرجته لحديث تشعب لمجالات شتى، حتى نسي تمامًا أن يديّ غير
مقيدتين، ثم نظرت للأفق وقلت:

- الشمس توشك على الشروق. ألن تصلي؟
- لك حق.

اقترب مني وهو يخرج شريطاً لاصقاً من جيبه ووضعته على فمي وهو
يقول:

- إياك والإتيان بأي حركة حتى أنتهي من صلاتي.

توجه ناحية الجنوب الشرقي ورفع يديه بجوار رأسه وقال «الله أكبر» وشرع في صلاته.

نظرت للخنجر، بيني وبينه أمتار قليلة، ولكني في مجال بصره وأقل حركة سيرصدها. انتظرت حتى خر ساجداً، وبدفعة واحدة من قدميَّ المقيدتين طرت في الهواء وقبضت على الخنجر وسددت طعنتين نافذتين لجنبه الأيمن وهو ساجد، أطلق صرخة مفزعة والتفت موجهاً لكمة أطاحت بي بعيداً. وقف أمامي وعينه تطلقان شرراً كفيلاً بالقضاء عليّ، أدركت أنني هالك لا محالة، ثوانٍ وألحق بعاميت. تقدم خطوة ثم وقف يترنح قليلاً وأخيراً خر ساقطاً محدثاً صوتاً مكتوماً.

حللت قيد قدميَّ سريعاً، ونزعت الشريط اللاصق عن فمي، نهضت باحثاً عن إبرامينو، حامل جهاز اللاسلكي، فوجدته وقد سبق عاميت. أجريت اتصالاً سريعاً بالقيادة منبهاً أن هناك هجوماً وشيكاً سيقع على منطقة مرمي.

عدت لضابط الصاعقة المصري، كان يخور كالشور ويشخر محاولاً التقاط آخر الأنفاس الباقية له في الدنيا. أيقنت من شحوب وجهه وارتخاء جسده أن لا خوف منه، فاقتربت منه بحذر، جنثت على ركبتي بجوار رأسه، رفعت رأسه فوق فخذي، فتح عينيه، طفا على سطحهما صورة ابنه، محمد وريم، ثم جذباني إلى عمقهما فابتلعني دوامة الموت وأحسست بثقل الهواء الراكد داخل صدري. سدد إليَّ نظرة أخيرة وغمامة موت تظللها فنفذت إلى أعماق نفسي فذبحتها وظلت تطاردني

لسنين عديدة كلما أغمضت عينيّ. اقتربت من أذنه وهمست «ساحني، هكذا الحرب، الناس يموتون ولا ندري من قتلهم». التقط نفساً أخيراً ولم يخرج له ثم أغمض عينيه ولم يفتحها ثانية.

قررت الاحتفاظ بصورة محمد وريم، أخرجت حافظته فلم أجد بها سوى الصورة وخطاب داخل مطروف كُتب عليه «إلى زوجتي الحبيبة سعاد، من زوجك المحب أيمن»، ومدون تحت هذه العبارة عنوانه «15 ش عبد الحميد الديب - الخلفاوي - شبرا مصر». أعدت الصورة والخطاب داخل الحافظة ودسستها في جيب، نزعت ساعة يده وخاتم زواجه والسلسلة التي تحيط عنقه ومدون على قطعة معدنية صغيرة تتدلى منها رقمه العسكري الذي يدل على كل بياناته. حفرت حفرة وواريت جسده فيها وعلمتها بقطعة من الحجارة نقشت عليها بخنجره «هنا يرقد جثمان أيمن، مات وندري من قتله، قتله مصري أعطاه الأمان».

في تمام السادسة صباحاً، حدث الهجوم المتوقع، أبلت بلاءً حسناً في صده مستخدماً بطارية الصواريخ المضادة للدبابات بمفردي.

انتهزت قيادة الجيش تلك الفرصة واحتفت بي وبالغت في إظهار بطولتي في محاولة منها للتغطية على هزيمتنا المخزية في الحرب واعتبار ما حدث ليس هزيمة وإنما مجرد تقصير يمكن تداركه. تم تكريمي ومنحت نوط الشجاعة. عندما عدت للبيت ألقىت به ولعنت الحرب التي تغيب رجالاً من أمثال عاميت وأيمن. في اليوم التالي نُشرت قصيدة شعرية في مجلة «باماحانيه» نظمها أحد الجنود المشاركين في الحرب. أضاعت

القصيدة الأثر الذي كانت ترجوه القيادة العسكرية من تكريم بعض المقاتلين.

- كنت طفلة صغيرة وكنا في حرب 1948، عندما غنيت لي:
- أعدك أن الأمور ستكون على ما يرام.
- ارتديت الزى العسكري، وألفت لي أغنية.
- ووعدتني أن هذه هي الحرب الأخيرة.
- قلت لي وقتها.
- سترين يا صغيرة، أن هذه ستكون الحرب الأخيرة.
- ومرت بضع سنين، وعدت مرة أخرى للحرب.
- في معارك سيناء وحرب 1956.
- ومرة أخرى كتبت لي أغنية ذاع صيتها.
- واشترت أسطوانة ثم أخرى.
- لأنك وعدتني مرة أخرى: سترين يا صغيرة، أن هذه ستكون الحرب الأخيرة.

- وذهبت مرة أخرى إلى الحرب والدماء.
- وكتبت لي قصيدة جديدة، متفائلة وبريئة،
- طبعت على الفور في كل دواوين الشعر. ووعدتني مرة أخرى وقلت:
- سترين يا صغيرة، أن هذه ستكون الحرب الأخيرة.
- وهكذا وصلنا إلى حرب أكتوبر.
- وسارعت مرة أخرى إلى تأليف المزيد من القصائد.

- ومرة أخرى قلت لي: يا طفلي الصغيرة.
- أنا الآن كبيرة. ولم أعد أصدق.
- إن كان لابد أن نحارب فلنفعل ذلك.
- ولكن على الأقل، يمكنك أن تتوقف عن كتابة القصائد وإطلاق
الوعد.

ضاع نوط الشجاعة، أما الساعة فحرصت على ألا تفارقني حتى يومي هذا، خاصة بعد أن قص عليّ أبي كيفية حصوله عليها.

«إذا أراد أحد توريطك في أمر ما، فلا بد أن يشاركك في إثمه. هذا ما فعلوه معي عندما تم استدعائي ضمن قوات الاحتياط قبل حرب السويس بثلاثة أيام، كنت أنت في ذلك الحين تدرس بباريس. أرسلت إلى وحدة حرس الحدود المتمركزة عند الخط الأخضر الفاصل بيننا وبين الأردن. لظروف الحرب صدرت تعليمات بحظر التجول ليشمل جميع أهالي القرى العربية الموجودة بالمنطقة ومنها قرية كفر قاسم. تم تقديم موعد الحظر فجأة ليسري بداية من الساعة الخامسة مساءً ولم يعلم بهذا التقديم أحد من الأهالي. صدرت الأوامر لقائد الوحدة الرائد شموئيل ملينكي بأن يكون الحظر حازماً بدون تهاون. قسمت وحدتنا لأربع مجموعات لمحاصرة كفر قاسم، كنت أنا في طرف القرية الغربي، استدعي مختار القرية وتم إبلاغه بالموعد الجديد لحظر التجول قبل سريانه بنصف ساعة فقط، فأفاد بأن هناك أربعمئة رجل يعملون خارج القرية ولا يمكن إبلاغهم قبل حلول الموعد، فتعهد له قائدنا بعدم التعرض لهم وتركهم

ليعودوا لمنازلهم في سلام. في تمام الساعة الخامسة بدأت المذبحة، تم إلقاء القبض على كل العائدين، عمال مناجم، مزارعين، رعاة أغنام، حتى الشاحنة المحملة بنساء عائدات من جمع ثمار الزيتون تم إيقافها وأنزلن منها وهن يتغنين، وتم صف الجميع في صف واحد. حتى ذلك الحين كنت أظن أن الأمر لن يتعدى الاعتقال المؤقت، ولكنني فزعت عندما سمعت العريف شلوم عوفر يصبح قائلاً: «احصدوهم»، صرخت رافضاً وقفزت واقفاً كحاجز بين جنودنا وصف الأسرى لمنعهم من تنفيذ الأمر، عندئذ استشاط العريف غضباً وأمرني بالابتعاد فرفضت، أمر جنديين بإبعادي بالقوة، قاومت، ولكن عبثاً، ما إن تم إخراجي من مرمى النيران إلا وسمعت صرخات النساء تحتلط بأهات الرجال، التفت فرأيت أربع عشرة جثة تنزف دمًا، والجنود مازالوا يطلقون نيران أسلحتهم. لم أصدق عيني فصحت:

- هذه جريمة، أنتم قتلة، سفاحين.

أجابني العريف شلوم:

- تلك هي الأوامر «اقتلوا كل من توقفوهم، لا نريد اعتقالات، دعنا

من العواطف». هل تريد عصيان الأوامر؟

عندئذ كرهت إسرائيل وكرهت الصهيونية وكرهت نفسي التي قادتني لهذا الاختيار، تساءلت «هل يمكن للإله أن يحل في شعب ظالم؟ فالعدالة والاستقامة والإخلاص لا بد أن يتوفروا في شعب وفي أرض يحل فيها الله. هل يمكن أن يسمى هذا القتل العمد دونما ذنب أو جريمة قتلاً

مقدسًا.

سارع الجنود لجث القتلى ليسلبوهم متتهكين حرمة أجسادهم، حتى أسنانهم الذهبية اقتلعوها. هنا أرادوا توريطي معهم في جريمتهم بإعطائي نصيبًا من الأسلاب فرفضت بشدة. انتحى بي العريف شلوم جانبًا ونصحني بقبولها في مقابل ألا تتم إحالتي للمحاكمة العسكرية بتهمة رفض تنفيذ الأوامر، فصحت غاضبًا: «أي أوامر، هذه أوامر لا تصدر إلا عن وحوش». ظل واقفًا بجواري ممسكًا بذراعي حتى تم تجميع عدد آخر من الضحايا، ظللت أرجوه أن يعيد التفكير، يتأكد من الأوامر، يعتقلهم ولا داعي لقتلهم. ولكنه لم يستمع إليّ وأصدر أوامره بقتلهم بقوله «تكسور اتام». أغمضت عينيّ وحين فتحتهما ظللت أهدق مذهولًا غير مصدق ما يحدث. ولكنني تنبعت حين رأيت أحد الضحايا يفتح عينيه ثم يغلقها بقوة ظنًا منه أنه هكذا يبدو ميتًا. قررت إنقاذه، فأخبرت العريف شلوم أنني تراجع وأريد المشاركة، سر بذلك كثيرًا ودعاني للحاق بزملائي في جمع الغنائم، توجهت على الفور للرجل الذي يتصنع الموت تحسست رقبته فشعرت بعروقها تنبض بقوة، فتح الرجل عينه وسدد لي نظرة جمعت بين اليأس والرجاء، فأشرت له أن يصمت، نظرت للعريف شلوم فرأيتة ينظر تجاهي فمدت يدي داخل سترة الرجل وأخرجت هذه الساعة، فأشار لي العريف شلوم وقال: «هنيئًا لك»، دسستها في جيبي ثم أسرع لشلوم وقلت له: «لا يجب أن نترك الجثث هكذا على قارعة الطريق»، واقترحت عليه تجميعها وتكويمها خلف

الأشجار، فأثنى على اقتراحي، فأمسكت الرجل من تحت إبطيه وسحبته إلى خلف الأشجار وقلت له هامساً: «اهرب عندما تتاح لك الفرصة، وسأعمل على إعادة ساعتك إليك عندما تنهياً لي الظروف». ظلمت أرمق الرجل بطرف عيني، حتى تحين فرصة انشغال الجنود بتوقيف مجموعة أخرى من الضحايا، وتسلق أحد الأشجار واختبأ بين غصونها. عندئذ عاودت العصيان مرة أخرى... أنقذ الرجل، وتراجع شلوم عن تقديمي لمحاكمة عسكرية خوفاً من فضح الجريمة. ولم أستطع إعادة الساعة حتى يومنا هذا، لذا فأنا أعتبرها أمانة».

أنا أيضاً عدت الساعة أمانة، ولكني لا أدري لمن سأؤديها. ولكن ما أدريه عن يقين هو أن إيماني بالصهيونية قد تزعزع وصارت مبادئها مثار شكوك وأفكارها موضع انتقاد. أما الليلة التي قررت فيها التخلي عن اعتناقها والدفاع عنها فكانت قبل وفاة أبي بعدة أشهر. كانت ليلة صدام عنيف بينه وبين زوجتي. كنا حينئذ في فرنسا، فتسالاً تعشق الاحتفال والذكريات، فقررنا الاحتفال بعيد زواجنا التاسع في باريس، مستغلين الأموال التي تتلقاها تسالاً سنوياً من ألمانيا تعويضاً لها عما أصاب أسرتها في معسكرات الاعتقال النازية. وليكن سفرنا بحراً كي نستعيد ذكريات لقائنا الأول الذي تم على متن السفينة التي أقلتنا من ميناء مرسيليا بفرنسا إلى ميناء تل أبيب بإسرائيل. التقينا في ميناء مرسيليا منذ أكثر من خمسين عاماً، نحن، أنا وأبي، قدوماً من مصر عام 1955، على متن سفينة الصليب الأحمر. وتسالاً وأخوها إيجال من باريس بعد أن قضيا فيها عدة

سنوات لعلاج إيجال مما أصاب عقله من عطب جراء إخضاعه لبعض التجارب الطبية خلال فترة اعتقاله بمعسكر ماجدانيك النازي ببولندا، وانتهى به الحال وهو معتل العقل، مقعدًا، حبيسًا لكرسي متحرك.

في غرفة الفندق بباريس، جلسنا، أنا وتسالا، نشاهد التلفزيون. انضم أبي إلينا، بعد أن نام طفلانا، دافيد وداني، اللذان يشاركان أبي الغرفة الأخرى بالفندق. بدأ أبي حديث الذكريات:

أتذكر يا موسى يوم رحلنا عن فرنسا من ميناء مرسيليا، ودعنا أمك وأخاك داوود، وتركناهما ليستقلا الباخرة المبحرة لنيويورك حيث ينتظرهما خالك يوسف، وأنا وأنت أبحرنا بالباخرة للتوجه لتل أبيب.

كانت لحظات الوداع عصبية... لم نرَ أمي بعدها. رحمها الله، لم تتحمل الغربة، ماتت بعد أقل من سنة من وصولها لأمريكا.

لم تطل غيبتني بعيدًا عن فرنسا، عدت بعد ستة أشهر للالتحاق بجامعة السوربون بعد أن تمت الموافقة على المنحة الدراسية التي تقدم بها عم زكي. عندئذ قاطعتني تسالا قائلة:

- تلك المنحة التي أخرت زواجنا عشرة أعوام.
كان لابد من استكمال دراستي بعد الجامعية وحصولي على درجة الدكتوراه في القانون الدولي... ولا تنسي أنتِ أيضًا كنت رافضة للزواج لأنك قررت التفرغ لرعاية أخيك إيجال.
قالت بحسرة:

- لا تنسَ أنا إيجال، يرحمه الرب، كان هو الباقي الوحيد من عائلتي.
وكما تعلم كم كان يحتاج لرعايتي.

- تسالا، أنا لا ألومك وأقدر لك هذا حق التقدير.

حديث الذكريات هذا دفعنا لحالة من انقباض النفس لا تتلاءم
وهدفنا من رحلتنا تلك. فأردت تلطيف الأجواء فقلت لأبي:

- أأتذكرك يا أبي كلمات عم زكي لك وهو يودعنا بميناء مرسيليا «أنا
واثق من قبول المنحة، فالعالم كله متعاطف معنا وضميره يؤرقه بعد ما
ألحقته بنا النازية من أذى، ولا تقلق بشأن المصاريف، سيقوم الولدان
معي، وهذا لن يكلفك كثيراً».

ضحك أبي ملء شذقيه حتى بللت الدموع عينيه، وهو يراني أحاكي
صوت عم زكي العميق وأقلد حركات يديه ورأسه. ساد بيننا جو من
المرح نفس حالة الضيق التي اعتملت في صدورنا. ولكن يبدو أن تسالا
شعرت أن ليلة الذكريات ستسرق منها، فأرادت أن تدير دفعة الحديث
لصالحها مرة أخرى، فقالت منتهزة فرصة ذكر الأذى الذي لحق باليهود
على يد النظام النازي وروت للمرة المائة مأساتها في المعسكر النازي
الأشهر «أوشفيتز»:

- أنتما كنتما في مصر تنعمان بالأمن، ونحن في بولندا نرتعد خوفاً إذا ما
طرق أحد باب بيتنا.

نظر كلانا، أنا وأبي، للآخر. فأشار لي أبي أن أدعها تكمل. فأكملت،
وأنا أراجع معها الكلمات التي حفظتها عن ظهر قلب:

- عندما سألت أمي عن مصير أسرتنا، قالت: «بعد أن احتل الألمان بولندا، كنت لم تتجاوزني عامك الثالث بعد، وأخوك إيجال كان في السابعة، مكثنا في بيتنا عدة أيام نترقب، والخوف والهلع يملكانا مع كل صوت نسمعه يقترب من بيتنا، حتى قرر أبوك الفرار بنا إلى لتوانيا، ولكنها سقطت أيضًا في أيديهم، فكان نصيب أبيك الإعدام رميًا بالرصاص دونما ذنب جناه. أما أخوك فرّحل لمسكر ماجدانيك، وأنا وأنت انتقلنا إلى هنا، إلى أوشفتز».

عند هذا الحد، دائمًا، تتوقف تسالا عن الحكي لبرهة تستجمع خلالها كل مخزون مشاعرها الجريحة لتقول بأسى:

- أوشفتز، وما أدراك ما أوشفتز.

وعندما لا تجد رد فعل يتناسب مع حجم معاناتها، تصرخ قائلة:

- لن يستطيع أحد مهما شطح به خياله أن يتخيل ما كان يجري في أوشفتز.

تبدأ بعدها في سرد قصتها مع أوشفتز من يوم وصلوهم للمعسكر ليوم تحريرهم على يد القوات السوفيتية. فتذكر كيف استقبلوهم في هذا المعتقل الرهيب بأمرهن بخلع ملابسهن كاملة، ليقفن في صف واحد طويل وهن عرايا، ويتم فحصهن بالنظر أولاً، ومن يشك في حملها تؤخذ خارج الصف وتختفي. بعدها يتم حلق شعر رؤوسهن بالموسى حتى صرن جميعاً صلعاء كالقروود. ثم بنفس الموسى يتم حلق شعر العانة. ليخضعوهن بعد ذلك لتجربة مذلة، وهي أن يبحثوا

تحت صدور النساء وداخل أماكنهم الحساسة عن أي شيء ثمين يكن قد أخفيته، حتى تسالا، وهي الطفلة التي لم تتجاوز السنوات الخمس حينها لم تسلم من هذا الإجراء المهين والذي ترك داخل نفسها شرخاً يعاني منه كلانا حتى اليوم. ولا تنسى تسالا وصف معاناتهن في حياتهن اليومية، طعام شحيح، أوبئة منتشرة تفتك بهن، عمل مضمّن بالسخرة، ظروف معيشية تعافها الحيوانات. خافت أمها عليها لقلّة الطعام فكانت تقطع جزءاً من نصيبها وتقدمه لتسالا حتى ساءت حالة أمها الصحية، ومع ذلك لم يرحمها بل أجبروها على العمل في فرن لصنع الخبز، ولكن للأسف ضبطت ذات مرة وهي تخفي قطعة من الخبز بين طيات ملابسها اختلستها كي تطعمها لتسالا فكان عقابها أن نقلت للعمل في مصنع لإنتاج الذخيرة، حيث ساعات العمل أطول وفي بيئة أشد قسوة بكثير من عملها بالفرن. ثم حدثت الفاجعة الكبرى، استطاعت ثلاث من النساء الهروب من المعسكر فتمت معاينة كل المعتقلات. كانوا يجمعونهن في الخلاء ويأمرنهن بخلع ملابسهن ويتركونهن بالساعات عاريات تماماً يرتجفن من شدة البرودة تحت الثلج والمطر المنهمرين، ثم يختارون ثلاثاً أو أربعاً منهن ويتناوبون الاعتداء عليهن أمام الجميع، كانت والدّة تسالا تحاول قدر إمكانها إخفاء هذا المشهد البشع عن نظر ابنتها... أظن أن ما رأيته تسالا بعد ذلك كان سبباً مباشراً في محاولاتها المستمرة التي كانت تبذلها لتعطيل زواجنا، إذ جاء اليوم الذي حان فيه الدور على أمها وتم اغتصابها أمام عينيها. تصف المسكينة كيف أن أمها انكسرت إرادتها ولم

يعد لها ميل للحياة وظلت لأيام تتحاشى النظر لعينيها. بعد عدة أشهر لاحظت تسالا أن أمها قطعت من ملابسهم البالية شرائح عريضة كانت تلفها حول وسطها وتربطها ضاغطة بها بقوة على بطنها، وأخيراً لم تفلح محاولاتها في إخفاء حملها الذي كان سبباً في خروجها من الصف الذي يعرضون فيه عرايا كل شهر. اختفت أمها بعد ذلك، وتجزم تسالا أنهم تخلصوا منها في غرف الغاز. ودائماً ما تحتتم حديثها وهي تبكي قائلة:

- رأيت بعينيّ أكوام الجثث وهي تحمّل فوق عربات الشحن لنقلها لتحرق بالأفران.

في هذه الليلة - ليلة احتفالنا بعيد زواجنا التاسع - حدث أمر خارج المألوف، إذ صاح أبي مقاطعاً لتسالا وهو يشير للتلفاز:

- انظروا، انظروا.

كان التلفزيون يعرض صوراً لمئات الجثث، الفرادى أو المكومة في مجموعات، ملقاة في الشوارع. عرفنا من الخبر أنها تمثل قتلى المذبحة التي ارتكبتها قوات حزب الكتائب اللبناني بحق الفلسطينيين من سكان مخيم صابرا وشاتيلا بלבnan، بتشجيع وحراسة قوات من الجيش الإسرائيلي بقيادة الجنرال شارون.

بعد الانتهاء من عرض المشاهد المفزعة مباشرة، تم بث برنامج اسمه «حتى لا ينسى أحد» عن المذابح النازية بحق اليهود والسلاف والغجر. خيم صمت ثقيل، قطعه أبي موجهها كلامه لي بقوله:

- موسى، ما رأيناه أمر بشع. لذا أنصحك أن تكون متوازناً قدر

استطاعتك. لا تدع الإيمان بالعقائد السياسية يغلب على التفكير المنطقي، أو على رؤيتك للحق والحقيقة. موسى.. العديد من ساستنا غير راضين عن الكثير من ممارساتنا التي تحركها المعتقدات الصهيونية، ولكنهم عاجزون عن إدانتها أو التراجع عنها، أتدري لماذا؟ لأنهم يفتقدون للشجاعة الكافية لمواجهة أنفسهم، لأنها ستكشف لهم خطأ الكثير من مواقفهم وأفعالهم التي تبناها على مدار حياتهم، كما أنه أيضاً سيكون عليهم مواجهة صقور الصهيونية، وهذا ما لا طاقة لهم عليه.

عندئذ التفتت تسالا إليه وقالت بغضب:

- ما لها الصهيونية... الصهيونية هي التي أنقذتنا من الشتات، هي التي أنهت معاناتنا التاريخية.

- أنا لا أقلل من معاناتك أنت وملايين اليهود، وقد كنت أعتقد مثلك، ولكن لما رأيت أن إنهاء معاناتنا وشتاتنا سيكون على حساب شتات ومعاناة آخرين تغيرت نظرتي فهذا ظلم.

- الظلم هو أن نعود إلى ما كنا فيه.

- بل الظلم هو ما يحدث للفلسطينيين الآن.

- لو جربت يوماً في أوشفيتز ما قلت هذا الكلام.

- آه، أوشفيتز، أوشفيتز الذي أبيدت فيه ستة ملايين من اليهود، يقولون إن مأساته لها الفضل في إعادة تحديد الهوية اليهودية وإنه مهد الوعي اليهودي الجديد. أيهما كان أفضل أن ينجو الستة ملايين يهودي وتذهب الصهيونية للجحيم. أم يهلكوا لتبعث الهوية اليهودية بصهيونيتها

البغيضة؟... هل يمكن أن تعللي لم لم تكوني، أنت أو أي من أهلك، ضمن اليهود الذي تفاوض المبعوث الصهيوني «كاستنر» لتحريرهم من أسر النازية.

..... -

أقول أنا لكي... ببساطة لأنك، أنت أو أهلك، لم تكونوا مفيدين لدولة إسرائيل كهؤلاء الذين تم تحريرهم، وإنما تم خداعكم كي تساقوا لأوشفيتز. لا تصدقي كل تلك البكائيات على أوشفيتز، ولا ذلك اللاهوت المسمى باسمها. كل هذا مجرد تأنيب للضمير، لأنهم في الحقيقة تركوكم للموت في معسكرات الإبادة، فماذا يفعلون بأطفال أو مرضى أو عجزة في دولة وليدة لا تستطيع تحمل أعباءهم، فليهلكوا في أوشفيتز أفضل، لقد عدوكم مادة بشرية غير نافعة... رأيت هذه هي الصهيونية التي تبكي عليها.

صرخت تسالا في وجه أبي وصاحت:

- أنت مراوغ. يبدو أنك صرت شيخاً خرفاً.

على أثر ذلك، غادر أبي الغرفة غاضباً وصفق الباب من خلفه بقوة. حاولت الخروج خلفه لتهدئته، فردني بحسم. عدت لتسالا متحفزاً للومها، فوجدتها تهذي بكلمات مبهمه، ثم توجهت لركن الغرفة بخطوات ثابتة وهي مغيبة تماماً عما حولها كأنها واقعة تحت تأثير تنويم مغناطيسي وقامت بخلع ملابسها حتى صارت عارية تماماً وهي تردد «حاضر سيدي، حاضر سيدي» ثم صرخت «أمي، أمي» وانفجرت في

البكاء وانزوت بالركن ووجهها للحائط. اقتربت منها لأربت على كتفها، فانتفضت مذعورة عندما لمستها يدي، والتفتت إليَّ وعيناها مملوءتان بنظرات الاستعطاف الممزوجة بالهلع، حدثت في لبرهة ثم لانت ملاحظها، فاحتضنتها وأخذت أمسح على رأسها لتهدئة روعها وأنا أردد «اطمئني يا حبيبي، أنت هنا في أمان»، انهارت بين يديّ باكية وهي تردد: «لماذا تخلى عنا الرب، لماذا تخلى عنا الرب» ثم رفعت رأسها لأعلى وقالت «أين أنت، أأنت موجود حقاً؟ وإن كنت موجوداً فلم تخليت عنا». حملتها إلى السرير وجسدها كله ينتفض بين ذراعيّ. وسدتها على الفراش فانكمشت حول نفسها مولية ظهرها لي، استمرت لأكثر من ساعة تبكي بكاءً عجيباً أشبه ببكاء طفل لا يستطيع التعبير عما يعتمل بداخله، وتتفوه بكلمات متداخلة تلومني فيها على تقصيري في حقها وعدم دفاعي عنها أمام جبروت أبي. لم أرها في حالة كذلك من قبل، فتسالا قوية عنيدة تعترز بشخصها وتعتد بآرائها، حالة ضعفها تلك أثارت شفقتي، وأذابت باستسلامها تصميمي على توجيه اللوم لها. جلست بجوارها لا أدري ماذا أفعل، تذكرت أمي، فمددت يدي أربت على ظهرها وأنا أردد «نام الننا نام وأنا أدبح لك جوزين حمام»، العجيب أن تسالا بدت مستسلمة تماماً لإيقاع الأغنية رغم عدم معرفتها للغة العربية، إنه الأثر العجيب لتلك الأغنية وما تجلبه من هدوء وشعور بالأمان. ظننتها نامت فهممت بالقيام لأنفقد أبي وأحاول استرضاءه شارحاً له معاناة تسالا النفسية. ولكنها أمسكت بيدي لتمنعني من النهوض والتفتت إليَّ وجذبتني مقربة شفطانا وغبنا في

قبلة بدأت بمشاعر حب دافئة وإحساس بالتعاطف، وتصاعدت سريعاً لتتحول لرغبة محومة واشتهاء مستعر. انصهر جسدنا وذاب تعقلنا، فكانت أشد لحظات عشقنا ضراوة وأكثرها حناناً. قضينا وطرنا ونشوة الاستمتاع تحلق فوق رأسينا. احتضنتها فوضعت رأسها فوق صدري. أرادت تسالا ألا تضع الليلة دون تذكرك لقائنا الأول فوق سطح السفينة التي أقلتنا لإسرائيل. فقالت:

- أحبيت حنانك الدافق منذ لقائنا الأول.

- أتذكرين لقائنا الأول.

- بالطبع. وحينها لم أصدق أن يهوديا شرقيا يمكن أن يكون بمثل هذه الرقة ويتمتع بتلك المشاعر المرفهة، كل ظني حينها أنهم أجلاف يتسمون بالغلظة والفظاظة.

ثم رفعت رأسها لأعلى شاحخة بأنفها وقالت بعزة:

- بالطبع لم تكن تطمح أن تتزوج أشكينازية مثلي.

داعبتها بضربة خفيفة على كتفها واستغرقتنا في ذكريات لقائنا الأول.

كنت جالسا مع مجموعة من الأصدقاء المصريين المنتمين للجماعة ها شومر ها تزائير نتحدث بالفرنسية، حرجاً من التحدث بالعربية، ممتدحين بن جوريون مثنين على دوره التاريخي في بناء دولتنا، فإذا بتسالا تتدخل في الحديث مندفعة بغضب وهي تقول:

بن جوريون هذا أذلنا وأضاع كرامتنا بتفاوضه مع ألمانيا كي تدفع تعويضا ماليا عما أصابنا، إنه يبيع دمائنا. إنه يريد بناء إسرائيل على جثث

ضحايانا. شرف اليهود جميعاً مرغ في الوحل. إن قلبي ينفطر حزناً وأكاد أموت كمداً كلما تذكرت هذا العار الذي جلبه لنا.

ثم دفعت بكرسي إيجال المتحرك أمامها وانصرفت غاضبة. أسرعت خلفها، حاولت تهدئتها بقولي:

- بن جورويون طلب التعويض مقابل ممتلكات اليهود التي نهبت ولم يطلبها كتعويض عن الضحايا.

أجابتني باليدشية، فلما أبديت لها عدم معرفتي بهذه اللغة، غيرتها للفرنسية وقالت:

- كيف نتفاوض مع أولئك القتلة الذين أذلونا واحتقرونا وتلطخت أيديهم بدمائنا، لقد تحررنا، وها هو بن جورويون يأتي بكل بساطة ليعيدنا للعبودية. العالم كله سيحتقرنا. عداؤنا لهم صار أبدياً كعدائنا للفلسطينيين الذي دام ستة آلاف عام.

تكرر لقائنا وتنوع حوارنا، تألفنا سريعاً، سرعان ما تأججت مشاعر شاب وفتاة في السابعة عشرة فاختلسنا أول قبلة ونحن وقوف على سطح السفينة ليلاً متوارين عن الأنظار، دارت الأرض بنا، حتى إن تسالا استندت على ذراعي خشية السقوط. ومن يومها، عددنا أنفسنا من العاشقين.

طالت مدة إبحارنا وتجاوزت الأسبوع، إذ رست السفينة في عده موانئ قبل الاتجاه لإسرائيل. كنا نتطلع للوصول لتل أبيب بفارغ الصبر، فقد ساءت حالة إيجال وصارت حالات الهياج التي تتابعه من وقت لآخر

خارج السيطرة ولم تعد تجدي معها الأدوية المهدئة التي تعطيها له تسالا. ولكننا أصبنا بخيبة أمل، إذ صدرت الأوامر بمنع نزول اليهود ذوي الأصول الشرق أوروبية أو العربية في تل أبيب وأن علينا الإبحار، بعد نقلنا إلى مركب صغير، لثلاث ساعات أخرى للوصول لمرسى بمستوطنة كفار فيتكين حيث تستقبل عادة سفن البضائع.

في كفار فيتكين، شاركتُ تسالا لعن بن جوريون. ففي مركز الهجرة المسمى بوابات الهجرة، وقفنا في طابور طويل لعشر ساعات أو يزيد، موظفين يحتقروننا، يتعمدون البطء، يضحكون سويًا ويعبسون في وجوهنا، يتركون مكاتبتهم بالساعات ونحن في انتظارهم لينهوا إجراءات قبول أوراقنا، يهزءون من وجود إيجال معنا بقولهم «ينقصنا معاقون أيضًا، لقد صرنا ملجأ للعجزة. أقبح الأشياء وأكثرها حقارة ليس المنفى، ولكن اليهود الذين جاءوا من المنفى». بعد ذلك فصلوا النساء عن الرجال واقتادونا إلى غرف خاصة وطالبونا بخلع ملابسنا فصرنا عرايا وقاموا برشنا بمبيد «الدي دي تي» كي يقضوا على الحشرات التي ترتع في أجسامنا - على حد قولهم - رُحّلنا بعد ذلك إلى أحد معسكرات الاستيعاب، ونحن في الطريق إليها مررنا أمام منطقة أعلى جبل الكرمل تناثرت فوقها فيلات فاخرة، ظننا لوهلة، بسداجة مفرطة، أن هذه هي معسكرات الاستيعاب، فتعالت صيحات الفرح، ولكن السيارة انحرفت وأكملت طريقها إلى منطقة أخرى تنطق بالبؤس والشقاء، إنها المعتقلات المسماة بمعسكرات الاستيعاب، لننام في خيام قدرة لا تقينا برد الشتاء،

حيث الغذاء حساء خضروات مليء بالديدان تعافه النفس، والعشاء خمس حبات زيتون وقطعة خبز. كم تشاجرنا سويًا لأجل الحصول على ضروريات المعيشة، طعام، فراش، بطاطين، ماء. هلك منا الكثير في معسكرات الاستيعاب تلك. ثم نقلنا إلى مخيمات العبور قبل استقرارنا أخيرًا في كيبوتز عين شومر. في مخيم العبور هذا كان الماء شحيحًا، ولذا فلكل من هم أقل من ثمانية عشر عامًا كان الاستحمام جماعيًا، ترددت كثيرًا قبل أول محاولة للاستحمام، ولكن تسالا شجعتني وسحبني من يدي والخبجل يقتلني، ظلت أتطلع فيمن حولي من فتيات وأشاهدن وهن يدعكن أجسادهن، فلم أستطع السيطرة على ذكري الذي انتصب معلنًا عن شهوة تأججت رغمًا عني، فلم أسلم من ضحكات الفتيات وسخرية الفتيان.

عند هذا الحد من حديث الذكريات، قاطعتني تسالا ضاحكة وهي تمد يدها وتتحسس جسدي قائلة:

- كانت تلك أول مرة نشاهد بعض عرايا.

- نعم.

- فلنرى إذا كان مازال قادرًا على الانتصاب.

ضممتها إلى صدري واندجنا في نوبة عشق أخرى أفرغنا خلالها ما بقي عالقًا من بقايا شهوتنا. استرخت أجسادنا وكاد النعاس أن يغلبني، ولكن كان لابد من استرضاء أبي قبل أن تنقضي الليلة. تفقدت أبي في غرفته فوجدته يحزم حقائبه تمهيدًا لمغادرة باريس.

حاولت استرضاءه، قبلت يديه وقدميه، بررت لتسالا تعديها غير اللائق بحالتها النفسية المضطربة. عندما شعرت بأنه بدأ يلين، فتحت باب الغرفة لتسالا التي كانت تقف في الخارج بناء على اتفاقنا. فدخلت باكية طالبة الصفح من أبي مبدية استعدادها لتنال ما يراه مناسباً من عقاب. احتضننا أبي وضمنا إلى صدره وقبل رأسينا.

مات أبي بعد هذه الرحلة بشهرين. أما تسالا، فتغيرت تمامًا، لحظة الانفجار، التي عبرت فيها عن مشاعرها الصادقة المختنقة بفعل ما واجهته في حياتها، حررتها، فاستطاعت أن تعبر عن ضعفها الأنثوي المكبوت داخل صدرها فصارت امرأة تنشد الحماية مستعينة بمن حولها متخيلة عن كونها امرأة قوية قادرة على المواجهة بمفردها.. ترقد المسكينة الآن في وحدة العناية المركزة بمستشفى أسوتا، إثر إصابتها بنوبة أزمة قلبية بعد سماعها لبرنامجي الذي بثته القناة الثانية أول أمس. لا أدري ما أصاب المسكينة أكان نتيجة خوفها عليّ لما قد يلحقني من أذى جراء ما كشفته من معلومات، أم غضباً مني لمهاجمتي إسرائيل والصهيونية؟

جذبت المنضدة الصغيرة المعدة لتناول الطعام ووضعت فوقها الأوراق التي أحضرتها ليليت وشرعت في إعداد مسودة لتقرير عن تجاوزات الجيش الإسرائيلي أثناء الهجوم على قطاع غزة، والذي على الرغم مما حدث صممت على إعدادهِ وإرساله للحكومة الإسرائيلية.

«من دير ياسين لكفر قاسم. من جنين لغزة. الطريق واحد، طريق نفقد فيه مع كل خطوة جزءاً من إنسانيتنا، ويُظلم فيه مع كل منحني جانب من

ضميرنا. وعندما تلوح لنا نهاية الطريق، نهول مندفعين باتجاهها ظناً بأننا بلغنا مرادنا، إننا انتصرنا، فنذكر أنه سراب، وأن ما نقبض عليه حقيقة في أيدينا هو المزيد من فقدان لإنسانيتنا وإظلام جانب آخر من ضمائرنا، وأن الطريق الذي سلكناه هو طريق خصب تتوالد فيه الحروب ويتكاثر به العنف ولكنه عقيم عن إحراز النصر.

ما جدوى محاولة كسب قضية خاسرة. كفانا أكاذيب صادقة، نتهمهم بالهجوم علينا، وهذا صدق لا شك فيه، ولكنه أيضاً محض كذب لا مراء فيه، لأن هجومهم هو عين الحق، إذ كيف نلوم إنساناً يدافع عن وجوده، عن بقائه، عن أرضه. مهما حاولنا تغييب الضحية وتشويه صورته فإننا نخدع أنفسنا، ألم تدركوا بعد أيها السادة أن لهذه الأرض شعباً، شعباً مستعداً للموت في سبيل الدفاع عنها. كيف نريد أن نمحو ماضياً، تراثاً، ذاكرة، تاريخاً؟! للأسف إننا مع كل اعتداء نخسر ويربحون، نخسر أنفسنا ويربحون احترامهم لذاتهم.

أيها السادة، عندما تنظرون لأنفسكم في المرآة فماذا ترون؟ ترون الخوف، الخوف من مستقبل مظلم، إننا نعيش صهيونية الخوف.

المقدمة السابقة جزء لا يتجزأ من هذا التقرير. وإليك تفاصيل الاعتداء استناداً لوثائق الأرشيف العسكري وشهادة الشهود وتقارير حيه من أرض الواقع...

موسى «موشيه»

باريس

موسى... موسى.

تلفت حولي باحثاً عن مصدر الصوت، ومتعجباً ممن يناديني بموسى،
وأين؟ هنا في باريس!

كدت أن أنسى هذا الاسم. فمئذ أن رحلت عن مصر في منتصف
الخمسينيات، والكل يدعوني موشيه، اثنان فقط مازالا مصريين على
موسى، ويذكرونني به في المرات القليلة التي نتواصل فيها هاتفياً، أخي
داوود في أمريكا، وأختي راحيل في مصر.
موسى، هنا، أنا هنا.

وبالعربية أيضاً! الصوت ليس غريباً عن أذني. ولكن ما من أحد
يعرف بأنني قادم لباريس، ومؤكد لا يوجد من ينتظرني. حددت الجهة
التي أتى منها الصوت وظللت أتفرس في وجوه المستقبلين المتجمعين في
صالة الوصول بمطار شارل ديغول.

امتدت يدي لأعلى ملوحة لي، آه، النظر لا يسعفني، عدلت وضع

نظارتى الطبية أمام عيني، ودققت في اليد الملوحة عن بعد... يا الله إنه عزيز، نعم، نعم، عزيز. صحت من أعماقي محملاً صوتي بنبرات التعجب والاشتياق:

- عزيز! عزيزييز.

رؤية صديق قديم، لمطارد مثلي، كتائه في صحراء جف حلقه من العطش ورأى ماء عن بعد. اندفعت باتجاهه كي أتحقق مما أراه، ألقيت بنفسي بين أحضانه وظللت أتخسس ظهره براحة يديّ لأؤكد بأنه ليس سراباً. قال بصوته العميق الدافئ وهو يضع يده على كتفيّ ويتأمل وجهي:

- موسى، لا أصدق، ما الذي أتى بك لباريس؟

- هذا أمر يطول شرحه.

- إذن فأنت ضيفي الليلة.

- أأأ...

- لا مفر، وخصوصاً إذا علمت مناسبة الليلة ومن سيكون حاضراً.

- من؟

- أخوك دافيد وابنه أبراهام.

- حقاً.

- وهما سبب انتظاري هنا الآن فطائرتهم القادمة من نيويورك أوشكت

على الهبوط.

- يا الله، لو كنا ضربنا موعداً ما كان بهذه الدقة. ستكون مفاجأة لهم.

- كما يقول المثل العربي «رب صدقة خير من ألف ميعاد».
- لم تنسَ يوماً يا عزيز أنك مصري.
- أنسيت أنت.
- مطلقاً. ولكن قل لي، إذا كان هؤلاء هم الحضور فما هي المناسبة.
- ضحك من أعماق قلبه وهو يقول:
- سأقول لك ولكن لا تسخر مني.
- أسخر منك! لم؟
- لقد قلت تَوَّأ أنك لم تنسَ أنك مصري.
- نعم.
- اليوم سيتم حفلي إلياهو واحداً وثلاثين يوماً وسأقوم أنا بدور كوهين الذي يأتي ليختطفه.
- لا أصدق، أمازلت تمارس هذا الطقس البديع.
- سترى الليلة.
- كثيراً ما اشتقت لحياتنا في مصر، وكم غلبني الحنين لحارة اليهود والظاهر، عاداتنا المصرية الحميمة، عم عزرا وعم أبو مصطفى و.....
- أختي راحيل، يااااه.
- هز عزيز رأسه في حسرة ولم يعقب.

~~~~~

حقيقة، نعم، كل ما يحدث حولي حقيقة، فها أنا في سيارة عزيز التي لو لم تكن ذات ثلاثة صفوف من المقاعد ما اتسعت لنا. أنا بجواره، داود

وأبراهام في الصف الأوسط، صديق داوود وولده في الصف الأخير، حيث جلسا صامتين، متجهمي الوجهين، منذ أن عرفا أنني إسرائيلي، ليس إسرائيليًا وحسب، وإنما اسمي يُعرف منه أنني القاضي المسئول عن التحقيق في تجاوزات جيش الدفاع أثناء الهجوم على قطاع غزة في العملية الحربية المعروفة باسم الرصاص المسكوب. فظل الصمت نحيبًا، والأجواء يشوبها توتر ثقيل، وبرودة لا تتناسب وحرارة لحظات اللقاء الأول. حتى اخترق عزيز حاجز الصمت بسؤالني عن سبب قدومي لباريس. لم أشأ أن أفصح عن أنني هارب ومطارد، واكتفيت بتعليل قدومي لباريس لحضور مؤتمر «سبل فض النزاعات بالطرق السلمية»، فصمت عزيز مكتئبًا بهذا الرد المقتضب.

توجهت السيارة مخترقة شوارع باريس إلى قلبها، حيث يقع فندق «دي ليون» الذي اختاره داوود ليكون نزلًا لهم متعللاً بأن ذكرياته السعيدة، منذ أن قضى شهر العسل في إحدى غرفه، تدفعه للإقامة به كلما جاء إلى باريس. لا يعرف داوود أنني على علم بالأزمة المالية التي أحكمت خناقها من حوله، وأنها هي التي تدفعه للمبيت في هذا الفندق المتواضع الذي ربما تكون هذه أول مرة تطأه قدماه.

بعد مرورنا من أمام برج إيفل، ونهر السين إلى يسارنا، وقبل أن ننحرف لليمين، بعد متحف اللوفر، لتتوجه لفندق «دي ليون»، اقترحت على داوود أن يرافقني للمبيت بفندق الماريوت بشارع الشانزلزيه، الذي اختارته لي إدارة المؤتمر للإقامة به، وذكرت، كاذبًا، أن الغرفة مزدوجة

مدفوعة الأجر للإقامة الكاملة، حتى لا أتركه يبيت في هذا الفندق المتواضع، على أن أقوم بدفع الفارق خلسة دون أن يعرف، متحملاً أجر ليلة إضافية، فأعمال المؤتمر لن تبدأ إلا بعد غد، ولولا الظروف الطارئة لم كنت اليوم هنا في باريس. رحب داوود بشدة ضارباً عرض الحائط بذكريات شهر العسل، ومعتذراً من رففته بقوله «ساحوني، فلأكثر من عشر سنين لم أر أخي، الكلام كثير بيننا، بإمكانكم استبدال الحجز لغرفة أستوديو تسع ثلاثة أفراد بدلاً من أربعة».

أمام باب فندق «دي ليون» غادر الثلاثة السيارة، أبراهام وأبو إياد وولده. ولكن قبل أن يغلق أبو إياد باب السيارة من خلفه بعنف، علق حانقاً بقوله: «براحتك يا دافيد» ثم أكمل متهمكاً «عن شرط أن يذكر لنا أخوك كيفية حل النزاعات بالطرق السلمية، علنا نتعلم منه». تجاوزت عن السخرية ولم أشأ إفساد هذه اللحظات بجidal عقيم. ودعهم عزيز قائلاً: «لا تنسوا أنتم جميعاً ضيوفاً في هذا المساء، سأمر لاصطحابكم في تمام السادسة مساءً». هزوا رؤوسهم بالموافقة وحملوا حقائبهم وانصرفوا.

أثناء توجهنا لشارع الشانزلزيه، ضرب عزيز فخذي براحة يده وقال:

- أظن الآن تستطيع أن تذكر الحقيقة وراء قدومك لباريس.

- نعم، ومن حقكما أن تعرفا أنني مطارد، ومعرض للقتل في أي وقت.

أجاب الاثنان في صوت واحد: «ماذا تقول؟ القتل!». اقترب داوود من المسافة الخالية بين المقعدين الأماميين وأسند ذراعه فوقهما مائلاً بجذعه للأمام وقال بلهفة:

- مطارداً، لماذا ومن؟

- لا أدري متى كانت البداية. ولكنني سأبدأ بأمر معلوم للجميع. أكيد تعرفان بأمر الجريمة التي حدثت لابني دافيد وزوجته وابنته هنا في باريس.

هزارأسيهما بأسى، فأكملت:

- كما تعرفان أن القاتل مجهول حتى الآن، وأنه بعد أن ذبحهم في شقتهم لطخ جدرانها بدمائهم برسومات على هيئة الصليب المعقوف. قاطعني عزيز قائلاً:

- لقد ظلت الصحف هنا تطنطن حول هذا الموضوع لمدة شهر وأكثر محذرة من تصاعد اليمين المتطرف في فرنسا، بل في كل بلدان أوروبا، وأنه يستهدف كل الأعراق والإثنيات والثقافات والقوميات التي تعكر صفو الحياة في أوروبا، وبخاصة اليهود والمسلمين، وكأن محاكم التفتيش عادت مرة أخرى. في الحقيقة أصبنا بالهلع في حينها.

- هذا هو الهدف بالضبط، أن تصابوا بالهلع وترحلوا عن أوروبا ولكن إلى أين؟

نظراً إلىّ ينتظران التكملة فقلت:

- لإسرائيل بالطبع، لا تنسيا أن أوروبا فيها ما لا يقل عن مليون يهودي أكثر من نصفهم في فرنسا وحدها، ولا فائدة منهم لإسرائيل ولا يشكلون جماعة ضغط على الحكومة كما يفعل يهود أمريكا. - أعني أن من قتل دافيد وزوجته وابنته كان من...

لا ليسوا من إسرائيل، ويا ليتهم كانوا منها، كانت المصيبة أهون حـ  
 منها. حقاً إن من قام بتلطيخ جدران الشقة برسومات الصليب المعقوف  
 هم من رجال الموساد، زملاء ابني دافيد، ولكنهم لم يقتلوهم.  
 يبدو أن وقع المفاجأة على داوود وعزيز قد ألجم ألسنتهما فلم يعلقا  
 واكتفيا بفغر فميها في ذهول منتظرين أن أكمل البقية، مما شتت انتباه  
 عزيز، فنهته قائلاً:

– عزيز خذ حذرَكَ سننعطف يساراً الشارع القادم.

– نعم، نعم.

قال داوود:

– أكان دافيد يعمل في الموساد.

– هذا ما كنت أجهله حتى أسبوع واحد فقط مضى، كل ما كنت  
 أعرفه أن دافيد يعمل ملحقاً عسكرياً في سفارتنا هنا في باريس.  
 عندئذ صحت قائلاً:

– عزيز توقف، ها هو فندق الماريوت.

– يبدو أنني سرحت.

عندما هممنا أنا وداوود بمغادرة السيارة، قال عزيز:

– إيه، انتظرا، أنظنان أنني سأترككما دون أن أعرف بقية الحكاية.

أعطى مفاتيح السيارة للعامل ليقوم بصفها في المرآب واصطحبنا  
 لداخل الفندق.

جلس داوود وعزيز في البهو المتواضع لاستقبال الفندق، الذي لا

يتناسب وشهرته ولا لسعر الإقامة به. وتوجهت أنا لمكتب الاستقبال لإنهاء إجراءات حجزنا. أثناء اقترابي من المكتب رأيته من ظهرها تتحدث لموظف الاستقبال، إنها هي، نعم هي، ليليت، صديقة ابني دافيد ومضيفة شركة العال. التفتت فرأيتني في مواجهتها، فأبدت دهشتها وابتسمت برقة قائلة:

- سيد موشيه، هذه مصادفة رائعة، ها نحن نتقابل ثانية. أنت نزيل هنا؟

- نعم، وأنت.

- نعم.

- لم أكن أعرف أن شركة العال تدلل موظفيها لهذا الحد. ولكن هذا من حسن حظي.

حيثني بابتسامة رائعة أخرى، وأمسكت بمقبض حقيبتها ذات العجلات واستأذنت منصرفة مولية ظهرها لي متوجهة للمصعد. ظللت أتبعها بنظري مستمتعاً بدلال خطواتها التي ترسم على الأرض خطأً أنثوياً متعرجاً، ولكني لم أنس أن أذكر نفسي بأنني في أوان المداعبات.

عدت لداوود وعزيز حيث يجلسان في بهو الاستقبال فقالا في نفس واحد، حتى قبل أن أجلس:

- من هذه الفتاة الرائعة.

نظرت إليهما مستنكرًا وقلت:

- ما لكما، أنتم شيخان فانيان.

- ألن يتوقف ذيلك عن اللعب.
- مثلكما تمامًا، ذيل يلعب ولكن هيهات أن أطمح في أكثر من هذا.
- ضحكا من قلوبهما، فأكملت:
- إنها مضييفة شركة العال على الرحلة التي أتيت بها إلى هنا.
- قال عزيز بخبث:
- وأرى أنها ستكون أيضًا مضيفتك في الفندق.
- أضاف داوود متعجبًا:
- مضييفة وتقيم في ماريوت الشانزلزيه؟!
- شركة العال تدلل موظفيها.
- إلى هذا الحد!... دعنا من هذا وقل لنا، كيف عرفت أن دافيد يعمل في الموساد.

كانت البداية عندما تم انتدابي كرئيس لجنة التحقيق في التجاوزات التي تمت أثناء تنفيذ عملية الرصاص المسكوب، في البداية كان العمل روتينيًا ومعروفة نتيجته مسبقًا، لكن ما استفزني بشدة وجعلني أحمِد عن المسار المرسوم لهذا التحقيق، جملة قالها لي الرائد جاك أثناء استماعي لأقواله، وأعادت لي ذكريات تعد أليمة، ليس لي، ولكن لأبي، أما بالنسبة لي فهي تعني أكثر من مجرد ذكريات، وإنما تعني قيمة الحياة ذاتها.

أخرجت من جيبي الساعة ذات الزخارف والنقوش المكتوب عليها بالعربية عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، أعطيتها لهما، قلباها، قرآ المكتوب عليها، أبديا دهشتها، فقصصت عليها قصتها، مع أبي ومعى،

من كفر قاسم إلى حرب كيبور، وكيف كان لها الفضل في إنقاذ حياتي من بين يدي ضابط الصاعقة المصري، ثم اتبعت ذلك بقولي:

كانت العبارة التي استفزتني في أقوال الرائد جاك هي ذاتها التي قالها الرائد ملينكي لجنوده المتمركزين عند كفر قاسم، وكان أبي منهم، منذ أكثر من خمسين عامًا. فقد قال جاك إن الأوامر التي جاءته من قاداته كانت تحت على القضاء على أكبر عدد من المدنيين في قطاع غزه وترويعهم «من الأفضل أن نسقط أكبر عدد من القتلى، وبطريقة تبث الرعب في قلوبهم، لا نريد عواطف، اقصفوا واقتلوا تلك النفایات». سألت جاك إذا كانت تلك الأوامر شفوية، فنفى قائلاً: إنها رسمية، ولكن النسخة الأصلية لتلك الأوامر تحفظ في سجلات أرشيف المخابرات العسكرية ولا يسمح لكائن من كان بالاطلاع عليها أو على التسجيلات الرسمية للاتصالات المتبادلة بين القيادة المركزية والقادة الميدانيين، وقال بأسى وبضمير يؤرق صاحبه «إن ما حدث في غزة، يا سيدي القاضي، يعد بحق هولوكوست للعرب». عندما استشعر جاك اهتماماً حقيقياً من جانبي، أسر إلي أنه يريد أن يتحدث معي منفرداً، فأخليت غرفة التحقيق وبدأ جاك في إخراج ما يعتل بداخله. أول ما قال لي: «من عدة أعوام مضت، كنت ما أزال ضابطاً برتبة ملازم، صدرت التعليمات إلينا بقمع الانتفاضة في جنين فتم حصارها، داهمنا أحد المنازل وكانت به طفلة فلسطينية عمرها لا يتعدى عامين، أتذكر جيداً شعرها الذهبي وعينيها العسليتين الممتلئتين بالدموع وأنفاسها المتحسرة التي تبذل في سبيل الحفاظ على تردددها

جهدًا مضاعفًا، فكنت أكتم أنفاسي مع كل نفس تحاول أن تستنشقه وكأني أحاول مساعدتها بتوفير الهواء لها وحدها، تأبى ذاكرتي أن تمحو من سجلاتها نظرتها المستنجدة التي تعلقت بقلبي. ظلت أمها تستعطف قائدي، الرائد زئيفي، طالبة النجدة، وتستجديه كي يسمح لها بإحضار الدواء لابنتها المريضة، وهو يرفض بتعنت شديد، ويأمرها بإسكات الطفلة وهو يضع فوهة بندقيته فوق رأسها. وعندما كانت البنت تحتضر، كان أحد جنودنا، العريف يوفال، يقيس حذاء أعجبه يخص أخو الطفلة. ماتت الطفلة، وارتدى يوفال الحذاء وذهبنا».

نظرت لداوود وقلت:

- أتعرف بمَ ذكرني هذا؟.

- بمَ؟

- بفانوس مصطفى حين أبقيته معي فوافقت أمي ولكنها حذرتني من أن أكرر هذا الفعل مع يهودي فهكذا تعد سرقة. حدث شيء مشابه للعريف يوفال عندما عاد لأمه مرتديًا الحذاء الذي سرقه من بيت الطفلة المريضة، إذ وبخته أمه، ليس للسرقة، ولكن لأنه ارتدى حذاء عربيًا على أرض إسرائيل. هذا ما ذكره لي الرائد جاك.

تنهد كل من داوود وعزيز بأسى ولم يعلقا، فأكملت:

- الرائد جاك قص عليَّ كل هذا حتى يقول لي إنه من المناصرين لحركة الضباط الرافضين للخدمة داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة ولكن تنقصه الشجاعة ليجهز بهذا مثل باقي الضباط الذين وصفهم

بقوله: «الشرفاء مستيقظو الضمير» ولكنه على استعداد لفعل أي شيء لدعم حركتهم وفضح الممارسات اللاإنسانية لجيش الدفاع. وقال بأسى «سيدي لقد رأيت أثناء خدمتي أن إسرائيل ليست هي أرض السلام التي يعيش فيها الذئب بجوار الحمل، ولكنها عنصرية بغیضة والجيش هو المؤسسة الداعمة لها»، عندها سألته: «وما الذي تستطيع فعله»، قال: «أستطيع أن أدخلك لأرشيف المخابرات العسكرية لتطلع بنفسك على أصول الأوامر والتسجيلات».

قاطعني عزيز قائلاً بحماس حذر:

- وهل فعلت؟

- طبعاً فتلك فرصة لا تفوت.

ضرب عزيز الهواء بيده وقال:

- مازلت تعشق المغامرة والإثارة، منذ أن كنا نختبئ تحت السلم

لنتناول الأرز باللبن الذي يصنعه عم عزرا. وكذلك تسللنا خلسة، بدون علم آبائنا، إلى حوش هراري باشا...

قاطعته قائلاً بحماس يتناسب وذكريات الصبا والشباب:

- أنسيت أيضاً يوم أن تسللنا للمسجد الكبير بالظاهر، وصلينا مع

المسلمين، وكادوا أن يكتشفوا أمرنا عندما وقف بجواري في الصف عم عوني صاحب كشك الجرائد والمجلات، ولم ينقذنا سوى ضعف بصره فلم يستطع التحقق مني. وهنا في باريس عندما كنا ندرس سوياً في جامعة السوربون وتسللنا إلى دورة المياه الخاصة بالفتيات لرؤية جاكين

التي أدارت عقول كل شباب الجامعة. ومغامرات الانضمام للمنظمات الشيوعية المصرية بفرنسا في محاولة لإيجاد ثغرة ننفذ منها لتعيدنا لمصر. وكذلك...

- وكذلك أنت نسيت أن أوان المغامرات قد ولى وأننا تجاوزنا السبعين.

عندما قال داوود عبارته المحبطة تلك فكان كمن ألقى بهاء بارد على جذوة نار مازال بها بعض الوهج فأطفأها، فقلت يائساً: يبدو أن الأوان قد ولى تاركاً خلفه أشياء كثيرة لا نستطيع إدراكها. فأكمل داوود إخماد جذوة الحماس الواهنة التي اتقدت بداخلي بقوله، وهو يحرك جذعه للأمام والخلف للتأكيد، ضاغطاً على كل حرف من حروف كلماته:

- يجب أن نعترف بذلك ولا نكابر.

فقلت مبدئياً ضيقي من تلك الصحبة المحبطة:

- أقول لكما، أنا مرهق ولنكمل حديثنا في المساء عند عزيز.

أبى عزيز بشكل قاطع:

- انس، لن أترككما حتى أعرف تفاصيل تسلك المبني الأرشيف.

رضخت أمام إصرار عزيز، فأكملت:

- بالطبع الذين عاونوني في التسلل للمبنى هم من زملاء الرائد جاك

ممن يؤمنون بدعم حركة الرافضين للخدمة ولكنهم يخشون الإفصاح عن هويتهم. لا تظن أن أمثال هؤلاء خائنون لدولتنا، بل على العكس هم من

أشد المخلصين لها ولكنهم يخافون عليها من المتطرفين وما يثيرونه ضدها من عدااء في جميع أنحاء العالم بعنصريتهم المفرطة. المهم، تحدد يوم الثلاثاء الماضي بعد الثانية عشرة مساءً كموعِد لتمكيني من دخول الأرشيف، حيث سيكون المسئول عن تأمين حراسة المبنى من أصدقاء جاك. عبرت كل الحواجز الأمنية بسهولة بفضل تصريح المرور المزور الذي زودوني به أثناء لقائي بأحد قادتهم السريين في مطعم الريحنس بفندق الملك داوود. في داخل الأرشيف تمكنت من الاطلاع على كل المكاتبات والتسجيلات الصوتية المتبادلة بين القيادة المركزية والقادة الميدانيين وحصلت على كل الأدلة التي تثبت صحة أقوال الراحل جاك. ولكن المفاجأة كانت وأنا أعيد كل شيء لمكانه مرة أخرى إذ وقع بصري على ملف مدون عليه من الخارج «عملية دافيد - باريس - 2009». سحبت الملف وما إن فتحت حتى صعقت، لم أستطع تمالك نفسي وانهرت جالسًا على أقرب مقعد. أثناء تجرعي لشربة ماء من الكوب الموضوع أمامي على المنضدة الصغيرة التي تتوسطنا، لم يطق عزيز صبرًا، فضرب المنضدة بأطراف أصابعه، وقال:

- قل، قل يا موسى ماذا رأيت.

- عدة صور لدافيد وزوجته وابنته وهم غارقون في دمائهم داخل شقتهم بباريس، وعدة تقارير تصف الحادث وتبرز دور دافيد كعميل للموساد. كان رقمه الكودي 13، مجرد رقم رمزي للعملية الموكلة إليه، حيث إن هذا الرقم يشير إلى يوم الجمعة الثالث عشر من شهر... لا

أتذكر أي شهر، ولكنه من عام 1307، وهو يوم بدء المجزرة التي وقعت  
للآلاف من فرسان الهيكل بأمر من ملك فرنسا بناء على قرار من البابا.

- فرسان الهيكل؟!

- كنت مثلكما تمامًا لا أعرف شيئًا عن تلك الجماعة وتاريخها المليء  
بالأساطير ولكنني بالطبع اضطررت للقراءة عنها حتى أعرف ما هي  
القوة التي واجهها ابني.

- وماذا عرفت عنهم.

- باختصار، هم جماعة تأسست من عدد من نبلاء فرنسا في القرن  
الحادي عشر بهدف حماية الحجاج الذاهبين لبيت المقدس، ويقال إن هناك  
سببًا غير معلن وهو البحث عن الهيكل، أو صليب الصلبوت الذي  
صلب عليه المسيح، أو البحث عن كتب السحر العظمى التي تضمن لهم  
السيطرة على العالم. كان لهم دور كبير أثناء الحروب الصليبية، ولما تمت  
هزيمة الجيوش الصليبية، تركوا القدس وتنقلوا في عدة بلدان واستقر  
بهم المقام في فرنسا، ولما طمع ملك فرنسا في أملاكهم وثرواتهم الخيالية،  
استصدر من البابا كليمنت الخامس قرارًا بتكفيرهم ومن ثم استباحة  
دمائهم، وبالفعل أقيمت لهم مجازر كبرى بدأت في 1307 وانتهت في  
1314 بحرق زعيمهم في باريس. ولكن هناك مجموعة منهم استطاعت  
الفرار واتجهت للعمل السري، ويقال إن هذه المجموعة هم أصل  
الجمعيات السرية في العالم ومنها الماسونية. وقد كانت مهمة دافيد هي  
اختراق هذه الجماعة من فرسان الهيكل في فرنسا، التي مازالت تعمل حتى

الآن مستترة خلف أحد المحافل الماسونية، وذلك بهدف الاستفادة من علاقاتهم المتعددة والمتشعبة بكبار الشخصيات المستنفذين في جميع أنحاء العالم لصالح دولتنا. تلقى دافيد تدريباً مكثفًا، حيث إن الهدف لم يكن الالتحاق بالمحفل وحسب، فهذا أمر هين، ولكن كان الهدف اكتساب ثقة هيئته العليا التي تمثل امتدادًا حقيقيًا لجماعة فرسان الهيكل. استطاع دافيد أداء مهمته بنجاح، وأرسل عدة تقارير مهمة، ولكن الإدارة في تل أبيب طلبت منه أن يقوم بتسجيل أحد الاجتماعات السرية للهيئة العليا للجماعة حتى تكون بمثابة أداة ضغط على الشخصيات التي تتألف منهم تلك الهيئة. استطاع دافيد وضع كاميرا وسجل أحد الاجتماعات، التي يبدو أنها كانت على قدر كبير جدًا من الأهمية، ولكن قبل أن يستطيع إرساله لتل أبيب اكتشف أمره، وأيقن أنه هالك لا محالة، فنقل التسجيل على كارت ذاكرة وخبأه في مكان لا يعرفه أحد غيره وأتلف الكاميرا التي بها التسجيل الأصلي. بعد مقتله، قام رجال الموساد ورجال التحقيق الجنائي الفرنسي، وأكد رجال من جماعة فرسان الهيكل، بقلب شقته رأسًا على عقب في محاولة للبحث عن هذا الكارت ولكن دون فائدة. ولكنني أظن أن السر يكمن في هذه الرسالة الموجهة إليّ، والتي وجدتها ضمن أوراق الملف، والتي فيما يبدو لم تتح له الفرصة لإرسالها لي، ووجدها رجال الموساد في بيته واحتفظوا بها في ملفه.

- وماذا في تلك الرسالة؟

أخرجت الرسالة من جيب سترتي الداخلي وارتديت نظارة القراءة

وشرعت في قراءتها بصوت منخفض:

- أبي العزيز، أكتب إليك وأنا محاصر تمامًا، الهاتف الأرضي معطل،  
الهاتف الجوال مشوش عليه، الإنترنت مقطوع، معزول داخل شقتي ولا  
أستطيع مغادرتها، فهم ينتظرونني بالخارج. حتى إني لا أعرف لم أكتب  
هذه الرسالة، فما من سبيل لتوصيلها إليك. حياتي أنا وعائلتي في خطر  
داهم بسبب هذا الكارت اللعين الذي لا أعرف أين أخفيه.

توقفت لأمسح دموعي، ولأؤكد عليها الانتباه بداية من المقطع التالي:  
- لا يوجد أمامي مفر. أين أختبئ؟ حارة اليهود لم تعد ملاذًا لنا، بيوت  
جيراننا لا تسعنا، الهيكل سقط ولم يعد لنا من ذكره سوى مكان شاغر  
على يمين أبواب بيوتنا. لا أدري ماذا أفعل يا أبي. فتحت التوراة لأتلو  
منها بعض الآيات علها تمنحني الهدوء والسكينة، قلبت في صفحاتها،  
توقفت أمام هذه الآية: «وأدخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه في  
محراب البيت في «قدس الأقداس» إلى تحت جناحي الكروبيين»... وداعًا  
أبي، أرسل لك تحيات هيلجا وتوتسي.

نزعت نظارة القراءة وجففت دموعي ثانية، نظرت لداوود وعزيز،  
فإذا بهما يحفان دموعهما هما أيضًا. قلت:

- يبدو أنه لم يمض وقت طويل بعد كتابته هذه الرسالة إلا واقترحت  
شقتي من قبل رجال فرسان الهيكل وذبحوه وزوجته وابنته، ثم قاموا  
بتفتيش الشقة بحثًا عن كارت الذاكرة ولكنهم لم يجده، وقد غفلوا عن  
الرسالة التي كانت من نصيب رجال الموساد الذين يبدو أنهم تأخروا

في وصولهم لإنقاذ دافيد، وأكد أنهم أعادوا البحث عن كارت الذاكرة فلم يوفقوا هم كذلك، فلطخوا جدران الشقة بدماء الضحايا على هيئة الصليب المعقوف لصرف النظر عن سبب الجريمة الأصلي فتبدو الجريمة وكأنها موجة جديدة من معاداة السامية، ويبدو أن البحث الجنائي الفرنسي، الذي وصل متأخرًا، ابتلع الطعم وصورت الجريمة على أنها جريمة عنصرية من جرائم اليمين المتطرف. كل هذا كان مذكورًا في التقارير الموجودة بالملف.

عندئذ أبدى عزيز ملاحظة تستحق الاهتمام، وكانت غائبة عن ذهني:

- ولكن كيف يصل ملف خاص بالموساد للأرشيف الخاص بالمخابرات العسكرية.

- ها... ربما لأن دافيد كان ملحقا عسكريا.

رفع عزيز يديه ومط شفثيه مبدئيًا عدم اقتناعه وقال:

- ربما... ولكن ماذا تعني رسالة دافيد؟

- لا أدري، فكرت كثيرًا، ولكنني أظن أن دافيد أراد إخباري بسر

ما، حارة اليهود! بيوت جيراننا! سقوط الهيكل! والأدهى أن دافيد كان علمانيًا لا يؤمن لا بالتوراة ولا بغيرها والنسخة التي يحتفظون بها تخص زوجته، وما فكر يومًا في قراءتها أو الاطلاع عليها.

- ربما في أوقاتنا العصيبة نحاول اللجوء لقوة عظيمة مطلقة تستطيع

انتشالنا من محنتنا.

- ربما، ولكنني على يقين أن في كلمات الرسالة إشارة لشيء ما. وليست

مجرد تعبير عن مشاعر إنسان فقد الأمل في النجاة. ربما أراد أن يوضح لي  
بمكان كارت الذاكرة ولكن بالألغاز والإشارات كي لا يعرف مكانها  
غيري.

- ربما... ولكن لماذا أنت مطارد.

- لأنني ظهرت على شاشة القناة الثانية في التلفزيون الإسرائيلي منذ  
يومين، وفضحت الجيش وممارساته في غزة وكشفت عن كل الوثائق  
والتسجيلات المتبادلة بين القيادة المركزية والقادة الميدانيين. ولكني  
لم أذكر تفاصيل موضوع دافيد، فقط ذكرت أنه قتل بمعرفة أجهزة  
المخابرات لدينا، وأن لدي أسراراً وحقائق ووثائق خطيرة ولكن لم يكن  
الوقت للكشف عنها. فأطلقت وسائل الإعلام عندنا عليها «فضيحة  
دافيد». أما الإعلام اليميني المتطرف فقد نعتني بالخائن القادم من الشرق  
ليقضي على الدولة بتخلفه.

هز عزيز رأسه غير مصدق وقال:

- ألم أقل لكم، ما زال يظن نفسه شاباً ويقبل على المغامرات بصدر  
مفتوح.

لم يتقبل داوود تعليق عزيز وإنما استنكر ما أقدمت عليه، ربما خوفاً  
عليّ. اختتم كلامه الممزوج بنبرة توبيخ بقوله:

- أظن أننا جميعاً مرهقون، فلنستأنف حديثنا في المساء عندك يا عزيز.  
غلبنا، أنا وداوود، النعاس في دقائق معدودة، ولم نستطع تبادل أي  
حديث. أفقنا على رنات هاتف داوود ليخبرنا عزيز بأنه سيمر علينا بعد

نصف ساعة لاصطحابنا لمنزله.

~~~~~

كنا جالسين حول مائدة الطعام في بيت عزيز، استعدادًا لتناول وليمة العشاء التي أعدها لنا احتفالاً بمولد حفيده إلياهو. عندما اقتحم المكان فجأة رجل يرتدي ملابس رثة، طليق اللحية، أشعث الشعر، عيناه تقدحان شرراً، وجهه ملطخ بالسواد، ثم توجه مباشرة إلى الرضيع، فانقض عليه واختطفه من حضن أمه. هرعنا جميعاً إلى الطفل لننقذه من بين أيادي الكوهين، فمنعنا وسأل الأم:

- أهذا الطفل هو ابنك البكر.

- نعم.

فتوجه بسؤاله للأب:

- ها، ماذا تفضل، أتفتدي ابنك بخمس قطع من الفضة، أم تعطيه للكوهين كما تأمرك التوراة.

- أرجوك إنه ابني البكر، أنا مرتبط به، وسأعيد شراءه منك بخمس قطع من الفضة، كما أوصانا المقدس في التوراة.

عندئذ نظر كوهين للرضيع وقال:

- سيعيد أبوك شراءك، لأنك من رعايا والدك الرب، وهو الذي قال لموسى «سوف تكرس لي أي بكري يولد في بيت إسرائيل، سواء كان إنساناً أو حيواناً».

أخرج والد إلياهو، بنيامين، خمس قطع من الفضة وأعطاهما للكوهين

وهو يقول:

- ها أنا مستعد بكل سعادة أن أطيع أوامر خالقي، وسأعيد شراء ابني.

ثم وقف بنيامين بجوار كوهين، وقال:

- مبارك من أمرنا بإعادة شراء أولادنا البكر، مبارك الذي جعلنا نحيا حتى يومنا هذا.

أجابه كوهين:

- لقد استلمت منك خمس قطع من الفضة لإعادة شراء ابنك البكر وفقاً لشريعة موسى وإسرائيل.

ثم وضع يده على جبين الرضيع وقال:

- هذا الطفل خرج للوجود ودخل للحياة، وسيدرس التوراة، ويلتزم بالأوامر الإلهية، ويتزوج، ويمارس الأفعال الطيبة.

ثم أمسك بكتاب الأنبياء وأخذ يتلو منه الآيات التي تدعو الإله بحماية هذا الطفل.

انتهت مراسم إعادة الشراء بشرب أنخاب النبيذ وتوزيع زجاجات العطر على الموجودين، وقبل أن نبدأ في تناول وليمة العشاء غاب كوهين قليلاً في الداخل وعاد كعزيز بعد أن بدل ملابسه وأزال اللحية المستعارة وغسل وجهه، تساءل أبو إياد عن مغزى هذا الطقس اليهودي المصري الصميم، فأجابه عزيز:

هذا لإضفاء القدسية على الابن البكر من خلال عملية إعادة الشراء.

فرجع أبو إياد كتفيه ولم يعقب. فقال داوود:
- أتدرون من هو الكوهين الذي اختطفني... لقد باحت لي أُمِّي
بذلك السر.

تساءلت:

- لم لم تخبرني أُمِّي أنا أيضًا؟
- لا تنس أنني قضيت معها بعض الوقت وحدنا في أمريكا قبل وفاتها.
هززت رأسي موافقًا، ثم قلت شارحًا لأبي إياد، محاولًا إحداث ثغرة
في جبل الجليد القائم بيننا:

- فيما مضى، كان هذا الطقس يقتضى أن يظل كوهين مجهولًا للطفل
الذي حاول اختطافه، وكان عادة أحد فقراء اليهود في المنطقة المحيطة
بسكن الطفل.

ثم توجهت بحديثي لداوود:

- أنسيت يا داوود ما قالته أُمك «ساعة ولادتكما، تم الخلط بينكما ولم
نعرف من منكما ولد الأول فصرنا أنتما الاثنان بكرًا». لذا فعلى الأرجح
أن كوهين الذي حاول اختطافك هو ذاته الذي حاول اختطافي.
- أكيد.

- من هو إذن.

- عم صبان والد عم عوفاديا وجد عساف، جارنا في حارة اليهود
بمصر.

ثم أضاف ضاحكًا:

وقد رفض إعادة القطع الفضية الخمس لأبي مرة أخرى، واحتفظ بها. ما إن أتم داوود عبارته تلك وسط ضحكات الحضور، حتى برق أمامي ضوء الشمس منعكسًا على نجمة داوود النحاسية المعلقة فوق باب منزل عم عوفاديا في حارة اليهود، فوضعت يدي فوق عينيّ وأغمضتهما لتجنب تأثير أشعتها على عينيّ، فوضحت الصورة أمامي أكثر... مدخل بيت عم عوفاديا، أعلى الباب نجمة داوود ولوحة من الرخام محفور عليها اسم مالك المنزل وتاريخ البناء وإلى يسار الباب مثبت صندوق يحوي أوراقا من التوراة بها نصوص من سفر الخروج، وإلى اليمين مكان أحد الأحجار شاعرًا بدون بناء، ذلك الفراغ الذي كنا نضع فيه الأشياء التي نريد أن نخفيها عن أنظار الآخرين. عندئذ قفزت في الهواء صائحًا:

- وجدتها، وجدتها.

نظر إلى الجميع بدهشة وخاطبني عزيز كأنني مخبولًا فقد عقله:

- ما الذي وجدته، أهذا ما كنت تبحث عنه منذ سبعين عامًا، من هو كوهين الذي اختطفك!

- ياه، يا عزيز، أتظنني بهذا الحمق، ولكنني تذكرت الآن كم حكيت لدافيد عن ذكرياتنا في حارة اليهود وعن هذا المكان الشاغر في بناء منزل عم عوفاديا وأنه يرمز لهدم الهيكل، وكيف أننا كنا نخبئ فيه أشياءنا الثمينة. وأطلقنا عليه «قدس الأقداس»

- أتعني.

- نعم بالتأكيد، أعني أن دافيد خبأ كارت الذاكرة خارج البيت وليس

داخله... انتظروا.

أخرجت من جيب سترتي الداخلي خطاب دافيد وقلت:

- تعالوا نقرأ الخطاب على مهل ونحاول تفسيره على ضوء ما توصلت إليه.

فضضت الخطاب وقرأته بصوت عال والجميع ينصت بشغف وانتباه. بعد انتهاء القراءة علقت بقولي:

- حارة اليهود... كي يذكرني بمصر. بيوت جيراننا... كي يذكرني بيت عم عوفاديا. الهيكل سقط... كي يذكرني بالمكان الشاغر الذي كنا نخبئ فيه أشياءنا الثمينة. وأكد هذا بفقرة من التوراة فيها لفظ «قدس الأقداس» الذي كنا نطلقه على مخبأنا.

نظر إليّ الجميع هازين رؤوسهم اقتناعًا بصحة استنتاجي، ما عدا أبو إياد الذي بدا وكأن الأمر لا يعنيه في شيء، لا أعرف لأنه لا علم له بالأمر، أم لأن جبل الجليلد القائم بيننا يجعله رافضًا لأي طرح يأتي من ناحيتي. لن أياس من محاولة إذابة هذا الجبل، فتوجهت بحديثي له:

- ما رأيك؟

- الأمر لا يعنيني.

- إنما أردت أن أعرف رأيك، لعلك تقترح فكرة قد تكون غائبة عن

ذهننا.

- وهل تظن لو أن لدي فكرة جيدة سأطرحها.

- ولم لا.

خلع أبو إِيَاد نظارته وتأمّلني مليًّا، كأنه أراد أن ينفذ بداخلي، ثم قال بهدوء:

- سيد موشيه، أنا فلسطيني ولدت في قرية عين كارم، طردت من بيتي بسبب عصابات صهيونية، أبي أصيب بالشلل ليلة إعلان قيام دولة إسرائيل، أخي انضم للفدائيين وأقام في الأردن وقتل على يد الإسرائيليين في معركة الكرامة. شردتم شعبًا بأكمله من أجل أن تقيموا دولتكم، اغتصبتم أرضنا، سلبتم حقوقنا، شتمتم شملنا...
بدأ صوته يعلو وشابت نبراته حده، فقاطعه داوود موجهاً كلامه لعزير:

- عزيز، بإذنك، يجب أن ننصرف الآن، فأمانا غدًا يوم شاق.
لم أשא أن ينتهي اللقاء وأنا مدان هكذا، فنظرت لداوود وقلت متسائلًا:
- سيد طه، أنت صديق لداوود، هل نسيت أنه أخي.
- هناك فرق كبير، دافيد يهودي وليس إسرائيلي.
ثم قام واقفًا وقال لابنه:
- هيا بنا يا إِيَاد.
قلت:
- دقيقة سيد طه.

فتحت حقيتي وأخرجت منها مسودة التقرير الذي أعدته عن تجاوزات الجيش أثناء العدوان على قطاع غزة، وأعطيته للسيد طه وأنا أقول:

- أرجوك خذ اقرأ هذا، لتعرف أن في إسرائيل أناسا يبحثون عن الحق والعدالة... سيد طه، كثيرًا ما تفرض الظروف علينا أمورًا لا نرضى عنها.

قال عزيز:

- لقاءنا هنا غداً بعد أن تنتهوا من أعمالكم، يجب أن نتباحث في كيفية مساعدة موسى.

ثم التفت للسيد طه وقال مؤكداً:

- في انتظارك غداً.

فهمز رأسه موافقاً. قلت لداوود هامساً «أطلععه على أمر دافيد بأكمله كما قصصته عليكم».

راحيل «راحيل»

القاهرة

فتحتُ النافذة وصحْتُ بصوت واهن:

- مصطفى، مصطفى.

- نعم يا خالة راحيل.

- آتني بخبز.

- بكم؟

- بجنيه... جنيه واحد فقط.

- حاضر.

قمت متثاقلة، متوكئة على عصا خشبية، سرت بحذر خشية السقوط والتواء قدمي كما حدث في العام الماضي، حمدت الله حينها أن عظامي لم تكسر، فعظام النساء بعد السبعين تصير هشّة وقابلة للكسر لأهون الأسباب.

انتظرت بجوار الباب، حتى طرّقه مصطفى. فتحتّه وأنا أقول:

- ساخن.

- بنار الفرن.

شكرته وأعطيته الجنيه، ونهت عليه قائلة:

- ذكر جدك بالأ ينسى أن يقوم بخبز فطيري الخاص غير المخمر... لا تنس.

وحفزت ذاكرته بقطعة من الحلوى أخرجتها من جيب قميصي ودسستها في يده. فقال بعينين لامعتين:

- أمرك يا خالة.

واستدار هابطاً الدرج بسرعة مذهلة، قافزاً كل درجتين أو ثلاثة سوياً، تماماً بنفس الطريقة التي كان يتبعها أخو جده، مصطفى، عندما كانت ترسله أمه بطبق الزلابية الساخنة الغارقة في العسل، طوال أيام شهر رمضان، وحتى بعد رحيلنا عن الحارة إلى حي الظاهر، فكانت ترسلها لخالتي هيلينا، واستمرت في إرسال الزلابية بعد رفضي للهجرة مع عائلتي ومجيئي للإقامة مع خالتي في بيتنا القديم بحارة اليهود. لم تنقطع عادة أم مصطفى تلك إلا بموتها.

كنت كل يوم من أيام شهر رمضان، بعد سماعي لأذان المغرب، أسرع بالانتظار بجوار الباب لأفتحه بمجرد أن تلتقط أذني صوت وقع أقدام مصطفى صاعدة الدرج، وقبل أن يطرق الباب يجذني واقفة في انتظاره، فيطل عليّ بوجهه الأسمر النحيل، بملامحه التي تبدو وكأنها نحتت بأزميل في قطعة من الصخر، وبعينيه العسليتين، وشعره الناعم الأسود كسواد الليل، المدهون «بالبريانتين» ليمنع انزلاقه فوق عينيه، وبقد صلب ممشوق.

فيبدو كأنه رمح جهزه محارب ليطلقه فيصيب قلب عدوه. فكان الرمح ينطلق صاعداً الدرج كل يوم ليصيب قلبي، ولكنه رمح محب يصيب قلب حبيته.

يمد يده بطبق الزلاية قائلاً:

- ساخنة وغارقة في العسل كما تحبونها.

يدق قلبي بعنف وأنا أمد يدي لأخذ الطبق منتظرة تلامس يدينا، فيسد سد سهام نظراته لعيني فلا أقوى على إطالة النظر إليه. أطرق، فيتبدل شعري ملامساً حبات الزلاية، فيقول:

- ارفعي شعرك عن الزلاية، فهي لا ينقصها العسل.

فأسحب يديّ بنعومة من بين يديه وأنا أكاد أذوب شوقاً ورغبة، قائلة:

- هيا، هيا، اذهب كي تلحق بطعام الإفطار.

- أفطرت وشبعت برؤيتك.

- غداً يوم السبت، فلا تنس أن تأتي لإضاءة النور وإشعال الموقد وغسل الأطباق و....

فيقاطعني بقولة:

- كيف أنسى وأنا أتمنى أن يصير الأسبوع كله أيام سبت.

ثم يستدير هابطاً الدرج، قافزاً كل درجتين أو ثلاثاً سوياً.

بعد أن أعطيت الجنيه لمصطفى وأوصيته بصنع فطير الماتسا الخاص بي عدت للداخل، وجلست إلى مقعدي المفضل بجوار الشرفة، فانضغطت حاشيته ولانت أخشابه مستجيبة لثقل وزني فأصدرت صوت أنين مكتوم

كمريض يتأوه من الألم. كسوته الخضراء تهرأ نسيجها فانفصلت خيوطه عن بعضها فظهر من خلالها اللون البني الأصلي لقماش المقعد. وتآكلت حواف مسانده فأطلت منها شعيرات من القطن هاتفة «حرام، كفى، اعتقيني، حرريني من قيدي، لقد تعبت من ثقلك، ومللت طول عشتك». فلطول جلوسي على ذلك المقعد المسكين - وخالتي هيلينا لسنين طويلة من قبلي - هبطت قاعدته متشكلة تبعاً لثقلينا، فلعشر سنين مضت كان مجرد تقعر بسيط في قاعدته يتلاءم وجسد نحيل لعجوز تجاوزت التسعين. أما عندما احتلت ذلك المقعد بعد رحيل خالتي، بدأت معاناة ذلك المسكين فانهارت قاعدته تحت وطأة أرطال اللحم، حتى كادت أن تلامس الأرض، فملأتُ تجويفها بوسادة أسفنجية. أما خلفية ذلك البائس فانطبعت عليها علامة دائرية ذات لون داكن، لطول نومي فوق المقعد سائدة رأسي على قائمته الخلفية والتلفاز أمامي، أستيقظ فأغير المحطة، ثم أنام ثانية.

أخرجت من جيبي حافظة نقودي، ضغطتها بيدي متحسنة ما بقي بها من نقود، آملة أن ما تبقى من إيراد القرن وإيجار شقة الطابق الثاني، وكذلك تلك المساعدة المالية التي يرسلها لي القادرون من أبناء الطائفة اليهودية - والذين تقلص عددهم لأقل من مائة مبعثرين بين القاهرة والإسكندرية - يكفي مصاريفي حتى نهاية الشهر. كثيراً ما رفضت ما تعرضه علي السفارة الإسرائيلية من مساعدات، فبيني وبينهم ثار، لم ولن أنساه ما حييت. قضوا على حلمي، ودمروا سعادتي.

أثناء عد النقود ترامي إلى سمعي صوت كأنه رنين هاتف، ما هذا

الذي أسمع؟ ربما هاتف الجيران. لا، أن الصوت قريب، أنه صادر من هنا، من شقتي، نعم، نعم، أنه هاتفي، أمازال يعمل! خفق قلبي بشدة، لا أدري أخوفاً أم فرحاً. قمت مسرعة، ناسية عصاي الخشبية، وآلام مفاصلي وساقِي، التي لو كسرت فلا أمل في التئامها. لكنه الشوق لسماع أي جديد، أياً ما يكون، مفرحاً أو محزنًا، لا يهم، المهم أن يحدث شيء يكسر حدة الرتابة التي غلفت حياتي وحولتها لمسلسل تلفزيوني ممل شاهده عشرين المرات، وكادت أن تسلبني إحساسي بوجودي وتحولني لجهاد يتنفس. تتبعت مصدر الصوت، حتى بالكاد وصلت لمكان الهاتف الذي نسيت أين هو. ما أن وضعت يدي فوق الساعة، إلا وتوقف الرنين.

جلست على الأريكة بجوار الهاتف، وقد أصبت بإحباط قاتل، وظللت انظر إليه مستجدية إياه أن يعاود الرنين، طفرت دمعتان من عيني، جففتها بكم قميصي.

لم أسمع رنين الهاتف منذ شهور. أتذكر آخر اتصال كان من السفارة الإسرائيلية، يطمئنون عليّ، ولم يدعوني كعادتهم للهجرة لإسرائيل كما كانوا يفعلون قديماً، عندما كنت ما أزال في الأربعينات من عمري، أما الآن فبماذا تفيدهم عجوز مثلي، لن تمثل أكثر من عبء يضاف لأعبائهم، فاكثفوا بالاطمئنان وعرض الخدمات.

آخر محاولاتهم، لإقناعي بالهجرة، كانت في بداية عام 1988، لم تكتفي السفارة حينها بالحديث الهاتفي، وأرسلت مندوب عنها، في محاولة جادة للاستفادة من خبرة أعدت الكثير من الدراسات حول الطرق القانونية

لمكافحة الشغب، ولم تجد فرصة للعمل بمصر فظلت عاطلة. كنت يومها جالسة على أريكة ذات مساند خشبية، لم يعد للأريكة وجود اليوم، فقد تهالكت ولم تفلح معها محاولات الإصلاح. أما خالتي هيلينا فكانت نائمة على نفس المقعد الذي أجلس عليه الآن. كنا نشاهد التلفزيون، نشرة الأخبار تعرض مشهد لأطفال يلقون بأحجار في اتجاه جنود مدججون بالسلاح ويحتمون خلف عربات مصفحة. ومشهد آخر لعدد من هؤلاء الجنود يلاحقون صبي لا يتجاوز الثالثة أو الرابعة عشر وعندما يوقعون به ينهالون عليه ضرباً بالعصي ثم قام أحدهم بكسر عظمة ساعده الأيمن عمداً. عندئذ أدرت وجهي بعيداً عن شاشة التلفاز، وقبضت بعنف على المسند الخشبي للأريكة لأفرغ شحنة العنف الغاضب التي تولدت بداخلي. فقال مندوب السفارة، السيد شامير:

- قتلة.

قلت وأنا أدق بيدي على المسند:

- لك الحق، فعلاً قتلة.

- هؤلاء الشياطين قتلوا مستوطن بريء بالأمس.

- إسرائيلي؟!!

- بالطبع، مستوطن إسرائيلي.

- كيف يقتل جنود إسرائيليون مواطن إسرائيلي؟!!

نظر إليّ نظرة يملؤها الدهشة والاستنكار. عندئذ أيقن كلانا سوء الفهم. فقرر السيد شامير تغيير دفة الحديث، فقال بصوت محمل بنبرات

التساؤل المشفق:

- سيدة راحيل، كيف تنعمين بالراحة وأنت بعيدة عن آرتس إسرائيل؟
- وكيف لخمسة مليون يهودي يعيشون في أمريكا ينعمون بتلك الراحة.
- هؤلاء معذبون، ويشعرون بالشتات، يهوديتهم ناقصة.
- سيد شامير، أتدري، جد جدي لأبي أتى لمصر من اسطنبول، في زمن محمد علي، ذلك بعد أن مر على فلسطين وأقام بها لبعض الوقت، وعندما لم يجد فرصته لحراك اجتماعي أفضل، غادرها إلى هنا، إلى مصر، ولم يشعر بالشتات ولا بالحنين، وصار مصرياً ونحن من بعده.
- هذا زمن مضى، أما بعد إقامة دولة إسرائيل على أرض الميعاد، صار هناك الكيان الذي يجمعنا جميعاً، وتهفو له قلوب اليهود في كل مكان...
- سيدة راحيل، ساحيني إذا قلت أنك لم تتزوجي، وأخيك دافيد هاجر لأمريكا وتزوج من مسيحية. لو كل يهودي فعل مثلكما فهذا كأنه موت بطيء لنا.
- أنتم لا يعنيكم سوى مصلحتكم، أما رغباتنا وأحلامنا وطموحاتنا فلتذهب للجحيم... سيد شامير أشكر لك مجيئك.
- لم أقف على النهوض ثانية، فمكثت في مكاني. لا أدري كم من الوقت مضى، ربما دقيقة أو ساعة، لا أدري. ولكن ما أعرفه أنه عندما يصل شعاع الشمس الداخل من النافذة حتى حافة السجادة، التي تآكلت أطرافها، فهذا يعني أن الساعة قاربت العاشرة، موعد احتسائي قهوة الصباح. تغلبت على إحباطي وقمت مستندة بكل ثقلتي على مسند الأريكة، وبخطي

متناقلة توجهت للمطبخ لأعداد القهوة. فجأة، تجمدت في مكاني، إذ علا رنين الهاتف مرة أخرى، فتدفق الدم في عروقي ثانية، وعدت بسرعة بخطى ثابتة.

بعزيمة حديدية وشوق متقد أمسكت بالساعة وانتزعتها من مكانها ووضعتها على أذني قائلة بلهفة:

— من؟

بصوت رقيق، أجاب المتكلم تساؤلي، فقال باللغة الإنجليزية:

— مسز راشيل.

هذا الصوت أعرفه، نعم أعرفه. اختلطت في عقلي عشرات الأصوات وأنا أقلب بينها، كي أميز أي الأصوات هذا. قبل أن أقول:

— نعم راحيل، من؟

— عمتي، أنا سارة، ابنة أخيك دافيد.

صمتُ لبرهة، ثم انفجرتُ باكياً. أغير مصدقة؟ أم حانقة عليهم؟ أم من فرط سعادتي؟ ... لا أدري.

— سارة، أخيراً تذكرتوني.

أتى صوتها من الجانب الآخر واهناً، متردداً، خائفاً:

— عمتي!

تمالكت نفسي وقلت:

— حبيبتي، ساعيني، إنه ... إنه عتاب الشوق إليكم.

— لا عليك، أوحشتني يا عمتي.

- وأنتِ كذلك، كيف أنتِ، وكيف أبيك وأهلك وأبراهام، أفقدكم جميعًا.

- الجميع بخير.

- لكن من أين أتيت برقم هانفي؟ فأنتم لم تتصلوا بي منذ أن تغير من أكثر من خمس سنوات.

- نعم، نعم، لكِ حق، لقد أتيت به من السفارة.

- سفارة أي سفارة؟

- السفارة الإسرائيلية.

- أي سفارة إسرائيلية؟

- السفارة الإسرائيلية هنا في القاهرة.

- أأنتِ هنا، في القاهرة؟

- نعم يا عمتي.

كدت أطيّر فرحًا، قبضت على ساعة الهاتف بشدة خشية إفلاتها، قلت وقد بدأت الدموع تتجمع في عينيّ ثانية:

- هنا... هنا، في مصر.

- نعم، وأرجو أن تسمح لي بزيارتك غدًا.

أجبتها بحسم:

- لا.

صمتت قليلًا ثم قالت بتردد:

- عمتي.

- لا ، لن تزوريني غداً... بل الآن، وفوراً.
- استعاد صوتها حيويته وهي تقول بلغة عربية ركيكة:
- رائع... رائع يا عمتي. معكِ زوجي بهاء، صفني له العنوان وهو سيقوم بتوصيلي لك.
- زوجك؟
- نعم لقد تزوجنا في أمريكا منذ عام، وعندما أنهى دراسته جئنا للإقامة بمصر.
- لا أصدق. أهذا يعني أنك ستبقين هنا على الدوام؟
- نعم.
- هذا أسعد خبر سمعته في حياتي. الحديث في الهاتف لا ينفع. أنا في انتظارك، لا تتأخري.
- وصفت عنواني لبهاء وأنهيت المكالمة. شعرت أن الدم يدب في عروقي، نهضت واقفة، تلفت حولي، لا أدري ماذا أفعل، مشيت إلى المطبخ، ثم عدت لحجرة المعيشة، خرجت للصالة الخارجية. في كل مكان أقف قليلاً أتلفت حولي ولا أفعل أي شيء. عدت للمطبخ ثانية، فتحت الثلاجة، توجهت للنافذة وصحت منادية على مصطفى. عندما أتى طلبت منه أن يحضر زجاجات مياه غازية، وبعض المخبوزات التي ينتجها الفرن. بعد أن أعطيته النقود، قلت له: «انتظر»، وسحبته من يده لغرفة المعيشة، طلبت منه أن نحمل سوياً المقعد العتيق الذي انهارت قاعدته وننقله لغرفة النوم، ثم حملنا الأريكة ووضعناها فوق طرف السجادة المتهرئ حتى لا تراه سارة.

- أخرجت جنيهين من حافظة نقودي وأعطيتها له قائلة:
- مصطفى، أحضر المكنسة من المطبخ، وقم بكنس هذه الغرفة والصالة الخارجية، ريثما أقوم بتبديل ملابسي.
 - من عينا، ولكن ألن أحضر الأشياء التي طلبتها.
 - بعد أن تفرغ من الكنس.
 - حاضر.

في غرفة النوم، فتحت خزانة ملابسي، وقفت أتأمل ما بها، تذكرت أنني لم أشتري أي ملابس جديدة منذ بضع سنين. قلبت بين فساتيني، أخرجت أكثرها قرباً لنفسي، بالكاد ارتدته، ولكن الأضرار لم تقفل، آه، البدانة، البدانة ستقتلني. من اليوم سأبدأ حمية، يجب أن أنقص وزني على الأقل عشرين كيلو جراماً... أو يكفي عشرة. ولكن ماذا أرتدي الآن، أخرجت فستاناً آخر، ولكن تمزقت خياطته الجانبية وأنا أحاول أن أحشر جسدي بداخله. لا فائدة سأظل بملابسي كما هي، جلباب منزلي فوقه سترة من الصوف.

أمام المرأة نزع الطرحة التي أعطي بها رأسي دائماً. مشطت شعري، لملتته للخلف وربطته بشريط ملون. مددت يداً مترددة تجاه أحمر الشفاه، لا بأس، قليل منه قد يجعلني أبدو أصغر سنًا. ولا مانع من وضع أحمر للخدود، وتخطيط الحواجب والعيون. ابتعدت قليلاً عن المرأة، عدلت من هندامي، أعجبتني صورتي في المرأة التي كدت أن أنساها.

خرجت فوجدت مصطفى انتهى من الكنس. التفت ناحيتي، فوقف

متسمراً يتطلع إليّ في بلاهة. تخرجت، فقلت مبدية بعض الغضب:

- مصطفى، لم تحقّق فيّ هكذا! أهذه أول مره تراني؟

- أبداً يا خالة. بس...

- هل انتهيت؟

- نعم.

- إذن اذهب وأحضر ما طلبته منك.

- هز رأسه وانصرف.

لم أطق الجلوس، فقمّت أتجول في أنحاء الشقة. وكل فترة أقترّب من الباب لعلّي أسمع وقع أقدام تصعد الدرج.

آه، أخيراً هناك من يصعد الدرج، مددت يدي لأفتح الباب، وقبل أن أفتحه، خاب أملي، فهذه أنفاس مصطفى تتردد بالخارج، أخذت منه الأغراض، وضعت زجاجات المياه الغازية في الثلاجة وحرصت المخبوزات في طبق مخصص لها. عدت للتجول بالشقة، وأخيراً رابطت بجوار الباب.

تعبت، فعدت لغرفة المعيشة، وجلست على الأريكة وأدّرت التلفزيون. أفقت فزعة على صوت رنين جرس الباب، تلفت حولي، ما الذي حدث، يبدو أنني غفوت، جلست ثواني أستعيد فيها نفسي، ثم نهضت متوجهة لأفتح الباب.

وقفت لبرهة أتأمل من تقف أمامي، ثم صرخت:

- سارة.

- نعم سارة يا عمتي.
- لا أدري من فينا التي أَلقت بنفسها في أحضان الأخرى، ظلت تربت على ظهري وأنا عاجزة عن التوقف عن النهنهة. أمسكت بيدها واصطاحتها للدخل وأنا أقول:
- أين زوجك.
- أثر أن يتركنا وحدنا.
- يبدو أنه رجل مهذب.
- أكثر مما تتخيلي.
- اشكري الرب.
- حمدًا لله.
- ولكن قولي لي لماذا تغطي رأسك؟
- هذا، هذا...
- سكتت قليلاً للتذكر، ثم قالت:
- هذا هجاب.
- تقصدين حجاب!
- نعم، هجاب، فأنا مسلمة.
- لم أستطع التوقف عن الضحك وأنا أقول:
- مسلمة، مسلمة.
- لم تضحكين هكذا يا عمتي!
- ثم اتبعته بغيط:

- هل الأمر مضحك لهذا الحد!

ربت على كتفها وأنا أقول:

- لا يا حبيبتى. فهذا أمر خاص بي.

أثناء احتسائنا لكوبين من الشاي - بعد فراغنا من شرب المياه الغازية - وتناول المخبوزات. قصصت عليها حكايتي مع مصطفى. وكيف أنني كدت أن أشهر إسلامي مثلها كي نتزوج، ولكن القدر لم يمهلنا، إذ ذهب مصطفى ولم يعد حتى الآن. أكثر من أربعين عامًا أنتظر عودته... هل تاه في الصحراء؟ أختطفه الموت؟ أم دفن في مقبرة جماعية من تلك التي أعدها الجنود الإسرائيليون للأسرى من الجنود المصريين أثناء حرب عام 1967...؟ لا أدري، ولكن النتيجة واحدة، اختطفته إسرائيل، فقتلت حلمي، ووادت سعادتي قبل مولدها. لذا فتأري لديهم لا تحمد نيرانه أبدًا بل تزداد تأجبًا بمرور الأيام وتعاقب السنين حسرة على عمري الذي أضاعوه وحلمي الذي سرقوه.

كم وقفت في شرفة منزلي أسترجع مشهد مصطفى ملوحًا بيده اليمنى ممسكًا بحقيبة صغيرة في يده اليسرى وهو يرتدي بزته العسكرية، وأنا أصبح به قائلة «لا تنس وصيتي إليك»، تلك الوصية التي أفضيت إليه بها ونحن متعانقان نتبادل قبلات مازلت أشعر بحرارتها فوق شفتي، ومازالت رائحة أنفاسه الساخنة عالقة بأنفي، وأنا ملي تحمل إحساسها بخشونة ذقنه غير الحليقة. أوصيته والقمر يطل علينا بوجهه الخجول مضيئًا سطح منزلنا في ليلة الرابع من يونيو عام ألف وتسعمائة وسبعة وستين، قائلة: «عندما

تصل لتل أبيب، ابحت عن أبي وعن أخي موسى، إياك أن تمسها بسوء،
وأحضرهما معك».

- أسبب مصطفى أثرت البقاء في مصر مع خالتك هيلينا ولم تهجري
مع بقية العائلة.

- بالضبط.

ثم وكزتها في جنبها وأنا أقول ضاحكة:

- هذا سر لا يعلم به أحد، إياك أن تفشيه.

- سرّك في برّ.

- إيه، أتذكر الحديث الذي دار بين أبي وأمي عندما أعلنتهما برغبتي،
بل بتصميمي على البقاء في مصر.

- قصيه عليّ.

- في يوم جلست أُمّي متحفزة تنتظر عودة أبي من عمله، كنت أعرفها
عندما تختمر فكرة ما في رأسها، وتظل تضيف إليها من الوسواس حتى
تتضخم وتصير هاجسًا يؤرقها ولا تستطيع التخلص منه إلا بالقائه على
أكتاف أبي. فنظل تدور بأرجاء المنزل، قلقة، متوترة، وكأنها تغزل خيوطًا
من الوسواس داخل عقلها وتجدها سويًا حتى نصير حبلاً غليظًا يلتف
حول عقلها فيعوقه عن التفكير السليم والتصور الواقعي للأشياء. عندئذٍ
لا تطيق أن يُسمعها أحد أي كلمة، ولا تريد أن يقطع أحد عليها تصوراتها
وخيالها...

قطعتُ سردي وقلت لسارة:

- كما يحدث لنا جميعاً عندما تسيطر علينا الوسوس ويتتابنا إحساس بالخطر أو بالشك أو عندما يستبد بنا القلق.

- نعم، وقد جربته كثيراً. ولكن ماذا حدث وجعل الوسوس تعشش في رأس جدي.

- عندما أعلنتها برغبتي في البقاء بمصر مع خالتي هيلينا ورفض الهجرة معهم.

- أكيد أن هذا سبب لها صدمة.

أكثر من صدمة. حتى إنها صمتت تماماً ولم تجبني بالرفض أو بالقبول. وظلت تدور في الشقة وهي على الحالة التي وصفتها لك منتظرة عودة أبي. عندما عاد لم تمهله ليلتقط أنفاسه، فقبل أن يتناول طعام الغذاء، أو حتى يغسل وجهه أو يبدل ملابسه، طلبت منه أن تنفرد به قليلاً في غرفتيها.

- وكيف عرفت ما دار بينها؟

ضحكت وأنا أقول:

- سارة، أنا لدي أذنان يسمعان دبة النملة، والفاصل بيننا كان مجرد

باب خشبي.

فهزت رأسها ضاحكة وقالت:

- كلنا استرقنا السمع من قبل. وماذا سمعت؟

أدهشني رد فعل أبي، فلم يكن متوقعاً على الإطلاق. إذ سمعت أُمِّي تقول:

- حذرتك كثيراً من تلك المدرسة الفرنسية التي صممت على إلحاق

ابتتنا بها، لماذا لم تكثف بموسى وداوود.

- وما ذنب المدرسة.

- لقد أطلت البنت من خلالها على عالم أوسع ورأت الدنيا بعيون متفتحة فتمردت. ولم تعد تلتزم بالطريق الذي نرسمه لها كزوجة وأم وربة بيت وتفضل اختيار مستقبلها بالطريقة التي تروقها.

- فات أوان هذا الكلام يا ناتاليا.

- إنها تريد أن تبقى وتلتحق بالجامعة!

- وما الضرر في هذا، ستبقى هنا في رعاية خالتها وحالما تنتهي من الجامعة، أنا واثق من أنها ستلحق بنا. وكذلك ستكون تلك فرصة لنا جميعاً نقرر خلالها في أي مكان سنستقر، فهل ستأتي أنت وداوود من أمريكا للإقامة معي أنا وموسى في إسرائيل، أو سيستقر بكما المقام في أمريكا عند أخيك يوسف ونلحق نحن بكما. ومن ثم تلحق بنا راحيل... أرايت الأمر أبسط مما تتصورين، وأبعد ما يكون عن كل تلك الأوهام التي تدور في عقلك.

- في الحقيقة لم تكن الجامعة تعينني في شيء وإنما مصطفى، حبي الوحيد، هو من كنت مستعدة للتضحية من أجله بأي شيء في حياتي، بأبي، بأمي، بإخوتي.

- أراضية أنت يا عمتي؟

- كل الرضا.

- ألم تندمي؟

- ولا للحظة.. تعرفي... إن مصطفى مازال يملأ عليّ كل حياتي، فما

كان بيننا توقف عند مرحلة الحب العنيف العميق المثالي، الذي يسيطر على الفكر والمشاعر والوجدان، تلك المرحلة التي لا يرى فيها المحبوب أي شيء إلا من خلال حبيبه. توقف حبي عند تلك المرحلة هو ما يعطيني القوة الدافعة كي أستمّر في الحياة مستمدة وجودي منه... تعرفي يا سارة، ربما لو تزوجنا ل.....

أمسكتُ عن الكلام، فلا أريد لأي أفكار سلبية تتسلل لقدسية مشاعري فتعكر عليّ صفوها.
حشني سارة بقولها:

- ماذا كان سيحدث لو تزوجتما.

فأجبتُ إجابة مقتضبة:

- أنت متزوجة وتعرفين.

ثم أردتُ تغيير دفة الحديث، فسألتها:

- وأنتِ كيف أحوالك، هل أنتِ سعيدة مع زوجك، كيف هي الحياة

في مصر. كيف تم إسلامك، كيف تزوجتما؟

أمطرتها بأسئلتي كي لا تعود ثانية لقصتي مع مصطفى.

لم يكن إسلام سارة بالأمر الهين، فقد عانت كثيرًا. عانت كي تؤمن بأن هناك إلهًا، وعانت أكثر كي تقرر أنه إله المسلمين. في البداية اضطربت حياتها اضطرابًا شديدًا، انعكس ذلك على عملها وعلاقاتها الاجتماعية، فقررت أن تنسحب وتنفرد بنفسها بعيدًا عن أي ضغوط حتى تستطيع التفكير والتأمل بحرية كي تصل للقرار السليم. اختارت منتجًا ريفيًا هادئًا يقع

على ضفاف بحيرة قابعة في حضن جبل، واختلت بنفسها فيه لمدة أسبوع بعيداً عن صخب المدينة وضغوط العمل ومناوشات البشر، وبعيداً أيضاً عن بهاء وتأثيره غير المباشر. البعد عن الإيقاع الضاغط لحياة المدينة أعطى الفرصة لفكرها كي يتحرر ولخيالها كي يخلق كيفما يشاء. كانت تجلس بالساعات أمام البحيرة ترقب سطحها الهادئ وأشعة الشمس تنعكس على صفحتها ملقية بظلال الجبل إلى الغرب من البحيرة ثم إلى منتصفها قبل أن تلقيه إلى الشرق وترحل متوارية خلف أشجار باسقة على قمة الجبل وتنحدر متدرجة حتى ضفاف البحيرة. رتابة المشهد والسكون الخارجي لم يكونا ليعكسا حقيقة الصراع داخلها. صفحة البحيرة ساكنة وصفحة عقلها مضطربة تتقاذفها الأفكار والأهواء. ظلال الجبل تسير بحركة رتيبة منتظمة، وظلال أفكارها تتسارع في فوضى وصدام. الأشجار تنحدر من قمة الجبل لسفحه في تدرج بديع، والوساوس تبقي على أفكارها معلقة وتأبى أن تدعها تهبط لتستقر في خزانة وعيها. هربت من صخب المدينة ومادية علاقاتها ولزوجة مشاعرها، كي تقع في برائن خشونة العقل وصرامة منهجه وضيق أفقه. استمرت على هذا الحال حتى قبل رحيلها عن المنتجع بيوم واحد، حتى يئست من أن تهدأ أفكارها المضطربة أو أن تستقر مشاعرها المتأرجحة. ولكن حدث ما لم تكن تتوقعه على الإطلاق.

كانت توصلت لضرورة وجود إله، القراءة والبحث سارا بها بخطى حثيثة تجاه الإسلام، ولكنها كانت لا تزال مترددة ولم تحسم أمرها وقررت أن تخبر بهاء عند عودتها بأنها في حاجة لمزيد من الوقت للبحث والدراسة.

حتى كان ذلك الحادث.

جلست كعادتها عند ضفاف البحيرة مطلقة العنان لتأملاتها. لكنها لم تستطع التفكير بعمق نظرًا لازدحام المنتجع بمن توافدوا إليه لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. لفت انتباهها صبي في الثالثة أو الرابعة عشرة يسبح في البحيرة على الرغم من برودة الجو، ولا يفتأ يصعد فوق اللسان الخشبي الممتد لعدة أمتار داخل البحيرة ثم يقفز في الماء، أعجبها بنشاطه وحيويته فظلت تتابعه. في إحدى المرات صعد فوق اللسان الخشبي وجرى فوقه لعدة أمتار ثم طار في الهواء وقفز في الماء وغطس، في نفس اللحظة رأت على البعد قاربًا بمحرك يأتي مسرعًا من الناحية الغربية، وتوقعت أن يصل خلال ثوانٍ إلى المكان الذي يصعد عنده الصبي عادة بعد أن يقفز، قامت مسرعة تلوح لقائد القارب كي ينتبه، تعثرت قدمها في حجر فسقطت وارتطمت رأسها بشدة في القائم الحديدي الذي يركز عليه اللسان الخشبي عند الشاطئ فغابت عن الوعي.

عندما أفاقت وجدت نفسها نائمة على سرير في أحد المستشفيات ويحيط بها ثلاثة وجوه، الصبي برأسه المضمّد وأبواه، قالوا لها معًا «حمدًا لله على سلامتك». ما سمعته منهم بعد ذلك أغرب من الخيال.

قائد القارب ذي المحرك لمح إشارتها المحذرة له فاستطاع أن يتفادى الارتطام العنيف بالصبي، فقط احتك به فشجت رأسه، ولكن يبدو أن أثر الاحتكاك والمفاجأة التي روعت الصبي جعلاه يفقد الوعي، أو شيئًا شبيهًا بهذا، فقد كانت حالة عجز الصبي نفسه عن وصفها إذ قال لسارة «شعرت

برأسي يدور وفقدت القدرة على السيطرة على جسدي وغطست في الماء ولكنني كنت مدرّكاً لكل ما يدور من حولي، أو هكذا تهيأ لي. أدركت أنني أغرق، ولكن انعدمت مقاومتي تماماً حتى شارفت على الهلاك، وفي لحظة فاصلة، رأيت يدا تمتد من خلال الماء وتنتشلني عندما تفحصت في وجه صاحبتها كنت أنتِ». ثم استأنف الصبي سرد حكايته التي لولا أنها حدثت لسارة شخصياً ما صدقتها. قال الصبي «آخر شيء رأيته كان وجهك ثم غبت بعد ذلك عن الوعي وعندما أفقت كنت نائمة على هذا السرير الذي بجوارك ورأيتك مستلقية في سريرك هذا، وكنت سليمة تماماً ولا أثر لهذا الجرح الذي برأسك، شكرتك، فعلت وجهك ابتسامة رضا. سألتك كيف أرد لك الجميل، أجبتي بعبارة واحدة «اذهب لثلاجة الموتى». سمعت عبارتك تلك ثم غبتُ عن الوعي مرة أخرى. لا أدري متى أفقت، ولكن أول وجه رأيته عندما فتحت عيني كان وجه أمي، فسألته عن السيدة التي كانت نائمة في السرير الذي بجواري، فقالت: «لم يكن هناك أحد في هذا السرير، إنك منذ دخلت الغرفة وأنت بمفردك». صرخت فيها وقلت «لا بل كانت موجودة، السيدة التي أنقذتني»، قالت أمي «أبوك هو من أنقذك». تذكرت عبارتك «اذهب لثلاجة الموتى». فصممت على الذهاب للثلاجة، حاولوا منعي فأصررت، حاول الطبيب أن يثني عزمي بإخافتي من مشاهدة الموتى فازددت تصميمًا. في ثلاجة الموتى كان العامل المسؤول يتهيأ لإدخالك في أحد العيون، فطلبت الكشف عن وجهك، صرخت عندما رأيت هذا الجرح الذي برأسك وقلت مؤكداً أن هذه هي السيدة

التي أنقذتني أنا واثق من هذا، هدأت أُمِّي من روعي وقالت «هي فعلاً أنقذتك عندما لوححت لقائد القارب فاستطاع أن يتفادى الاصطدام بك ولكنها تعثرت ووقعت وارتطمت رأسها بقائم حديدي فماتت». حزنت حزناً عميقاً. هممنا بالانصراف وهم العامل المسئول عن الثلاجة بإيداعك بها، عندئذ سمعنا أنيناً صادراً من ناحيتك، عندما دققنا تأكدنا أنه منك، استدعينا الطبيب وقام بإسعافك وقال «لا أدري هل كانت ميتة بحق أم لا؟». المهم أنك أمامنا الآن بكامل صحتك. قالت والدة الصبي «لا أدري ماذا أقول؟ حمداً لله على سلامتك، أم هنيئاً لك ميلادك الجديد... على كلٍ، مرحباً بك في الدنيا مرة أخرى».

عندما انتهت سارة من سرد حكايتها كنت فاعرة الفاه من الدهول. انتظرت أن أعلق، فلم أستطع، ألجم لساني من شدة غرابة ما سمعت، كل ما استطعته أنني قلت:

– لقد كتب الله لك عمراً جديداً.

– هذا بالضبط ما فكرت فيه. لم كتب الله لي هذا العمر الجديد.

– وبرأيك لماذا؟

أننا في اختبار يا عمتي ويجب أن نجند كل إمكانياتنا ونستنهض كل حواسنا ونستلهم كل الإيجاءات لأجل اجتيازه بنجاح. فهذا الحادث وفي هذا التوقيت بالذات وأنا في شوق لأي يد تمتد لتنتشلني من الغرق في بحار الفكر وتعينني على اتخاذ القرار الصائب، وقد كان هذا الحادث هو هذه اليد.

- ربما.
- لكن حذار يا عمتي، أرجوك، فهذا الحادث الـ...، لا أعرف ماذا أسميه، الحادث القدري أم حادث ما وراء الطبيعة أو الإدراك. لم أخبر به أحدا، ولا حتى أبي أو أمي. هو سر بيننا.
- لم؟
- حتى لا يظن أحد أنه السبب وراء اعتناقي للإسلام.
- ولم يظنون ذلك.
- لأن المدهش في كل هذا أن الصبي، وبالطبع أسرته، كانوا مسلمين.
- آه... يا إلهي. أتقولين صدقًا.
- أقسم بالله يا عمتي.
- صمتُ قليلاً وحدثتُ في عينيها وقلت بنبرات تساؤلية ولكن تنم عن الإجابة في حاشيتها:
- ولكن ألم يكن هو فعلاً السبب وراء إسلامك؟!
- بالطبع كان له تأثير كبير ولكن ليس وحده. هو ساعد ولا شك على أن يتحد استنتاجي العقلي مع ميلي القلبي، فيكون اقتناعي بالإسلام دون غيره.
- لم؟
- لأنني على يقين بأن هذا الحادث لم يكن عفويًا.
- بالطبع، فهو مليء بالغموض وبعدم المنطق.
- تمامًا. وهذا جعلني أوقن أن هناك رسالة ما موجهة إليَّ في وقت بعينه.

- هذا لأن الصبي كان مسلمًا. فماذا لو كان يهوديًا أو مسيحيًا أو حتى
بوديًا.

- ولكنه كان مسلمًا.

- إذن فأيمانك بالإسلام نابع من داخلك، عن اقتناع.

- أكيد. والآن أشعر بالراحة والاطمئنان بعد كل هذا الصراع الذي
عانيت.

- أنا لم أكن مثلك. أنا كنت سأسلم إرضاء لمصطفى.

- إسلامي كان عن يقين. لكن لا شك أن بهاء كان له دور فعال. فهو
كان الجانب العملي في اقتناعي بسلوكه الملتزم المحلى بالأخلاق الراقية، وقد
أرجع ذلك لتعاليم دينه. في الحقيقة كان خير معين لي في التثبت من صحة
قراري. لم يقرن زواجنا بإسلامي، ولكن ترك لي حرية الاختيار... أحمد الله
فهو أيضًا رجل طيب وزوج صالح حنون.

- شوقطني لرؤيته.

- إن شاء الله في زيارتنا القادمة.

- متى؟

- في أقرب وقت...

هزرت رأسي غير مصدقة. فقالت:

- صدقيني يا عمتي.

موسى «موشيه»

باريس

لم ننم، أنا وداوود، إلا قرب الفجر، فقد قضينا ليلتنا - بفندق ماريوت الشانزلزيه - كل منا مستلق في فراشه. حيناً على ظهرنا نتطلع للسقف ونذكر أبانا وأمنا. وحيناً نذكر شقاوة الطفولة فيغالبا الضحك فنجلس متقابلين على حافة سريرنا نمسح دموعنا. وحيناً تداعبنا ذكريات ملاعب الصبا يقفز أحدنا إلى سرير الآخر كي نستشعر دفء تلاحم أجساد صبية يتلمسون الطريق نحو عالم الذكورة. ثم نضجع على جنبنا حين نستأنس بحديث عن فتوة شباب ولى. ظللنا نطارذ الذكريات والذكريات تطاردنا حتى أثقل النوم جفوننا فاستسلمنا لتسلله اللذيد غير آسفين على ما أضعناه من وقت ونحن نغالبه.

في الصباح، جلسنا في بهو الاستقبال بالفندق نحتسي القهوة، داوود في انتظار ولده أبراهام وصديقه طه وولده إياد، كي يستأنفوا مهمتهم التي بدءوها بالأمس، ويرفض داوود الإفصاح عن تفاصيلها، كل ما قاله إنها مهمة عمل. أما أنا ففي انتظار نعاما، زوجة ابني داني، التي عادت أمس

من بلدة أميان - الواقعة شمال باريس - بعد أن التقت أعضاء من جماعة «السلام الآن»، كي تقوم بالتغطية الصحفية لمؤتمر «سبل فض النزاعات بالطرق السلمية» الذي يعقد أولى جلساته غدًا.

بعد انصراف داوود بقليل، أتت نعما تدب الأرض بخطواتها الجادة مرتدية حذاءً رياضيًا وسروالًا بنيًا وسترة من الصوف أشبه بسترات العسكريين، ملمت شعرها للخلف وربطته بشريط مطاطي، ولم تكلف نفسها عناء وضع أي مساحيق تجميل على وجهها فبدت كجندي حضر لتوه من تدريب على كيفية قتال العدو. تعجبت من اختيار داني، ولكن كما يقولون «مرآة الحب عمياء». صادقها أثناء تأديتهما للخدمة العسكرية حيث كانا يخدما سوياً في نفس الفرقة، وتزوجا وهي حامل في شهرها الثاني.

مدت يدها لتصافحني وقالت وهي ترسم على وجهها ابتسامة باهتة:

- هاي مو، كيف حالك؟

- بخير.

- وداني وتسالا.

- داني كما تركته، يجري خلف ابنكما سوكاه. وتسالا كما تعلمين في غرفة الرعاية المركزة.

- آه مسكينة. يشفيها الرب... كم ستمكث في باريس.

ترددت قليلاً، بها أجيبها، فأنا حقاً لا أعرف، هل أخبرها بأنني مطارد، يقيناً أن داني أخبرها، ولكن لا طاقة لي الآن على مزيد من النقاش حول هذا

- الأمر، فاكثفت بقولي:
- حتى نهاية المؤتمر.
- ثم استدركت قائلاً:
- وربما أمكث لعدة أيام بصحبة صديقي عزيز.
- وترك تسالا.
- ها، تسالا، هي بخير الآن وحالتها تتحسن.. وأنت، متى تغادرين باريس؟
- بعد نهاية المؤتمر هناك لقاء آخر مع أعضاء فلسطينيين من جماعة السلام الآن، وبعدها سأغادر.
- فلسطينيون!
- نعم.
- تبحثون إذن خطيئتنا بحقهم.
- ماذا تعني؟
- أعني أن هذا تعبير عن أزمة الضمير حيال ما ارتكب ضدهم في الماضي... وربما الحاضر.
- قالت بتعجب:
- مو، نحن نبحث عن أنفسنا وليس عن الآخرين.
- لما رأت نعاما اندهاشي من قولها أوضحت:
- الكل يعلم ويرى التناقض الحاد الحادث في مجتمعنا والذي يدفع بنا لحافة الهاوية... لذا قادتنا يتعمدون حدوث حالة مستمرة من التوتر

مع جيراننا كي يحدثوا حالة التوحد المطلوبة داخل مجتمعنا لمواجهة الخطر الخارجي.

قاطعته قائلاً:

- ألا ترين أن ما تقولين يدفعنا لأن نبحت أولاً عن سلام إسرائيلي - إسرائيلي قبل أن نبحت عن سلام إسرائيلي - فلسطيني.

هذا بالضبط ما أعنيه. فهدفنا هو محاولة تحييد أو احتواء الجبهة الفلسطينية حتى تستقر أمورنا الداخلية. ترسانة الأسلحة التي نمتلكها والحروب التي خضناها لم تفلح في قمعهم هم وبقيّة العرب، فلا بد إذن من تغيير في الإستراتيجيات. القوة وحدها غير قادرة على حسم الأمور بصفة نهائية، هذا ما علمتنا إياه حرب 2006 والانتفاضات المتعاقبة.

- لا أستطيع فهمك يا نعاما. أأنت مع السلام أم ضده؟

- أنا مع السلام ولكن بطريقتنا. يجب أن يعلموا أن السبيل الوحيد للسلام هو التعامل معنا على أننا بلد صهيوني.

- أنتِ حتماً تدركين استحالة التعايش بين الصهيونية وأي عقيدة أخرى، فلم لا تكون إستراتيجيتكم مبنية على إقرار سلام حقيقي وإعطاء الفلسطينيين حقهم في إقامة دولتهم وأن تكون إسرائيل دولة لكل مواطنيها بدون تمييز.

- هذا حلم محال التحقق. لأنه ببساطة يعني نهاية دولتنا.

- معك حق، ولكن...

- لم أكمل، فقد تعلق عيون نعاما بباب الفندق، حيث وجه شابان

يرتديان الكوفية الفلسطينية الشهيرة، فلوحت لهما واستأذنت منصرفة في صحبتها حيث انضموا لرجل ثالث ينتظرهم بعيداً. عندما التفت هذا الرجل، أيقنت أنني رأيته من قبل ولكن أين؟ لا أتذكر. سار جميعهم متوجهين لخارج الفندق. في لحظة خروجهم ولجت من باب الفندق تحمل في يديها عددا من حقائب التسوق، تمنيت أن تلتفت تجاهي فأنعم بصحبتهما. انثنت بجذعي لليسار كي لا يحول هذا العمود الغبي بينها وبين رؤيتها لي، مرت موازية لي تماماً من دون أن تراني فقررت أن أنادياها: - ليليت.

أخيراً التفتت تجاهي، أشرق وجهها وهي تشير لي بيدها المحملة بحقائب التسوق وسارت متجهة إليّ. قلت باسمًا: - أرى أنك اشترت باريس كلها.

رفعت كلتا يديها لأعلى محرّكة الحقائق يمينا ويساراً وقالت: - ليس بالكثير، هذه أقل مرة أتسوق فيها، التخفيضات ليست مغرية. تفضلي بالجلوس.

- يسعدني هذا، ولكن سأصعد لغرفتي لأضع ما اشتريته وأبدل ملاسي.

أما زال أمامك وقت في باريس.

- نعم فالطائرة بها عطل استحال إصلاحه وسترسل شركة العال طائرة أخرى بديلة.

- هذا رائع، إذن فلتناول طعام الغداء سوياً، موافقة.

- موافقة.

- حمداً لله، وجدت صحبة تهون عليّ ما بقي من وقت حتى يحين موعد لقائنا في منزل عزيز.

~~~~~

تخلقنا حول مائدة الطعام في منزل عزيز فيما يشبه اجتماع المائدة المستديرة. أخرج أبو إياد مسودة التقرير الذي أعدته من جيب سترته الداخلي وقال وهو يعطيه لي:

- علمت بتفاصيل ما حدث لابنك من دافيد، إنها لمأساة يؤسف لها. فكرت في أمر كارت الذاكرة ملياً وأرى أن علينا أن نقوم بعملية استطلاع. - استطلاع؟! -

- نعم، للشقة التي كان يقيم بها ابنك دافيد هنا في باريس.

- أخيراً، ذاب جبل الجليد القائم بيننا، وها هو أبو إياد الفلسطيني يبدي استعداداه للمعاونة.

- ولكنني لا أعرف موقعها.

أجاب بنيامين، ابن عزيز:

- أنا أعرفها، فقد زرت دافيد من قبل عندما دعاني لتناول طعام العشاء.

فقلت متلهفًا:

- إذن هيا بنا.

~~~~~

دردنا دورتين، بسيارة عزيز، حول البناية التي تقع بها شقة دافيد. البناية تقع في منطقة هادئة، تعلو لثلاثة طوابق وتطل على شارعين، أحدهما من الأمام والآخر من الجانب الأيسر. شقة دافيد تحتل الجزء الأيسر من الطابق الأرضي من البناية، ومحاطة من واجهتها الأمامية واليسرى والخلفية بحديقة صغيرة يفصلها عن الشارعين سور من الحديد المشغول. الشقة لها مدخل خاص يقع إلى يسار المدخل الرئيس على نفس الشارع. أما الشارع الآخر، والأصغر نسبيًا، فيواجه الشقة على الجانب الآخر منه حديقة عامة بها عدد من الأسر التي ارتادتها للتنزه بصحبة أطفالها. الجانب الأيسر من البناية، الذي تقع به شقة دافيد، محاط من الخارج بشريط أصفر مما يعني أن الاقتراب محظور، كما يوجد شرطي يقف حارسًا لمدخل الشقة الخاص، وبين الفينة والفينة يدور حول سور الحديقة من الأمام ومن جانبا الأيسر. توقف عزيز بالسيارة في مكان الانتظار المخصص للحديقة العامة. ظللنا جميعًا صامتين متلفتين حولنا محاولين استكشاف موقع البناية وما حوله جيدًا. قطع أبراهام الصمت بقوله:

- هذه المهمة الاستطلاعية عقدت الموقف.

- لك الحق.

- شرطي، وسور حديدي، وشريط أصفر، وحديقة عامة. كيف ستمكن من دخول الشقة.

- أنا لا أريد دخول الشقة. فمما لا شك فيه أن من سبقونا إليها لم يدعوا فيها ثقبًا إلا فتشوه. أنا أريد تفقد خارج الشقة وليس داخلها.

- مازال الأمر عسيرًا.
- بالنسبة للحديقة العامة، فبإمكاننا الانتظار لما بعد العاشرة حتى تغلق أبوابها. والشريط الأصفر لا قيمة له.
- يتبقى السور الحديدي والشرطي.
- السور الحديدي هذا مهمتكم أنتم، الشباب.
- ماذا تعني؟
- شيوخ مثلنا لن نستطيعوا القفز ولن يحسنوا التسلق.
- نحن إذن من.....
- لا خيار أمامنا.
- لا يمكننا الإقدام على هذا في وجود الشرطي، هذه مخاطرة مصيرها السجن.
- يمكننا التحايل بجذب انتباه الشرطي لأي شيء.
- صمتنا جميعًا. كنت أفكر في كيفية جذب انتباه الشرطي لحين تمكن الشباب من تسلق السور الحديدي والقفز لحديقة الشقة. أما الباقون فلا أدري لما التزموا الصمت. أخيرًا أشار علينا إياد بأن نغادر المكان، فالساعة مازالت السابعة ولن نستطيع فعل أي شيء قبل العاشرة.
- في منزل عزيز تحلقنا حول منضدة الطعام فيما يشبه الاجتماع، محاولين البحث عن طريقة لدخول الحديقة.
- ترامى إلى سمعنا صراخ إلباهو ابن بنيامين فقلت لعزيز:
- اذهب لتتفقد حفيدك.

قال داوود:

- ليس حفيده وحسب بل كوهينه أيضًا.
 أثناء تفقد عزيز لحفيده، شرد أبو إياد قليلاً ثم قال:
 - كوهينه... كوهينه. هذا هو الحل. يعاود عزيز التنكر ويقوم بدور
 متشرد سكير ويغافل الشرطي.
 نظرنا لبعضنا البعض، ولم يعلق أحد، فقط تعلقت أبصارنا بالباب
 المفضي للغرف الداخلية انتظاراً لعودة عزيز.
 ما إن لاح طيف عزيز حتى انفجرنا جميعاً ضاحكين، فوقف ينظر إلينا
 بغیظ متلفئاً حوله باحثاً عن سبب ضحكنا.

~~~~~

قبل أن يغادر عزيز السيارة كان كل منا يحاول جاهداً أن يكتم ضحكاته،  
 بمجرد أن ابتعد بضع خطوات انفجرنا جميعاً في الضحك. ولكن ما إن بدأ  
 عزيز في أداء دور المتشرد السكير، إلا وخطف أبصارنا وانتباهنا إعجاباً  
 وانبهاراً بقدراته الفائقة على التقمص... ترنحه، عباراته المبهمة، نظراته  
 الزائغة، إطاحته بذراعيه في الهواء مقترباً بهما من وجه الشرطي... كأننا  
 أمام أنتوني كوين وهو يقوم بدور بومبوليني في فيلم «سر سانتا فيتوريا».  
 انشغلنا بمتابعته جعلنا نغفل عن البدء في تنفيذ مهمتنا الأساسية التي  
 جئنا من أجلها، حتى تنبه بنيامين وقال «أبي لن يصمد طويلاً ويجب أن  
 نتحرك».

غادر الثلاثة، أبراهام وبنيامين وإياد، السيارة وتوجهوا للشارع

الجانبى المواجه للحديقة العامة. ما إن تأكدوا من خلو المكان من أي أعين قد ترصدهم. إلا وقفزوا سريعًا من فوق سور حديقة البناية وصاروا بالداخل.

أكدنا عليهم بسرعة إنجاز مهمتهم، قبل أن تنهار قدرات عزيز في جذب انتباه الشرطي، لذا لم تمض سوى دقائق معدودة وعلا رنين هاتفي المحمول وجاء صوت أبراهام ليعلن أنهم فشلوا في العثور على أي شيء أو حتى التوصل لأي علامة ترشدهم لمكان كارت الذاكرة، بحثوا حول باب الشقة الذي تحيطه عدة صفوف من حجر الجرانيت ووجدوا أن جميعها مثبتة جيدًا، فتشوا خلف أصص الزهور، وفي كل زوايا الحديقة، ولكن دون جدوى. أسقط في يدي وخرج صوتي مبحوحًا يائسًا وأنا أقول «إذن فلتعودوا». طلبوا منا أن نتأكد بأن الطريق خالٍ، تلفت مستكشفًا المكان ولما أيقنت خلوه أبلغتهم.

كانت إشارتنا المتفق عليها مع عزيز، والتي تعني انتهاء المهمة، هي أن نمر بالسيارة من أمامهما، هو والشرطي، وعندما يرانا عليه أن يتحرك مبتعدًا إلى حيث سنتنظره في الشارع الجانبى. دار بنيامين بالسيارة حول المربع الذي تقع به البناية وعندما صرنا أمامها فوجئنا بعزيز نائم على الأرض والشرطي يحاول أن ينهضه وهو يقاومه. تقمّص عزيز واندماجه في أداء دور السكر من أن يلحظ أننا مررنا من أمامه. فقال بنيامين:

– ماذا أفعل؟

أجبتة:

– در حول البناية مرة أخرى.

فعاود بنيامين الكرة، وجدنا عزيز مازال ملقى على الأرض والشرطي يدفعه بيده. في هذه المرة لم ينتظر داوود، ومن مقعده بجوار بنيامين، مديده وضغط على منتصف مقود السيارة فانطلق صوت بوقها المزعج. تنبه عزيز والتفت بحرص ناحيتنا، ثم استجاب لطلب الشرطي ونهض ببطء وهو يدفع بيد الشرطي بعيداً عنه وسار مترنحاً متوجهاً للشارع الجانبي وهو يرفع عقيرته بالغناء.

فَشَلْنَا في حل لغز اختفاء كارت الذاكرة أصابني بإحباط شديد، فبت ليلتي مؤرقاً مشغول البال. نمت وصورة دافيد وزوجته وابنته مذبوحين ومضرجين في دمائهم لا تفارق مخيلتي. والكوايس المزعجة ظلت تطاردني طوال الليل.

\*\*\*\*\*



## داوود «دافيد»

### باريس

- أوافق أنت من صديقك هذا يا أبراهام.
- أبراهام ثانية يا أبي!
- بينو... بينو، لا تتبس.
- ألم تشاهد بنفسك أوراق الشرطة الرسمية التي تفيد بأن السيد طه وابنه إياد تعرضا لعملية سطو وتمت سرقة جوازي سفرهما، وصدرت إفادة الشرطة الموجهة للسفارة الإسرائيلية تحمل اسميهما الجديدين، السيد نعموم موسينوف، والسيد فيناس نعموم موسينوف. ومع الإفادة خطاب رسمي من إدارة الجوازات تفيد بدخولهما الأراضي الفرنسية منذ خمسة عشر يومًا قادمين من تل أبيب. مع أننا قدمنا إلى باريس من نيويورك ومنذ أربعة أيام فقط.
- نعم، نعم...
- وأتممت قائلًا بحسرة:
- ورأيت أيضًا الخمسة آلاف يورو التي امتدت يد صديقك لتأخذها.

- أبيت قلت لك من البداية إن الأمر ليس هيناً وسوف نتكبد الكثير من المال.

- ظننت أن الأمر كله لن يتعدى العشرة آلاف.  
 - كانت تلك مجرد تقديرات، ولكن في الواقع الأمر يختلف.  
 - لك الحق، على كلِّ الأمر يستحق... لكن ليس هذا ما كنت أسألك عنه. وإنما أسألك عن صديقك الذي يعمل في سفارة إسرائيل.  
 - لقد تسلم إفادة الشرطة منذ يومين، وأرسلها لإسرائيل، واليوم أخبرني أن صديقه الذي يعمل في القسم الخاص بشئون المهاجرين بوزارة الداخلية الإسرائيلية أدرج الاسمين الجديدين في قاعدة البيانات الخاصة بجهاز الحاسب الآلي للوزارة. وكذلك في الحاسب الآلي الخاص بوزارة الاستيعاب والهجرة وبهذا صار كل من السيد طه وابنه إياد مواطنين إسرائيليين هاجرا من روسيا لإسرائيل في عام 2007، كما أدرج اسميهما على قوائم المغادرين من تل أبيب إلى باريس منذ خمسة عشر يوماً.  
 - عظيم، ولكن كم تكلفت تلك الخطوة.  
 - عشرة آلاف دولار، فتلك أهم خطوة.  
 - يا إلهي.

ضربت كفاً بكف حسرة على كل تلك الأموال المهدرة، وأدرت وجهي لنافذة قطار الأنفاق الذي نستقله، متطلعاً للخارج محاولاً استعادة هدوئي. التقطت أنفاسي، ثم استدرت ثانية لأبراهام وقلت:  
 - وماذا بقي الآن؟

- ها نحن متوجهين لمقر السفارة الإسرائيلية لتسلم جوازي السفر الجديدين.

- وسندفع أيضًا؟

- بالطبع.

- كم؟

أجاب بصوت مبحوح متردد:

- خمسة آلاف يورو أخرى.

ثم أسرع مطمئنًا:

- ولكن ليس الآن، فالآن سنتسلم جوازي السفر بطريقة رسمية من السفارة. وفي المساء سنقابل جدعون ليتسلم المبلغ المتفق عليه ويسلمنا الصورة الرسمية من إفادة الشرطة بضياع جوازي السفر بعد أن يتم توثيقها من السفارة الإسرائيلية، فقد احتفظ بها كي يضمن حقه.

- وما فائدة تلك الإفادة.

- هذه مهمة جدًا أثناء دخولنا لإسرائيل، لأنه لا توجد تأشيرة خروج

على جوازي السفر الجديدين.

- آه، فهمت، وأين سنقابل السيد جدعون.

- في مقهى «فوكيه» الواقع بشارع الشانزلزيه.

قلت لائتمًا:

- ألم تجد سوى هذا المقهى.

- وماذا به.

- الأسعار فيه خيالية.
- جدعون هو من اختار هذا المكان.
- إذن فليدفع هو قيمة ما سنتناوله.
- أرجو ذلك.
- حاولت أن أبدو متماسكًا وتساءلت:
- هل بقي شيء آخر؟
- لا تلك آخر خطوة، بعدها نتوجه لإسرائيل وقتما نشاء.
- تنفست الصعداء وأدرت وجهي للنافذة مرة أخرى.
- لا أدري لم أصر طه على جوازات سفرٍ إسرائيلية. كان بإمكانه إصدار جوازات سفرٍ لهما على أنهما يهوديان أمريكيان برقع هذا المبلغ.
- صعدنا من محطة مترو الأنفاق إلى شارع الشانزلزيه، قطعنا نحو مئة وخمسين مترًا سيرًا على الأقدام، مررنا خلالها بميدان كليمنصو ثم انحرفنا لشارع رابليه حيث يقع مقر السفارة الإسرائيلية.
- تم اختيار مقر السفارة بعناية، فشارع رابليه ضيق، تسهل السيطرة الأمنية عليه. وضعتُ الحواجز في أوله، حيث يتم تفتيش جميع المارة أو راكبي السيارات، وعلى الجميع إبراز هويتهم، وتبرير الغرض من عبور الشارع، وكذلك الهدف من زيارة السفارة.
- بفضل إفادة الشرطة التي يحملها طه وإياد لم يجدوا صعوبة في عبور تلك الحواجز الأمنية. وأخيرًا صرنا، نحن الأربعة داخل مقر السفارة.
- كانت القاعة المخصصة للتعامل مع الجمهور مكتظة بالناس، لم أجد

مقعداً خالياً لأجلس عليه، فأشار أبراهام إلى غرفة جانبية وطلب مني الانتظار بها ريثما ينتهون من إجراءات تسليم جوازي سفر طه وإياد.

الغرفة متوسطة الحجم، رصت بها مقاعد للانتظار بموازية جدرانها الأربعة، في مواجهة بابها هناك نافذة مغلقة، ستائرهما مسدلة. أزحت الستائر لأتطلع خارجها فوجدتها مطلة على شارع رابليه. الرؤية بالخارج محدودة، فالشمس لم تبدد بعد الضباب الكثيف الذي يلف البنايات ويهبط للشارع ليحيط المارة كما لو كان يعزل كل واحد داخل مغلف خاص به، فبدأ الناس بمعاطفهم الداكنة كأشباح تسير وسط السحاب. انقبض قلبي وشعرت بالضيق. فأعدت الستائر، وتلفت حولي فوجدت مقعداً خالياً موازياً للجدار القائم على يمين الداخل للغرفة.

حاولت القضاء على توتر الانتظار بإطلاق العنان لخيالي لتقدير قيمة كنز أبو طه. صندوق خشبي كبير مليء بالعملات الذهبية الأثرية. لا بد أن قيمتها لا تقدر بثمن. سأبيع نصيبي كبير مليء بالعملات الذهبية الأثرية. لا بد أن قيمتها لا تقدر بثمن. حتى لو بعثتها بثمن أقل من قيمتها، قليلاً، فلا بأس. فتحويل أموال للخارج أسهل من الخروج بقطع أثرية. يا الله، سأتجاوز أزميتي المالية وأستطيع البدء من جديد... ولم أبدأ من جديد، فلأتقاعد وأستمتع بشروتي.

وأنا غارق في أحلامي دخل طه وإياد الغرفة متلفتين باحثين عني، فأشرت إليهما محملاً وجهي بما استطعت من تعبير ينم عن قدر التساؤل الذي بداخلي «هل وفقتم في مهمتكم؟». بحثت داخل عيونهما وتعبيرات

وجهيهما فلم أجد ما يريحني. برز خلفهما أبراهام بخطوتين، فعلقت عيناى بعينه، فرأيت البشرى تملؤهما ورفع يده ملوحًا بجوازي السفر ، كدت أقفز من فوق مقعدي مهللًا من الفرحة.

فجأة، اقتحم الغرفة رجل في الثلاثينيات من عمره ذو ملامح عربية، دفع أبراهام من الخلف بقوة فارتطم بظهري وإياد ثم طاح واقعًا على الأرض. هممت بالقيام لمساعدته، فأمسك بي ومنعني الرجل الجالس بجواري، عندما التفت إليه معاتبًا وأنا أقول «هذا ابني»، فأشار للمقتحم، فوجدته أخرج مسدسًا من جيب سترته وأخذ يصرخ في الجميع صائحًا باللغة الإنجليزية ولكن بلكنة شرق أوسطية «فلينبطح الجميع أرضًا». وبسرعة شديدة التفت وأغلق باب الغرفة. ثم استدار إلينا وعندما رأى البعض يتقاعس في تنفيذ أوامره، أطلق رصاصة في الهواء ثم وضع قدمه فوق ظهر أبراهام وقال بعصبية «إذا لم تنفذوا أوامري ستكون الرصاصة الثانية في رأسه». انصاع الجميع لأوامره وانبطحنا أرضًا.

مرت دقيقة أو ربما نصف دقيقة، لكنني شعرت أنها دهر، شل تفكيري خلالها. فابني ملقى أمامي على الأرض، قدم هذا الإرهابي تضغط ظهره بشدة وفوهة مسدسه موجهة لرأسه، وأنا منبطح، عاجز عن فعل أي شيء.

فتح المقتحم أزرار قميصه، وأشار إلى حزام عريض يرتديه حول صدره وقال:

- هذا حزام ناسف، إذا حاول أي أحد منكم الإتيان بأي حركة

- مفاجئة فلن أتردد في ضغط هذا الزر وتفجير نفسي وأنتم معي .
- ظل يحملى فينا بنظرات زائغة، ثم أشار لأحد المحتجزين وقال:
- أنت .
- أنا .
- نعم أنت، أخرج هاتفك الجوال واتصل بالشرطة .
- هم الرجل بمد يده إلى جيب معطفه الداخلي، فصرخ فيه قائلاً:
- لا، لا انتظر...
- ثم أشار لسيدة أخرى وقال:
- بل أنت، أعطني جوالك .
- ترددت السيدة، فصرخ بها:
- أسرع .
- أجهشت السيدة بالبكاء، فراجع عن طلبه وقال:
- لا أريد جوالاً .
- ثم ألقى نظرة علينا جميعاً، ثبت عينيه تجاهي ثم قال:
- أنت .
- نعم .
- ألقي إليّ بحقيبة صغيرة يمسكها بيده اليسرى وهو يقول:
- التقط تلك الحقيبة وافتحها، ستجد بها مظروفاً كبيراً، أخرج ما به
- من أوراق ووزع منها نسخاً على كل الحاضرين، وما تبقى، افتح النافذة
- وألقي به للشارع ثم أغلق النافذة ثانية .

اتبعت تعليماته حرفيًا، ثم جلست أقرأ ما بالورقة. فإذا بها تتصدرها صورة بشعة لجسد طفل صغير وقد أتت النار عليه تمامًا فتفحم ومحيت معالمه. ومكتوب تحت الصورة «هذه صورة ابنتي، سكب الجنود الإسرائيليون مادة حارقة فوق جسدها النحيل وأضرموا فيه النيران أمام عيني».

مرت دقيقة والكل يتأمل الصورة، علا صوت بكاء النساء الثلاث الموجودات.

رفع أحد الرجال رأسه وقال له:  
- جميعنا نقدر محتتك، ولكن ما هي طلباتك، ماذا بوسعنا أن نقدمه إليك.

- من أنت.
- أنا دانيال دي بواسون، صحفي بجريدة ليبراسيون.
- ماذا كنت تفعل لو كانت هذه الصورة لابنتك.
- لا يكفيني فيها العالم بأسره.
- إذن آتني بالعالم بأسره.
- ولكن يا سيد... لم تقل لي ما اسمك؟
- عماد.
- متى حدث هذا لابنتك يا سيد عماد؟ وما السبب؟
- متى، أثناء العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة منذ أكثر من عام. أما لماذا، فلا أدري.

- إذن فكيف؟

- وجه السيد عماد نظراته إلينا جميعًا. ولكنه لم ينظر لأحد منا، كأننا أراد توجيه كلامه للعالم بأسره.

حدث قصف مدفعي عنيف للحبي الذي نقطنه في قطاع غزة، ثم سمعنا صوت طائرات هليكوبتر تحلق فوقنا ورأينا عددًا من الدبابات والعربات المصفحة تحاصر الحبي.

السيد عماد، وهو يروى حكايته، بدا وكأنه يغيب عما حوله، كما لو كان عاد ليعيش لحظات الاعتداء عليهم. وضع أصبعه في أذنيه كأنه يقيهما من أصوات الانفجار المدوية، وتطلع بنظرة لأعلى كما لو أنه يشاهد طائرات هليكوبتر تحلق فوقه. ثم عاد للخلف خطوتين وألصق ظهره بباب الغرفة سادًا إياه كمن يحاول منع اقتحامها وهو يقول:

في لحظات حدث إنزال جوي لجنود إسرائيليين فوق الأسطح. ثم اقتحم جنود المشاة بيتي، واقتادوا أفراد عائلتي كلهم إلى بيت ابن عمي جمال. هناك وجدتهم قاموا بجمع أفراد كل عائلاتنا، أكثر من مئة رجل وامرأة وطفل وشيخ وعجوز. ثم أشاروا لنا، أنا وجمال ووائل، وأمرونا بخلع ملابسنا، بالطبع انصعنا لأوامرهم، ففوهات مدافعهم الرشاشة كانت موجهة لرؤوس الجميع. أبقينا على ملابسنا الداخلية، فأشاروا لنا بما يعني أننا يجب أن نخلعها أيضًا، عندما ترددنا، انتزعوا ابنتي من حضن أمها وسكبوا السائل الحارق فوقها وهددونا بإشعال النار فيها إذا لم نمثل لأوامرهم. نزعنا ملابسنا الداخلية صاغرين، وصرنا عراة تمامًا

أمام نسائنا وبناتنا.

قال جملته الأخيرة تلك وهو يضع يديه أمامه كأنه يداري عورته. عندئذ تعالت التعليقات من المحتجزين «همج، برابرة، وحوش»، وأخرجت النساء مناديل ورقية وبدأن في تحفيف دموعهن. فقال السيد عماد مستأنفاً:

- انتظرن، وادخرن مناديلكن، فأنتن لم تسمعن شيئاً بعد.

فقال السيد دانيال:

- كفى رحمة بهن.

أترى سيد دانيال، هذا من مجرد السمع فما بالك إذا حدث ذلك لك ولأهلك. يجب أن تسمعوا جميعاً، وأنت بالذات، أأنت صحفي، إن كنت شريفاً حقاً وصل صوتي للعالم أجمع.

ثم عاود النظر للاشيء واستأنف حديثه:

- قام أبي محاولاً الاعتراض، فأمطره الجنود بوابل من الرصاص فخر صريعاً على الفور.

عندئذ ارتجت نبرات صوته وتسارعت وتيرة سرده لحكايته وهو

يقول:

- صرخت أُمِّي ولطمت خديها وشقت ثيابها وألقت بنفسها فوق جثة

أبي، هم الجميع بالثورة.

ثم قال وهو يضع يديه فوق رأسه ليقبها:

- فأمطرونا بوابل من الرصاص فوق رؤوسنا، فراجع الجميع،

أصابته إحدى الرصاصات ابنة خالي زينب، فسقطت مغشياً عليها وهي تنزف بغزارة.

أضفى على صوته نبرات الرجاء والمسكنة وهو يقول:

- رجوناهم استدعاء الإسعاف فرفضوا، ماتت المسكينة خلال دقائق، وعجزنا جميعاً عن فعل أي شيء لنجدها.  
صمت قليلاً كأنه يتذكرها، ثم استأنف:

- عندئذ تلقى أحد الجنود اتصالاً على جهاز اللاسلكي الذي يحمله، يبدو أنها كانت أوامر بسرعة إخلاء المكان، إذ إنه بمجرد انتهاء الاتصال أشار لبقية الجنود كي يغادروا المنزل... ولكن قبل أن يغادروا أخرج أحدهم سيجارة وأشعلها وألقى بعود الثقاب فوق ابنتي، فاشتعلت بها النيران، وأتت على جسدها الصغير في ثوان، حاولنا إطفاء النيران المشتعلة والصغيرة تصرخ، فلم نستطع... حتى توقف صراخها.

توقف المسكين عن السرد وقد علا صوت نحيبه، قامت إحدى السيدات وأعطته منديلاً ورقياً. جفف دمه والتقط أنفاسه واستأنف:

- لهذا السبب أقول المادة أو السائل الحارق، ولا أقول كيروسين أو بنزين، لأنها كانت لا تنطفئ أبداً مهما حاولنا... لم تمر أكثر من دقيقة واحدة بعد رحيلهم، حتى إنني لم أكن ارتديت سوى ملابسى الداخلية، سقطت بعدها ثلاثة صواريخ فوق المنزل، طحت بعيداً، تهاوى الركام فوق رؤوسنا وملأ الغبار الجو فما عدت قادراً على الرؤية أو التنفس... انطلقت بعدها مذعوراً أفتش في كل مكان مستطلعاً ما أصاب الآخرين.

أحمد وطارق وعدنان، وجدت الأطفال الثلاثة يحتضن بعضهم بعضاً وقد فاضت أرواحهم لبارئها. في ركن الغرفة وجدت جثة مكومة، قلبتها فإذا به عمي رضوان وقد خرجت عيناه من محجريهما ولكنه كان مازال حيّاً يئن، ثوان ولفظ أنفاسه. بجواره وجدت جثة أمي عدلت رأسها فلم أصدق ما رأيته، نصف وجهها غير موجود.

كاد المسكين أن يتهاوى على الأرض وهو يتذكر مشهد أمه، فوضع يديه أمام عينيه كأنه يريد أن يداريها عن هذا المنظر الرهيب:

- عندئذ علا صوت مكبرات الصوت تأمرنا بمغادرة المنزل. حملت جثة أمي وخرجت، اقتادونا إلى بيت آخر، وفي الطريق طلب مني أحد الجنود أن ألقي بجثة أمي قائلاً: «ارمها يا ابن الزانية» فرفضت. ففتحوا نيرانهم تجاهنا، فسقط عدد منا. جمعونا في بيت عمي الأكبر، أبو نضال. ثم غادر الجنود، وهذا كل شيء. حاولنا الاتصال أكثر من مرة بالإسعاف أو بالصليب الأحمر، ولكن كانت الإجابة دائماً: «لا نستطيع الوصول إليكم، الجنود يمنعوننا». ظللنا هكذا حتى صباح اليوم التالي، أختي فاطمة ظلت تنزف بين يدي حتى ماتت، مات أيضاً عادل ووجيه ووفاء وغيرهم متأثرين بجراحهم، أحصينا عدد القتلى فوجدناه تجاوز الثلاثين... تدخل السيد دانيال ثانية:

- سيد عماد جميعنا نقدر مدى الجرم الذي ارتكب في حقكم، ولكن ماذا نستطيع أن نفعل.

- لا، لا أحد يقدر ما حدث لنا، وإلا فلماذا سكتتم.

- وماذا تريد الآن.
- أريد استدعاء كل من تلطخت يده بدماء أهلي.
- من تقصد؟
- أريد استدعاء أولمرت، ننتياهو، أشكنازي، أوباما، بوش، ساركوزي، محمود عباس، كل الحكام العرب، أريد القاضي جلادستون، أريد مجلس الأمن...
- ثم تراجع للخلف وألصق ظهره بالجدار وهو يقول:
- أريد بلفور، بن جوريون، شارون... أريد إبراهيم ويعقوب وإسحق وموسى.
- خارت قواه، فبدأ يتهاوى إلى الأرض وهو مازال يهذي:
- أريد ابنتي ليلي، أريد أبي، أمي، أختي فاطمة، أريد أحمد، طارق، عدنان... أريد الحق، أريد العدالة..... أريد الله.
- عندئذ كان قد انهار تمامًا وسقط على الأرض مكومًا جسده، لاصقًا ظهره بالحائط، واضعًا رأسه بين ركبتيه وهو يهذي بكلام غير مفهوم. سقط المسدس من يده، فالتقطه أحد الموجودين وصوبه تجاهه.
- حبسنا جميعًا أنفاسنا، منتظرين ما سوف يفعله الرجل الذي التقط المسدس. وتوجهت أنظارنا لعماد خشية أن يضغط على زر حزامه الناسف فيفجرنا جميعًا. ولكنه ظل ساكنًا ولم يرفع رأسه.
- خيمت لحظات من السكون. وفي لحظة خاطفة مد إياد يده وضرب ساعد الرجل الذي التقط المسدس فأسقطه من يده وأخذه هو. صحت

من داخلي «إلهي سيكشفنا هذا الأحق، سيعرفون أن إياد فلسطيني إذا دافع عن عماد». مرت لحظات رهيبة، لم يقطعها سوى صوت إحدى المحتجزات:

- لا تطلق النار عليه، فقد يفجر هذا الحزام الناسف.  
نظرت لطفه، فوجدت عيونه معلقة بإياد، الذي هم بالتحرك في اتجاه عماد. أردت تدارك الموقف سريعاً فوجهت كلامي لإياد:  
- هات، هات المسدس لا داعي لقتله فهذا المسكين مات منذ زمن.  
أخذت المسدس، قلبته في يدي، ثم أطلقت ضحكة عالية، فنظر الجميع إليّ بدھشة، بددتها بقولي:  
- هذا المسدس مجرد لعبة بلاستيكية تحدث صوتاً عالياً وحسب.

أحد الرهائن قال:

- وماذا عن الحزام الناسف.  
نظرت لعماد، فوجدته مازال واضعاً رأسه بين ركبتيه، وكأن كل ما يحدث لا يعنيه في شيء. فمددت يدي ورفعت رأسه، فنظر إليّ بعينين منكسرتين، ورفع يديه لأعلى دليلاً على الاستسلام. فمددت يدي وفككت الحزام، فإذا به هو الآخر مجرد لعبة بلاستيكية. فقلت:  
- هذا ما يفسر كيف عبر كل نقاط التفتيش.

التقط الجميع أنفاسهم، وبدأ على ملاحظهم علامات الارتياح، واسترخت أجسادهم المتحفزة، واستعاد كل واحد رباطة جأشه، وحاول

الكل أن يبدو بمظهر القوي الذي لم يهزه الحدث.  
فقال الرجل الذي التقط المسدس:  
- ما هذه الأعمال الصببانية، لم تكن لتجني أي شيء من وراء فعلتك  
تلك.

وقالت امرأة:  
- هكذا أنتم أيها العرب، إرهابيون.  
فقال السيد دانيال:  
- عرب، نعم هو عربي، فماذا عن تحقيق شخصيته، كيف سمحوا له  
بالمرور وهو فلسطيني.  
فمد عماد يده لجيب سترته الداخلي وأخرج جواز سفره وألقاه أمامي.  
فتحتة متصفحاً، ثم قلت مندهشاً:  
- جواز سفر ك يثبت أنك إسرائيلي!

فأجاب:  
- بخمسة آلاف يورو يمكنني أن آتيك بعشرة مثله.  
«آه، يريد صديق أبراهام خداعنا، يطلب خمسة آلاف من أجل جوازين  
اثنين فقط. سأنبه على أبراهام ألا يعطيه أكثر من ألفين... ذلك اللص»  
قالت إحدى السيدات:

- فلنستدع الشرطة سريعاً كي يلقوا القبض عليه.  
فأجابها طه بقوله:  
- حنانيك يا سيدتي، فالمسكين أصبح لا حول له ولا قوة.

هم الرجل الذي أخذ المسدس أولاً أن يتكلم، فلم يمهلہ الصحفي السيد دانيال، إذ قال:

- أيها السادة، ماذا حدث؟! منذ دقائق تعاطفنا جميعاً مع هذا البائس. فما الذي انتابكم الآن؟ ألا أنكم أحسستم بزوال الخطر عنكم عدتم جميعاً لطبيعتكم؟ أنبكيه قليلاً ونرت على كتفه ثم نتركه! لو تركتموه جميعاً، فلن أتخلي عنه أنا.

أطرق الجميع خجلاً. وكأن هناك من نبههم لإنسانيتهم. فقالت إحدى السيدات:

- ماذا سنفعل الآن؟

لم يجيبها أحد. وظللنا نحملق في بعضنا البعض، فقال دانيال:

- دعونا نتفق أولاً، هذه السيدة.

وأشار لإحدى الموجودات:

- نعت السيد عماد بأنه إرهابي، من كان منكم موافقاً، فليبد رأيه مبرراً إياه.

صمت الجميع، فقال السيد دانيال:

- أظن أننا جميعاً، بعد الذي سمعناه، نعرف جيداً من هو الإرهابي.

فلم يعقب أحد، إذ يبدو أنه لم يكن هناك إسرائيلي بين الحضور،

فاستأنف الصحفي السيد دانيال:

- لقد خذل العالم أجمعه ذلك المسكين. فعلى الأقل ننصفه نحن.

- وماذا نستطيع أن نفعل؟

- نوصل صوته لكل الدنيا ونقف بجانبه ونمنع إدانته.
- كيف؟
- أولاً يجب أن نخرجه من هنا سالمًا.
- وثانيًا.
- ثانيًا، يجب أن نبلغ صوته للعالم أجمع، يجب أن تصل قضيته لكل الشرفاء. فبأس هذا البائس من العدالة هو الذي دفعه لما أقدم عليه.
- ولكن كيف نحقق كل هذا.
- أنا من سيتبنى إيصال صوته للعالم كله. أما خروجه من هنا سالمًا فمستوليتنا جميعًا.
- ما هذا الهراء، فلنستدع الشرطة وتتولى هي أمره.
- صبرًا سيدي، هذه سفارة إسرائيل، وجميعنا يعرف ما سيحيق بهذا المسكين من مصير أسود.
- فماذا نفعل إذن؟
- ليس لدي خطة محددة، ولكن فليبدأ هو بإجراء مفاوضات مع الشرطة كي نكسب بعض الوقت للتفكير.
- نظر إليه السيد عماد وقال:
- ماذا أقول لهم.
- شرد السيد دانيال قليلًا يفكر، ثم نظر إلينا كأنه يعدنا وقال:
- نحن عشرة، فهل هناك أي معترض على رسم خطة كي ينجو السيد عماد.

تلفتُ محصياً الجميع، بالفعل نحن عشرة، أنا وأبراهام وطه وإياد، والسيدات الثلاث، والسيد عماد والسيد دانيال وهذا الآخر الذي التقط المسدس عندما سقط من يد السيد عماد. مرت لحظات، ولما لم يعلن أحد عن اعتراضه، أكمل السيد دانيال ناظرًا لعماد:

عليك أن تبلغ الشرطة أنكم ثلاثة، وأن عدد الرهائن... عشرون مثلاً. لا بد سيسألونك إذا كان هناك مصابون، ستقول لا، فقط هناك إحدى السيدات فاقدة للوعي، وهناك رجل يبدو أنه مصاب بالربو ويلتقط أنفاسه بصعوبة بالغة.

ثم نظر لإحدى السيدات وقال:

- سيدتي، قبل اقتحام السيد عماد الغرفة رأيتك تخرجين من حقيبتك بخاخا من ذلك الذي يستخدمه مرضى الربو، هل يمكننا استعارته.

- لا مانع.

- هل أنفاسك جيدة الآن أو هناك أي صعوبة.

- لا بل جيدة.

لزيادة الاطمئنان. أرجوك استخدمني البخاخ مرة أخرى لأننا سنفرغه بالكامل.

- لم؟

- لأن السيد عماد سيقول للشرطة إن مع المريض بخاخ خاص بمرضى الربو ولكنه نفذ. سيطلب رجال الشرطة من السيد عماد إطلاق سراح السيدة الفاقدة للوعي والسيد المصاب بالربو، وعندما يوافق، سيطلع

رجال الشرطة أكثر، ويطلبون منه إطلاق سراح كل النساء والشيوخ. فيوافق.

ثم التفت إليّ أنا وطه وقال:

- معذرة، أعرف أنكما تَحملان قلب شاين ولكن هكذا نستطيع تنفيذ الخطة، فأنتما والثلاث سيدات يمكننا إخراجكم ومعكم السيد عماد، فهو سيؤدي دور مريض الربو، وبفضل جواز سفره الإسرائيلي، سينقل للمستشفى ومن هناك يمكنه أن يتسلل ويفر، ومن ثم يغادر فرنسا على الفور. يتبقى أربعة...

عندئذ تدخل أبو إياد وقال:

- لا، لا أستطيع ترك ابني فطائرنا ستقلع بعد خمس ساعات. فقلت:

- وأنا كذلك، لا أستطيع ترك ابني، وقد يتهمونه بأنه هو الإرهابي. قال الصحفي:

- أيها السادة أنتم تعقدون الأمور.

أجبنا في صوت واحد:

- لا بد من خروجهما معنا.

وأضاف الرجل المتبقي.

- وأنا كذلك يجب أن أغادر.

فقال هازئاً:

- وأتبقى أنا وحدي... لا بأس، لن أتخلي عن السيد عماد، وسوف

أجد الطريقة التي نستطيع من خلالها إخراجكم جميعًا. فلنعيد رسم خطتنا.

- كيف.

فليكن السيد - وأشار لمن التقط المسدس - هو من سيفقد الوعي، فيخرج مع الشيخين والسيدات. ولا بد لأحد من حملة أثناء خروجه، فليقوم السيد - وأشار لإياد بحمله، وهكذا يخرج مع الخارجين. ولتكن أيضًا هناك إصابات - وأشار لأبراهام - هل توافق أن نحدث بك إصابة طفيفة.

اعترضت بشدة ورفضت أن يصاب أبراهام بأي سوء. فتطوع إياد قائلاً:

- إذن فلنتبادل الأدوار، فليقوم هو بحمل السيد الفاقد للوعي، وأنا من تحدثوا به الإصابات، فأحرى بي أنا أن أساعد السيد عماد. فتسأل السيد دانيال:

- لماذا؟

ارتبك إياد ولم يعرف بماذا يجبه. فتدارك والده الموقف وقال: أيها السادة، نحن إسرائيليان، ولكننا من جمعية تدافع عن حق الفلسطينيين في الحياة الكريمة وأن يكون لهم وطن مستقل، لذا رأى ابني فيناس أن من واجبه، تطبيقاً لمبادئه، أن تكن له تلك الخطوة الإيجابية، وأنا أوافق... ولكن كيف سيتم إحداث إصابة به. فالتفت السيد دانيال لإياد وقال:

- معذرة سيد فيناس، تحمل هذه الضربة.
- افعل ما تشاء... هيا لا تتردد.
- أدرت أنا وطه وجهينا، ثم سمعنا صيحة ألم أطلقها إياد، فأدركنا وجهينا فكانت رأسه مشجوجة والدم ينزف بغزارة، سارع طه وأخرج منديلاً من جيبه وضغط به موضع الجرح وهو يقبل ولده ويربت على رأسه بحنان لم أر له مثيلاً وعيناه مبللتان بالدموع. اعتذر السيد دانيال، فقال إياد:
- لا عليك. المهم أن ينجو السيد عماد.
- اعتبره قد نجا. اتفقنا، هكذا ستخرجون جميعاً.
- فسألت إحدى السيدات:
- هكذا كلنا خرجنا، وأنت يا سيد دانيال؟
- أنا سأبقى بعد خروجكم لأفاوض رجال الشرطة وكأني أحد الإرهابيين كي أعطيهم قدر الإمكان، وسأنتظر حتى يتصل بي السيد عماد ويخبرني أنه على متن الطائرة المغادرة لباريس.
- فقالت السيدة:
- أنا أعمل في شركة سياحة، وسأعمل على إيجاد تذكرة للسيد عماد على أول طائرة مغادرة للبلد الذي يرغب في السفر إليه.
- عظيم.
- ولكن ماذا ستفعل أنت بعد ذلك.
- سيدتي أنا صحفي مشهور، وأستطيع بسهولة الخروج من هذا المأزق، عدة اتصالات، بعض المساومات مع رجال السفارة، التهديد

بإفشاء بعض الأسرار... وينتهي كل شيء.

- ونحن أَلن يحققوا معنا.

- من حقكم أن ترفضوا أي كلام. وتتحجبوا بها واجهتموه من خوف وذعر. وبعد فرار السيد عماد، تكلموا كيفما تشاءون، فليس لأحد سلطان عليكم، قولوا الحقيقة إذا شئتم... بل من الأفضل أن تقولوها، عل العالم ينتبه أن مازال هناك أناس شرفاء.

صافح السيد عماد السيد دانيال بحرارة شاكرًا إياه على إنقاذه، فقال له: لا تقلق، سأجعل مما حدث لكم قضيتي، ولن يهدأ لي بال حتى يرفع الظلم عنكم جميعًا... هيا أبِد بعض الصعوبة في التنفس... هيا، ألا تعرف كيف تبدو أنفاسك متحسرة.

\*\*\*\*\*

## موسى «موشيه»

### بالريس

عندما أعلن، في الميكروفون، السيد روبير - رئيس مؤتمر «سبل فض النزاعات بالطرق السلمية» - أن دوري قد حان للإلقاء كلمتي، كنت شاردًا أفكر في «أين يكون المكان الذي خبأ فيه دافيد كارت الذاكرة؟ حتمًا هناك سر استودعه دافيد في رسالته ولم أستطع كشف النقاب عنه بعد، ما هو اللغز الذي لم أفطن لفك طلاسمه؟ أظنه يكمن في آية التوراة (وأدخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه في محراب البيت في «قدس الأقداس» إلى تحت جناحي الكرويين)، هل هي مجرد إشارة لقدس الأقداس؟ ذلك المخبأ الذي كنا نخفي فيه أشياءنا الثمينة في حارة اليهود بمصر». أغمضت عيني متخيلاً صورة ملائكة الرحمة تفرد أجنتها لتحتضن بها قدس الأقداس وبداخله تابوت عهد الرب. حينئذ برقت أمامي فكرة لامعة «لم لا أطلع هذه الآية في التوراة فربما تشير الآية التي قبلها أو بعدها لشيء أستطيع أن أسترشد به لحل اللغز... يبدو أن السيد روبير كرر نداء مرة أخرى، ولكنني كنت ما أزال شاردًا فلم أنتبه، وظللت

جالسًا في مكاني على يسار منصة إلقاء الكلمات حيث ينتظر المتحدثون في هذه الجلسة. عندئذ وكزني السيد ماثيو الجالس بجواري وقال «هذا ثاني نداء عليك لتلقي كلمتك». فانتبهت وقمت متوجهًا لمنصة الإلقاء، كدت أتعثر وأنا في طريقي إليها. أخرجت الأوراق التي دونت فيها الكلمة التي أعدتها مسبقًا لإلقائها أمام أعضاء المؤتمر. وضعتها أمامي على المنصة، ألقيت التحية، نظرت للأوراق فتداخلت السطور واختلطت المعاني، أغمضت عينيّ محاولًا تركيز انتباهي فلم أستطع. غبت لبرهة عمن حولي. تضاربت أفكاري، ماذا أفعل، لن أستطيع إعادة كلمات قلتها كثيرًا من قبل ودونتها في محاضراتي وناقشتها في الكثير من البرامج التلفزيونية. شعرت أنني ببغاء يردد كلمات دون أن يعي معناها وأن كل الحضور أمامي مجرد قردة تقلد ما تراه ولا تدرك مغزاه. لعشرات المرات ألقيت محاضرات مماثلة ولكنني أجد نفسي عاجزًا عن ممارسة هذا التكرار السخيف الممل المخجل. كيف أطرح تصوري «العالمي!» عن كيفية حل النزاعات سلميًا ونحن عاجزون على حل أقرب مشاكلنا إلا بالقوة، وبإلتهائها حلت بل ازدادت تشابكًا وتعقيدًا. لا أستطيع تكرار كلام أصبح الإيمان به يثير الضحك وربما الشفقة. كل المنازعات التي انتدبت لها، لمحاولة حلها بالمفاوضات، باءت بالفشل. تجتمع محافلنا الدولية لتقول كلامًا وتدبج المقالات وتخرج التوصيات، ولكن في النهاية القوة هي التي تقول كلمتها وتفرض توصيتها. كلامنا غطاء سلة المهملات أولى به. لا لن أحتمل هذا النفاق أكثر من هذا.

علت المهمة في القاعة. طويت الأوراق وأعدتها لجيبي. تنحنحت وقلت:

- «أيها السادة. الرصاص المسكوب، أتدرون ما هو الرصاص المسكوب، إنه أفضل سبيل لحل النزاعات، فلنصهر الرصاص ونسكبه فوق الرؤوس، فيشتعل الهلع في النفوس ويتبخر الأمان وتذاب الإرادة، فيأتون إلينا رافعين أيديهم طالبين السلام قابلين للتفاوض. عندئذ نكون قد حققنا هدفنا. أليست المفاوضات هي أفضل السبل لحل النزاع سلمياً». ثم أخرجت من جيب سترقي الداخلي مسودة التقرير الذي أعدته عن التجاوزات التي قام بها جيش الدفاع الإسرائيلي أثناء عدوانه على قطاع غزة، وما إن شرعت في قراءته حتى تعالت، ليس المهمة هذه المرة، ولكن تعالت الاحتجاجات وارتفع صوت طرق الأيدي على أذرع المقاعد. لقد أيقظت ضمايرهم المربضة، التي بدلاً من أن يعالجوها بالعدل، أعطوها مسكنات الصوت العالي. فملأوا بصيحات الشجب أرجاء القاعة، «عمن تتحدث»، «الفلسطينيون»، «إنهم عرب مسلمون»، «قتلة إرهابيون».

قام أحد الحضور وتوجه للمنصة وانتزع مسودة التقرير من يدي وقام بتمزيقها وحاول الاعتداء عليّ. تدخل رجال الأمن وخلوا بيننا واصطحبوني للخارج. قال لي أحدهم وهو يسير بجواري في بهو الفندق «سيد موشيه، أنصحك بأن تلزم غرفتك ولا تغادرها». فنظرت إليه مندهشاً، فقال «بعد قليل ستدرك قيمة نصيحتي».

~~~~~

عملاً بنصيحة رجل الأمن طلبت من خدمة الغرف بالفندق أن تحضر لي طعام الغذاء بغرفتي. توقفت عن تناول الطعام لدى دخول داوود للغرفة، إذ إن الصفرة التي كانت تعلق وجهه جعلته يبدو وكأنه بعث لتوه من قبره. استفسرت عن سبب حالته تلك، فقص عليّ ما حدث لهم في سفارة إسرائيل هذا الصباح وكيف مرت عليه لحظات ظن خلالها أنه هالك لا محالة، وأن الخوف الذي تملكه من فضح أمر صديقه طه وولده إياد كان وحده كفيلاً بأن تتابه أزمة قلبية. تلثم لفترة قبل أن يجيب عن تساؤلي المندesh عن سبب وجود فلسطينيين بسفارة إسرائيل، فعلل ذلك بأن مهمة عملهما تستدعي الحصول على بعض المعلومات من السفارة وأنهما دخلاها بصفتها أمريكيتين الجنسية. تجاوزت عن تبريره الواهي ولم أدقق كثيراً. فأخبرني أنه سيغادر باريس فجر غدٍ ليلحق بصديقه وولده في عمان، بعد أن يلتقي الليلة بصديق أبراهام - جدعون - في مقهى «فوكيه» لإنعام بعض الأعمال التي مازال مصرّاً على كتمان ماهيتها، ولا يريد الإفصاح عن حقيقتها. للحق أنا أيضاً لم أكن مهتماً بمعرفة كنه أعمال داوود تلك فقد انشغل بالي وتفكيرى بحل لغز إخفاء كارت الذاكرة الذي قد يكشف لي عمن قتل ابني وأسرته. لذا أفصحت لداوود عن فكرتي بمراجعة التوراة والكشف عن علاقة الآية التي ذكرها داوود في خطابه بالآيات التي قبلها وبعدها.

أثناء تناول داوود طعام الغداء سألته إن كانت لديه نسخة من التوراة،

فكانت نظرات عينيه المستنكرة كافية بالرد، لكنه اقترح أن نبحث عن طريق الشبكة العنكبوتية. أخرجت كمبيوتري المحمول من حقيبتة وجعلته في وضع التشغيل وكتبت في موقع جوجل «التوراة» فظهرت الآلاف من المواقع التي تمكنني من قراءتها. ضغطت على أول موقع وأدخلت في مربع البحث كلمة «قدس الأقداس» فظهرت كل الآيات التي احتوت على ذكر هذه الكلمة بحثت بينها حتى وصلت للآية المطلوبة «وأدخل الكهنة تابوت عهد الرب إلى مكانه في محراب البيت في «قدس الأقداس» إلى تحت جناحي الكرويين». قرأتها عدة مرات محاولاً استنباط أي علاقة بينها وبين الآيات التي قبلها وبعدها فلم أصل لشيء، تلوتها على داوود فهز رأسه نافياً قدرته على حل اللغز. ولكنه قال «دعني أرى الآيات بعيني»، أدت جهاز الكمبيوتر تجاهه فنظر إليه، وفمه مليء بالطعام، وأعاد هز رأسه بما يعني فشله للمرة الثانية. عندما هممت بسحب الكمبيوتر من أمامه صاح قائلاً «انتظر»، فتناثرت قطع من الطعام من فمه على لوحة المفاتيح. أثناء إحضاري منديلاً ورقياً لتنظيف الجهاز قال:

- انظر، انظر.

- إلى ماذا؟

- لرقم الآية.

- رقمها!

- إنها في سفر أخبار الأيام الثاني 7:5.

- ماذا يعني هذا؟

- قد يكون رقم الآية إشارة لشيء ما... لمكان كارت الذاكرة مثلاً.
- كيف؟
- ألم يذكر أبراهام أن أحجار الجرانيت التي تحيط بباب الشقة تمتد بعدد من الصفوف السفلية وتحيط بالمبنى كله.
- نعم.
- لذا أقول إن رقم الآية قد يكون إشارة لمكان الحجر الذي خبأ خلفه دافيد كارت الذاكرة. أقصد أنه الحجر رقم 5 من الصف رقم 7 أو العكس الحجر رقم 7 من الصف رقم 5.
- ضربت فخذ داوود مثنيًا على براعته وقلت:
- فكرة رائعة... وهذا يتوقف على عدد صفوف الحجارة التي تحيط بالمبنى.
- بالضبط.
- إذن اتصل الآن بأبراهام وتأكد منه كم عدد صفوف الحجارة.
- أمهلني حتى أنتهي من تناول طعامي.
- بل الآن.. خذ.
- ومددت يدي بهاتفي المحمول. رضح داوود أمام إصراري وأخذ الهاتف وطلب أبراهام «بينو، أتذكر عدد صفوف أحجار الجرانيت التي تحيط بالمبنى الذي تقع به شقة دافيد... ليس الآن... فيما بعد سأوضح لك... نعم، نعم... شالوم». التفت داوود إلي وقال:
- لا يتذكر عددها على وجه الدقة ولكن ربما تكون أربعة أو خمسة

صفوف.

- فليبحثوا إذن خلف الحجر رقم 7 من الصف رقم 5. هيا بنا.

- الآن!

نعم.

- تمهل يا موسى. لا يمكن القفز فوق الأسوار في وضح النهار.

فلنؤجل هذا الليل.

- متى؟ وقد ذكرت أن هناك موعدًا مع صديق ابنك على مقهى

«فوكيه».

- الموعد في الحادية عشرة. بإمكاننا إنجاز مهمتنا قبل ذلك.

~~~~~

أدركت قيمة التحذير الذي ألقاه على سمعي حارس الأمن «سيد موشيه، أنصحك بأن تلزم غرفتك ولا تغادرها»، كان ذلك عندما أتاني تحذير آخر من عزيز بضرورة التسلل من الباب الخلفي للفندق حيث ينتظرني بسيارته للذهاب إلى شقة دافيد. فقد تجمع أمام الفندق العشرات ممن يطالبون بمحاكمتي بتهمة معاداة السامية ويرفعون اللافتات المنددة بما ذكرت في المؤتمر هذا الصباح، ويناشدون السلطات بإلقاء القبض عليّ. اضطررنا في هذه المرة إلى ابتكار طريقة أخرى لجذب انتباه الشرطي الموكلة له مهمة حراسة شقة دافيد... يغادر أبراهام وبنيامين السيارة في الشارع الجانبي الفاصل بين البناية وبين الحديقة العامة، ويدور عزيز بالسيارة حول البيت ويقف أمامه وأنزل أنا من السيارة لأسأل الشرطي

عن عنوان ما، ولا أتركه إلا حين يتصل بي داوود على هاتفي المحمول بما يعني أن أبراهام وبنيامين استطاعا أن يقفزا من فوق السور بسلام وصارا داخل حديقة البناية التي تقع بها شقة دافيد. أكدت عليهما أن يتوخيا الحرص ولا يقفزان إلا حين يتأكدان أن ما من أحد يراهما، خاصة من جهة الحديقة العامة.

أثناء محادثتي مع الشرطي علا رنين هاتفي المحمول فأيقنت بوصول الإشارة المتفق عليها، فشكرته واستدرت عائداً للسيارة، فتحرك هو على الفور قاصداً الشارع الجانبي لتفقد البناية من ناحيته. وأنا متوجه للسيارة رأيت عزيز وداوود يشيران إليّ بأن أعود سريعاً، لم أدر ماذا أفعل فهزرت رأسي مستنكراً. عندما وصلت للسيارة صاحبا بوبخاني:

- لم عدت، ألم تنفق ألا تعود إلا عندما نتصل بك.

- ولقد اتصلتما بي.

- لا لم نتصل.

- ماذا!

التفت ناظرًا للشرطي فوجده على بعد خطوة واحدة من زاوية المنزل ولو التفت لليمين لرأى بنيامين فوق السور وأبراهام يدفعه من أسفل. وقفت مذهولاً. وضع عزيز وداوود أيديهما فوق وجهيهما كي يتجنبنا رؤية الشرطي وهو يقبض على ابنيهما... فجأة علا صوت شجار قادم من الجهة المقابلة فاستوقف الشرطي والتفت ناحيته وذهب لفض المشاجرة. تنفسنا الصعداء، ووددنا لو ذهبنا لمساعدة أبراهام وبنيامين كي يقفزا بسرعة...

أخيرًا صارا بالداخل، فركبت السيارة وجلست في صف المقاعد الأخير بمفردي، وانطلق بها عزيز.

نظرت إلى هاتفي المحمول كي أعرف من الذي اتصل بي، فوجدته ابني داني. اتصلت به، وما إن سمعت صوته حتى قلت بغضب:

- إيه يا داني لم اتصلت بي ماذا تريد.

- أبي إنه... إنه.

- إنه ماذا.

- ماتت أمي.

صحت:

- ماذا تقول.

وأغلقت الخط. نظر إلي عزيز وداوود وقالوا:

- ما بك.

- ماتت تسالا.

- آه. فليتغمدها الله برحمته. شد حيلك يا موسى.

- ماتت قبل أن تعرف السر وراء مقتل ابنها.

خيم الصمت على السيارة ولم يقطعه سوى صوت رنين هاتفي المحمول. وجاء صوت أبراهام خافتًا:

- لقد بحثنا عند الحجر السابع من الصف الخامس ووجدناه مثبتًا

جيدًا، ولا يبدو عليه أي آثار تدل على أنه انتزع حديثًا.

- بحثتم حوله.

- نعم ولم نستدل على شيء.

قلت يائسًا:

- إذن فتهيأ للعودة عندما نعطيكما إشارة بأن الطريق مأمونًا.

أخبرت عزيز وداوود بما دار بيني وبين أبراهام فقال عزيز:

- سيتهي الأمر هكذا من دون أن نتوصل لشيء؟

- بعد موت تسالا ما عاد شيء مهم.

- إذن فلنرقب الطريق حتى نتحين الفرصة المناسبة لعودتهما،

ونخبرهما بها.

ظللنا نتلفت حولنا، أنا وعزيز، وداوود ظل شاردًا يفكر. قال عزيز:

- لقد اختفى الشرطي، وما من حركة بالشارع، هذا هو الوقت

المناسب. اتصل بهما يا موسى.

عندما هممت بالاتصال قال داوود:

- أعطني الهاتف سأتصل أنا بأبراهام.

- «بينو ألم تقل إن هناك بابًا آخر من الخلف يفضي إلى المطبخ... ابحث

عنده بنفس الطريقة الحجر السابع من الصف الخامس... نعم، في انتظار

ردكما».

قال عزيز:

- أنت عبقرى حقًا يا داوود.

مرت الدقائق ثقيلة وأنا ممسك في يدي بهاتفي المحمول في انتظار أن

يعلو رنينه. تشتت تفكيري بين ما ستسفر عنه مهمة أبراهام وبينامين،

وبين خبر وفاة تسالا، طفرت من عينيّ دمعتان وأنا أسترجع ذكرياتنا سوياً «آه، يا حبيبتي، تقضين وأنا بعيداً عنك، ولا تكون عيناى آخر ما تشاهد هما عيناك قبل أن يغمضا للأبد، ولا تكون يداى آخر ما تلامسهما يداك» ارتخت يدي القابضة على هاتفى المحمول وكاد أن يسقط منها، لولا أن علا رنينه فجأة، فنبهني وانتفضت يدي ودفعت بالهاتف لأعلى، ثم تلقفته ووضعتة سريعاً على أذني.. أخيراً أتى صوت أبراهام معلناً عن انتصارنا بعثورهما على كارت الذاكرة في المكان الذي حدده لهما داوود.

أخرجت جهاز الكمبيوتر من حقيبته وجعلته في وضع التشغيل انتظاراً لوصول أبراهام ومعه كارت الذاكرة، ما إن فتح الجهاز إلا وظهرت رسالة تفيد بأن شحن البطارية على وشك الانتهاء. كل ثانية تمر كأنها دهر. ما إن شاهدتهما قادمين حتى غادرت السيارة وقابلتهما في منتصف الطريق وأخذت الكارت من أبراهام وعدت مسرعاً للسيارة، ولكن خيبة الأمل جعلتني أطرق سطح السيارة بقبضة يدي، فرغ شحن البطارية قبل أن أشاهد محتوى الكارت. أعدت الجهاز للحقيبة وألقيت به حانقاً على أرضية السيارة.

اختلطت مشاعر الفرحة بنجاحنا في الحصول على كارت الذاكرة، بمشاعر اليأس لعدم تمكني من مشاهدة محتواه، فأدى هذا الاضطراب لتفاقم مشاعر الحزن على فقد تسالا. فانخرطت في بكاء ذرفت فيه الكثير من الدمع ولكن لم يشعر بي أحد لجلوسي منفرداً في صف المقاعد الأخير. غادرنا، أنا وداوود، سيارة عزيز أمام فندق الماريوت، ونسينا أخذ جهاز

كمبيوترى المحمول معى؁ فضل ملقى على أرضية السيارة.

~~~~~

عندما قاربت الساعة العاشرة قال داوود:

- كنت أود ألا أترك هذه الليلة؁ ولكننى مضطراً للذهاب للقاء صديق أبراهام تبعاً لموعدا.

- لا عليك. ولكن هل تستطيع أن تحضر كمبيوترى معك من سيارة عزيز.

- سأتصل بأبراهام كى يحضره معه. فقد ذهب مع بنيامين للتنزه بسيارة عزيز.

أمسكت بكارت الذاكرة أقلبه بين يدى؁ وددت لو استنطقته ليقربمحتواه الذى أودى بحياة ابنى. وضعته على منضدة التلفزيون واستلقيت فى الفراش. ولكن هاجساً طاف بخيالى ودفعنى للنهوض فجأة استجابة لهاتف تردد بداخلى «يجب أن تحبى كارت الذاكرة فى مكان أمين». تلفت حولى مستطلعاً الغرفة؁ حتى وقعت عيناي على المكان الذى ظننته آمناً. خبأت الكارت؁ وأويت للفراش وطيف تسالا لا يفارق خيلى.

موسى «موشيه»

باريس

استيقظت فرعاً لإحساسي بشيء صلب بارد يدفع في صدغي الأيسر، دفعته بيدي بعيداً، وحاولت النهوض، فمنعتني يد ثقيلة، بضغطه على صدري، ردتني لمكاني. ورأيت شبحاً جاثماً فوق رأسي، لم أستطع تبين ملامحه، فإضاءة الغرفة معتمة، إذ لا يوجد سوى شعاع ضوء بسيط يتسرب من باب الحمام الذي تركته مفتوحاً قبل أن آوى إلى الفراش. تسارعت دقات قلبي وجف حلقي والتصق لساني بأعلاه، فلم أستطع أن أصبح طالباً النجدة أو حتى أن أتفوه بكلمة «من أنت».

امتدت يد الشبح وأضاءت النور الجانبي، فاستطعت أن أرى وجهه بوضوح، هاتان العينان الجاحظتان وهذان الحاجبان الكثيفان، لقد رأيتهما من قبل، ولكن لا أتذكر أين أو متى. اقترب مني وقال بصوت منخفض مبحوح:

- أرجو أن تكون حكيماً، وتتبع أوامري دون نقاش.
هززت رأسي موافقاً.

- هذا رائع ... كنت متأكدًا من تعقلك يا سيد موشيه.

عمل عقلي سريعًا مستحضرًا ذكرى مر عليها ما يقارب الأربعين عامًا. يوم أن استيقظت وخنجر ضابط الصاعقة المصري يكاد أن يخرق عنقي، حقًا حينها كنت في حرب وفي منتصف الثلاثينيات، أما الآن فأنا في أرقى فنادق باريس وتجاوزت السبعين. ولكن ذهني مازال يعمل بكامل كفاءته، أما جسدي فخارج الخدمة وفقد الكثير من لياقته، ولا شك سيخذلني إذا ما طلبت مساعدته. فلأشحذ عقلي وأحاول تركيز تفكيري لعلني أجد مخرجًا للمأزقي هذا. أجبته وقد رسمت على وجهي علامات التعجب والنكران:

- ولكنني لست موشيه أنا أخاه دافيد.

- سيد موشيه.

- صدقتني فنحن توءم.

- أظن أننا لا ندري أنكما توءم متطابق، وأن الناس جميعًا لا تفرق بينكما. ولكن بالطبع لدينا الكثير من الطرق التي نستطيع بها أن نتحقق من شخصيتك. وحري بك وأنت شيخ كبير ألا تكذب.

أخرج من جيبه جهازًا صغيرًا أشبه بالقلم، وهم بأن يتكلم، ولكن علا رنين هاتفه المحمول فأخرجه من جيب سترته الداخلي وأجاب:

- ألو... نعم سيد شيمون... نحن الآن مع حما ابنتك السيد موشيه.

عندئذ انتفضت وقلت «من شيمون؟!». فردني بلطف ووضع سبابته

أمام فمه مشيرًا لي بأن أصمت. وأكمل حديثه:

- نعم، نعم، سننهي كل شيء بدون إزعاج.

أنهى مكالمته، ثم التفت إليّ وقال:

- أظن لا داعي للمزيد من الألاعيب. لقد فضحت نفسك بانزعاجك من مكالمة السيد شيمون. ولزيد من التأكيد سنستخدم هذا الجهاز - الجهاز الشبيه بالقلم - نوجهه للشخص المراد التعرف على هويته، ثم نضغط هنا فيرسل أشعة تحت حمراء ويقيس طول موجة الأشعة الصادرة من جسد شخص ما، طول الموجة هذا مثل بصمة الأصبع تختلف من شخص لآخر، وأنت وأخوك دافيد طول موجتكما مسجل على هذا الجهاز.

ثم وجه الجهاز تجاهي وضغط عليه وقربه مني وقال:

- انظر اسمك ظهر على الشاشة، ليس هذا فحسب ولكننا أيضًا قسنا طول موجة أشعة السيد دافيد وهو خارج من الفندق وتحققنا منه. وتأكدنا أكثر عندما أرسلنا عميلتنا فالتقت به وجهًا لوجه ولم يجهّها.

- عميلتكم، من؟

- لا تتعجل.

عندئذ سمعت وقع أقدام آتية من ردهة الغرفة الخارجية المواجهة للحمام، صعقت عندما رأيتهما تتقدم لتخطو بقدميهما داخل الغرفة، لم أتمالك نفسي وانتفضت صائحًا «أنتِ!». فامتدت يد الشبح ووضعها فوق فمي ليغلقه وقال: «إياك أن تفتح فمك أو تتحرك»، وألصق فوهة مسدسه أكثر بصدغي. أذعنت مستسلمًا وأنا غير مصدق ما أراه من هول المفاجأة. تقدمت ليليت، مضيئة شركة العال، وجلست على حافة الفراش، وقالت

متخلية عن رقتها السابقة:

- أظن لا داعي للإنكار، ولك الحق أن تفتخر بأن في بلدك مؤسسة تعمل بهذه الدقة والحرفية، حيث نسبة الخطأ صفر. ونفتخر أكثر بعلمائنا الذين اخترعوا مثل هذا الجهاز الفريد على مستوى العالم. لم يعد هناك مجال للتخفي بالتمكر أو بجراحات التجميل التي تغير الملامح، بفضل هذا الجهاز.

الحقيقة أن كم المفاجآت شل تفكيري وعشرات الأسئلة ترددت بداخلي وتنتظر إجابات، فسألته:

- ولكن ما علاقتكم بالسيد شيمون.

- السيد شيمون رئيسي في العمل وهو الذي كان ينقل لنا تحركاتك خطوة بخطوة.

- إذن أنت هو...

- نعم أنا الحارس الذي نبهك كي لا يفوتك موعد طائرتك.

شعرت بأن حلقة حديدية تلتف حول عنقي وتضيق شيئاً فشيئاً، ولا مجال للإفلات منها. فقلت مستسلماً:

- وما المطلوب مني الآن.

- كارت الذاكرة.

فوجئت بردي التلقائي:

- إنه ليس معي.

عدنا للكذب مرة أخرى. ألا تدري يا سيد موشيه أن كل تحركاتكم

كانت مرصودة من قبلنا، حتى المشاجرة التي حدثت أمام شقة ابنك دافيد لجذب انتباه الشرطي الموكل له حراستها، نحن من افعلناها كي لا يكتشف أمر أبراهام وبنيامين، ذلك عندما رأينا أن الشرطي يتحرك في اتجاههما وهما لم يقفزا من فوق السور بعد... كل شيء عندنا يعد بدقة، وكما قالت ليليت «نسبة الخطأ عندنا صفر»... فأرجوك لا تدعني ألبأ لأساليب قد تغضبك.

عندئذ علا رنين هاتفني المحمول. فقال لي:

- انظر من.

نظرت لشاشة هاتفني وقلت:

- أخي دافيد.

- افتح الميكروفون وأجبه.

وسدد إلي نظرة صارمة وقال:

- ولكن إياك وألاعيبك.

فتحت الميكروفون وقلت:

- ألو.

- موسى، لماذا الصوت يرن هكذا.

- لأنني أستخدم الميكروفون.

- لا بأس، أنت بخير.

- نعم.

- أردت أن أقول لك ألا تنتظرنني على العشاء، سأتناوله بالخارج، هل

- تريدني أن أحضر لك أي شيء معي.
- آه، يا ليتك تحضر لي معك فطير الماتسا، فأنت تعرف كم أحبه.
- فطير الماتسا!... لا مانع، سأحاول أن أجد فرنًا يخبزه، ولكن لن أحضره قبل ساعتين أو ثلاثًا.
- لا بأس، فأنا سأنام الآن.
- تريد شيئًا آخر.
- أشكرك يا دافيد.
- شالوم.
- شالوم.
- نظر إليّ نظرة ودودة وقال كمن يخاطب طفلًا صغيرًا أنجز مهمة موكلة إليه بأفضل ما يكون:
- أحبيك على تعقلك، هكذا نصير أصدقاء. والآن هلا أخبرني أين كارت الذاكرة.
- أريد ضمانًا.
- لأي شيء.
- لحياتي.
- أعدك بأن حياتك مصانة لو سلمتني كارت الذاكرة، فلا فائدة من إيدائك.
- أريد شيئًا آخر.
- اطلب.

- أن تجيئني على بعض الأسئلة.
- لا مانع ولكن بشرط ألا تطيل.
- عندئذ نظرت له ليليت لائمة وقالت:
- لا مجال لهذا التسويف يا حاييم.
- فأجبتها:
- بنيتي، عشر دقائق لن تفسد الأمر.
- قال حاييم:
- أسأل ما تريد.
- الحقيقة، لقد أثرت ربيتي في كل شيء، أريد الحقيقة وعلى رأسها من الذي قتل ابني وأسرته.
- يجب أن تثق أننا أبرياء من دم ابنك.
- فمن قتله إذن.
- المخابرات الفرنسية.
- اعتدلت في جلستي وقلت متعجباً:
- وما دخل المخابرات الفرنسية؟
- لأنها كشفت أمره.
- وما الضير في هذا.
- سيد موشيه، سأوضح لك الأمر من بدايته. الملف الذي رأيته في مبنى الأرشيف العسكري، ويخص ابنك دافيد، نحن الذين وضعناه لك حتى تراه. تسلكك للمبنى كان مرتباً بمعرفتنا.

- والرائد جاك.
- هو من رجالنا الذين دسناهم عليك.
- من رجالكم وتقتلونهم؟!
- من قال إنه قتل. هذا مجرد خبر سربناه إليك.
- ولم كل هذا.
- أردنا دفعك للسفر لباريس لكشف غموض اختفاء كارت الذاكرة.
- ألم تتخوفوا من أنني قد أستفز وأقوم بفضح ممارسات الجيش أثناء اعتدائه المروع على قطاع غزة، ربما بدافع الانتقام مما حدث لابني، أو ربما بدافع إنساني. وهو ما حدث بالفعل على شاشة القناة الثانية.
- كل هذه أمور يمكن تجاوزها، وما يسرب يكون بالقدر الذي نريده.
- من قبل سربنا فيلما عن قتل الأسرى المصريين أثناء حرب الأيام الستة، ولم يحدث شيء، فالأمر محسوب تمامًا والرسائل تصل كما نريدها.
- ولم قرر دافيد كتابة خطاب ويوجهه لي ليوضح مكان كارت الذاكرة بالألغاز. أم يكون الخطاب أيضًا خدعة.
- ربما هذا ما أسعفه به عقله حين أدرك أن أمره قد تم كشفه من قبل أجهزة المخابرات الفرنسية، أو ربما أراد تأمين نفسه بإخفاء الكارت.
- الخطاب الذي وجدته بالملف به فقرة واحدة فقط حقيقية ووردت بالفعل في الخطاب الأصلي، تلك الفقرة التي ظننا أنه يريد أن يدلّك فيها على مكان الكارت ولكن بالألغاز والرموز.
- وباقي الخطاب.

- خير خطوطنا هو من كتبه، أما الأصل فقد كان يروي لك فيه كل الحقيقة.

- ولم لم يرسل كارت الذاكرة لكم بأي طريقة.
- هو فقط استطاع أن يرسل المحتوى مكتوبًا بالشفرة في إحدى رسائله بالبريد الإلكتروني، أما الفيلم المصور فهذا أمر غير ممكن، فكل الطرق غير مؤمنة، حتى الإنترنت تأمينه مستحيل فاخترقه متاح بسهولة للجميع. الطريق الوحيد الآمن هو التسليم يدًا بيد، وهذا أمر لم يكن متاحًا لدافيد.

- كان يمكن أن يترك الرسالة موجهة لكم أنتم وبالشفرة أيضًا.
- ربما ظن أننا تخلينا عنه فأراد معاقبتنا.
- وجماعة فرسان الهيكل، حقيقة أم لا وجود لها.
- لا بل هي جماعة موجودة بالفعل ومؤثرة بأفكارها في الكثير من المؤسسات العالمية ولكن لا علاقة لها بقضية دافيد من قريب أو بعيد.
- فما الذي يحتويه كارت الذاكرة، ويجعله ذا أهمية قصوى.
- ألم تره.

- لقد نسيت حقيقة كمبيوتر الشخص في سيارة صديقي عزيز ولم أتمكن من معرفة محتوى كارت الذاكرة.
- هذه إجابتي عن آخر سؤال وبعدها سأمنحك ثلاثين ثانية على أن تبوح لي بعدها بمكان الكارت.
- موافق.

- الذي سجله ابنك دافيد هو اجتماع على قدر كبير جداً من السرية والخطورة للهيئة العليا لحلف الناتو. يضعون فيه الخطة الرئيسية لإشعال حرب عالمية ثالثة، بالطبع لن يكون مركزها أوروبا ولكنها ستكون في منطقة جنوب آسيا ربما بين الكوريتين، أو بين الهند وباكستان. ثم تمتد لتشمل كل قارة آسيا والشرق الأوسط، والهدف هو تحطيم الحضارة البوذية في الصين والحضارة الإسلامية بدءاً من ماليزيا لباكستان لإيران... فأكملت له:

- للمنطقة العربية.

- لا، المنطقة العربية لا، فنحن فيها، وأيضاً إذا دمرت فمن الذي سيمول الحرب. وفي كل الأحوال هي بلاد لا خوف منها وقد خرجت من حركة التاريخ الحديث ومصيرها التفتت والتشردم.

- ولم كل هذا.

- لقد وضعت النظرية ولا بد من التطبيق.

- أي نظرية.

- صدام الحضارات. وفي الصدام لا بد وأن يكون هناك منتصر ومهزوم، وعلى التأكيد لن تهزم الحضارة الغربية ونحن جزء منها.

- أرجوك سؤال أخير.

أشار إليّ بالموافقة، فسألت:

- ولم قتلت المخابرات الفرنسية ابني؟

- عندما اكتشف أمره. هاجموا بيته ولم يستطيعوا العثور على كارت

الذاكرة. فقررُوا قتله كي يدفن السر معه.

- ولم تخلّيتم عنه.

- لم نتخلّ عنه، فابنك أحد أبطالنا، وإنما فقط وصلنا متأخرين لبضع دقائق. فكان لابد من إظهار القتل على أنه إحدى جرائم التطرف العنصري، تجنبًا لأزمة دبلوماسية بيننا وبين فرنسا... لا تتعجب هكذا، فهذا أمر شائع في أعمال المخابرات.

- ولهذا لطختم الجدران بعلامة الصليب المعقوف.

- نعم. فهذه فرصة يجب ألا نضيعها لحضّ يهود فرنسا على الهجرة.

قلت هامسًا «من عملية سوزانا لعملية دافيد، لم يتغير شيء».

- أتقول شيء.

- أقول... وكيف وصل الخطاب إليكم، هل حقًا تركه في بيته.

- لا لقد أرسله لك بالفعل ولكننا حصلنا عليه قبلك.

هزّزت رأسي فاهمًا. عند هذا الحد تدخلت ليليت وقالت بحدة:

- كفى إهدارًا للوقت، ولتقل فورًا أين كانت الذاكرة... وإلا.

وصوبت مسدسها تجاهي.

استنفدت كل حيلي لتعطيهم قدر الإمكان، عل داوود يكون قد فهم معنى الإشارات التي أرسلتها له أثناء محادثتنا الهاتفية. ولكن لا فائدة.

اقتربت ليليت مني أكثر ووكزتني في صدري بفوهة مسدسها وقالت:

- انطق، أين كانت الذاكرة.

بيد مرتعشة أشرت للستارة وقلت:

- أعلى هذه الستارة.

سحبت مقعدًا ووقفت فوقه وتحسست بيدها أعلى الستارة وعندما أمسكت بكارت الذاكرة التفتت وصاحت فرحة:
- أخيرًا ها هو.

أخرجت من حقيبتها جهاز كمبيوتر محمولاً واختبرت صحة كارت الذاكرة، ثم أشارت لحاييم ذي العينين الجاحظتين رافعة إبهام يدها اليمنى لأعلى بما يفيد أن كل شيء سليم، في الحال وجه مسدسه لرأسه وشد أجزائه وتأكد من تثبيت ماسورة كاتم الصوت. فقلت بهلع:
- لقد أمنتني على حياتي.

- لا أظن أنك صدقت، أبعد كل الذي عرفته يمكن أن تترك حيًا. هيا اسأل ربك المغفرة.

- اتركني وأعدك بألا أتفوه بكلمة مما حدث ولا حتى لنفسي.
- آسف سيد موشيه، لا مجال لهذا، لقد صرت خطرًا على الأمن، وكما قلنا من قبل «نسبة الخطأ عندنا صفر».

- انتهى الأمر، في إسرائيل إذا ذكرت عبارة «خطر على الأمن» فأنت مقضي عليك لا محالة. أغمضت عيني في انتظار سماع آخر شيء في حياتي، صوت طلقة المسدس. ولكن بدلًا منها سمعت صوت طرقات على الباب، فتحت عيناوي ونظرت إليهما، مرت ثوانٍ وكأنها دهر. صاح صوت من خارج الغرفة:
- خدمة الغرف.

قال لي حايم هامسًا:

- هل طلبت شيئًا.

- لا، ولكن ربما هذا موعد طعام العشاء.

- افتح ولكن إياك... وإلا ستنهي حياتك وحياة المسكين الذي

بالخارج.

توجهت للباب وأنا أدعو الله في سري أن يأتيني بالنجدة. قرأت ما أعرفه من آيات التوراة وما تذكرته من سورة الفاتحة، فقد أنقذت حياتي من قبل. وقفت أمام الباب وحايم واقف ورائي دافعًا بفوهة مسدسه في رأسي من الخلف، مددت يدي وفتحت الباب:

- خدمة الغرف يا سيدي هل تسمح لي بإدخال طعام العشاء.

دفع حايم مسدسه في رأسي فقلت:

- هات سأحمله أنا بنفسي للداخل.

- من فضلك وقع على هذا الشيك.

- لا بأس.

نظرت للشيك فإذا به مكتوب عليه «هل هناك مشكله»، فكتبت «نعم

أنقذوني سريعًا»، أعطيته الشيك وأنا أقول:

- شكرًا.

- شكرًا سيدي.

ما إن استدرت حاملاً صينية الطعام إلا وشعرت بدفعة هائلة في

ظهري تسقطني على الأرض ولم أرى شيئًا، فقط سمعت أصوات

طلقات رصاص، رفعت رأسي قليلاً فإذا بليلى واقعة أمامي مضرجة في دمائها، وحاييم منبطح بجواري على الأرض ويدها موثقان خلف ظهره والغرفة بها ما لا يقل عن عشرة رجال منتشرين في كل أرجائها. امتدت يد تساعدني على النهوض، رفعت رأسي أكثر فإذا بها يد داوود. نظر إليّ والهلع باد في عينيه وهو يقول:

- هل أصابك مكروه.

- أنا بخير.

- حمداً لله.

جذبني بقوة أكبر حتى أنهضني فقلت:

- وصلتك رسالتي.

- وفهمتها، عرفت على الفور أنك في مأزق عندما طلبت فطير الماتسا، فأنا أعرف كم تمقته، وتأكدت عندما قلت لي «أشكرك يا دافيد» وأنت منذ طفولتنا لم تقل لي سوى داوود. وكذلك هذه الفتاة - وأشار لجثة ليليت - مضيعة شركة العال، أثارت شكوكي بتعمدها إثارة انتباهي، ثم كيف لمضيعة في شركة طيران العال وتقيم في فندق ماريوت الشانزلزيه لأكثر من أربعة أيام! تذكرت حينها ما قلته من أنك مطارِد ومهدد بالقتل فاتصلت بك هاتفياً لأطمئن عليك.

التفت لحاييم وقلت:

- قد تكون نسبة الخطأ صفر، ولكن ليس مع داوود.

كنت أتابع حديثنا وعيناى معلقتان بحقية ليليت التي تحوي كارت

الذاكرة وجهاز الكمبيوتر المحمول الذي اختبرت به صحة الكارت. عندما اقترب منها أحد رجال التحقيق قلت له:

- عفواً هذا جهازني الخاص وبه معلومات مهمة، بإذنك.

ومددت يدي وأخذت الحقيبة وأعطيته لداوود.

في نهاية التحقيق - الذي ذكرت فيه أنني لا أعرف من هما، السيدة والرجل ذو العينين الجاحظتين، ولا أدري سبب اقتحامهما للغرفة، وربما أرادا قتلي بسبب ما كشفته من أسرار أثناء حديثي للقناة الثانية بالتلفزيون الإسرائيلي، أو ربما راجع لما حدث في محاضرة هذا الصباح أمام مؤتمر «سبل فض النزاعات بالطرق السلمية» - قال لي المحقق بعد مخابرة هاتفية أتته على هاتفه المحمول:

- سيد موشيه، أرجو معذرتك، فنحن لن نستطيع تأمين إقامتك بفرنسا لأكثر من أربع وعشرين ساعة، نرجو قبل انتهائها أن تكون قد غادرت الأراضي الفرنسية. هزرت رأسي ولم أعقب.

~~~~~

في فندق «دي ليون»، حيث انتقلت لقضاء ليلتي الأخيرة في باريس مع داوود وأبراهام، جلس ثلاثتنا، نشاهد محتوى كارت الذاكرة. لم نصدق أن يصل التفكير الشيطاني لهذه الدرجة التي لا ترى من الإنسان سوى مادة استعمالية يُسخر لخدمة القوى الكبرى حتى لو كان الثمن القضاء على عدة ملايين من البشر، تفكير مفتقد للرحمة والإنسانية والتسامح ولا

يرى سوى أن البقاء للأقوى. تجادلنا كثيرًا حول ما نفعله بهذا الكارت. أبراهام وداوود ارتأيا أننا ممكن أن نجني من ورائه ثروة، وعداه منحة من الله تخرجهما من أزمتها المالية. أما أنا فصممت على تحميله على الشبكة العنكبوتية عبر موقع «يوتيوب» حتى أفضح هذا المخطط الإجرامي للعالم أجمع. اعترضوا بشدة واتهماني بالحق، وبأن عضويتي للكثير من منظمات حقوق الإنسان شوشت على التفكير المنطقي السليم. فاتهمتهما بدوري أن لا فرق بينهما وبين من شاهدناهم يخططون لفناء ملايين البشر دون النظر للقيم الإنسانية العليا مغلبين قيم النفعية والذاتية.

انتظرت حتى غطا في النوم وقمت بتنفيذ ما أردت قبل أن يستيقظا، فبعد ساعة واحدة عليهما أن يتهيأ للذهاب للمطار ليستقلا الطائرة المتجهة لعمان فجر اليوم.

اتصلت بشيمون، فبهت عندما سمع صوتي وعجز عن الرد، فسألته سؤالاً واحداً فقط «هل نعاما تعرف شيئاً عن طبيعة عملك؟»، أجاب بالنفي، فحذرته من مغبة إفساد حياتها الزوجية مع ابني داني بذكر أي شيء عن إشرافه على مهمة اغتيالي.

أويت للفراش وأنا أفكر، إلى أين أذهب؟ لا أستطيع العودة لإسرائيل، فإلى أين؟ أين المكان الآمن الذي يمكن أن يؤويني؟ ... لا أدري.

\*\*\*\*\*

## داوود «دافيد»

### عين كارم

خاب أُملي في تحقيق ثروة من وراء كارت الذاكرة. فعدت لخطتنا السابقة. ولكن بعد أن وبخت موسى واتهمته بالغباء وبأنه لا يرى سوى مصلحته وقلت له متهكماً «دع حقوق الإنسان تلك تنفعك».

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة صباحاً بقليل عندما هبطت الطائرة في مطار عمّان. وجدنا أبو إياد وولده في انتظارنا. حيث سبقنا بالسفر للأردن تنفيذاً لما اتفقنا عليه بالأمس بضرورة سرعة مغادرتهم لباريس بعد حادث السفارة الإسرائيلية خوفاً من تتبع السلطات الفرنسية لهما وإخضاعهما للتحقيق.

بادرت بسؤالهما:

- هل واجهتكما مشاكل.

- هنا في الأردن، بالطبع لا، المشكلة ستكون عند عبورنا للصفحة واستخدامنا لجوازات سفرنا الجديدة.

- لقد أشار علينا جدعون صديق أبرا...

قاطعني أبراهام محذراً:

- أبي.

- نعم، نعم، آسف، جدعون صديق بينو، بأن نسلك الطريق الشمالي المؤدي إلى معبر وادي الأردن، حيث الإجراءات أكثر تساهلاً والتفتيش أقل صرامة من تلك التي عند معبر جسر النبي.

هذه المرة قاطعني أبو إياد مصححاً:

- تقصد معبر جسر الملك حسين.

- ها، لا بأس، فليكن معبر جسر الملك حسين. أراد اللص جدعون أن يسلبنا ألف دولار أخرى نظير تسهيل عبورنا للضفة من معبر الملك حسين، لكنني رفضت.

- لم. فهذا المعبر قريب من عمان.

سألت جدعون إن كان واثقاً من أن كل أوراقنا سليمة مائة بالمائة فقال نعم. إذن فم حاجتنا لدفع ألف دولار. ساعتين أو ثلاثاً بالسيارة ونصل لمعبر وادي الأردن.

زم أبو إياد شفتيه وقال:

- ساعتين أو ثلاثاً، ما باليد حيلة، ولو أني لم أنم منذ أمس.

غط أبو إياد في النوم وعلا شخير، لم نوقظه إلا عند تفتيش الجوازات من الجهة الأردنية. اطلع الضابط على جوازي السفر الجديدين، لطف وولده إياد، وعلى إفادة شرطة باريس الموثقة من السفارة الإسرائيلية، وختمهما بخاتم المغادرة دون أسئلة.

التفت إليّ أبو إياد وقال:

- لقد كاد أن يتوقف قلبي من الخوف وهو ينظر للجواز.

- تماسك فهازال الجانب الآخر هو الأخطر.

- الله معنا.

ظل ضابط الجوازات الإسرائيلي يقلب جوازي طه وإياد، وينظر للصورة ثم ينظر إليهما، وفي النهاية سأل طه:

- ماذا كنتم تفعلان في باريس.

ظل أبو إياد صامتًا فاغرًا فاه. لا يعرف خروجًا من هذا المأزق الذي لم نعد له عدته، فقد حدثه الضابط بالعبرية. وجهه الشاحب، ويده المرتعشة الممتدة أمامه ممسكة بإفادة شرطة باريس، أوحيا إليّ بفكرة فنفذتها على الفور. ركلته في ركبته من الخلف فاختل توازنه وصاح صيحة ألم، على الفور مددت يدي خلف ظهره وسندته بذراعي وقلت:

- ماذا حدث، هل عاودتك الأزمة.

التقط أبو إياد طرف الخيط وهز رأسه موافقًا، وزاد أكثر من تحامله عليّ وبدا وكأنه سيغشى عليه، فصرخت قائلاً:

- مقعد، أين المقعد، يجب أن يستريح الرجل.

تحرك ضابط الجوازات سريعًا مستدعيًا أحد العمال كي يأتي بمقعد، عندئذ همست في أذن إياد وقلت: «أنت اخرس، فاهم، أنت اخرس، إياك أن تفتح فمك»، أما أبو إياد فكان لا يحتاج توصية فقد تهادى أكثر وتهاوى إلى الأرض.

أتى المقعد فأجلسناه عليه، قال الضابط:

- نستدعي الطبيب.

- لا داعي، سأعطيه الدواء وستحسن حالته.

أخرجت من حقيبتني الدواء المضاد لتخثر الدم وأعطيته قرصًا وقلت «خذ دواءك»، فنظر إليّ مستنكرًا، فقلبت كفيّ وقلت وصوتي تملؤه نبرة رجاء «ماذا يا نعم! هيا خذ دواءك»، امتدت يده المرتعشة والتقطت منها القرص وقذف به داخل فمه.

التفت للضابط وقلت:

- أزمة القلب تداهمه في أي لحظة، مسكين فقد بذل مجهودًا كبيرًا الأيام الماضية.

التفت إليه الضابط وقال:

- بودزدوروف.

يا الله، ماذا نفعل، هذه المرة أظنه تحدث بالروسية، هل ستنتاب أبو إياد نوبة أزمة قلبية أخرى، أو ستنتابني أنا. مرت لحظات تبادلنا فيها النظرات، ولم ندرَ ما سبيلنا للخروج من مأزق اللغات هذا. أخيرًا، أنقذنا الضابط نفسه، إذ قال مفاخرًا، مبدئيًا تفوقه عليّ:

- يبدو أنك لا تعرف الروسية.

ثم ضحك مستنكرًا وقال:

- صديقك روسي ولا تعرف الروسية! أما أنا فأعرف عدة كلمات، تعلمتها من جاري السيد عافيروف. لقد قلت له سلامتك... رأيت،

صديقك فهمني وهز رأسه محيياً وشاكراً لي اطمئناني عليه.

بلعت ريقى وأنا أقول:

- أنت ماهر حقاً يا سيد...

- عامير، الملازم عامير.

- حقاً لقد شرُفت بمعرفتك.

ظل الملازم عامير يقلب في صفحات جوازات سفرنا الأربعة ويدق بأصابعه فوق لوحة مفاتيح جهاز الكمبيوتر وهو يطالع شاشته، وأنا أحاول قدر الإمكان إلهاءه عن التركيز في البيانات.

لقد كنا في باريس في رحلة عمل، وأيضاً كان السيد نعم يزور ابنته التي تدرس بجامعة السوربون. المسكين تعرض هو وابنه لحادث سرقة وهما بمحطة قطار الأنفاق وسرقت كل متعلقاتهما واضطرونا لاستخراج جوازي سفر جديدين لهما. نحن نعمل في تجارة زيت الزيتون الذي تنتجه المستوطنات، يورده السيد نعم لي وأنا أقوم بتسويقه، كنا في رحلة تسويق بأوروبا وعند قدومنا لإسرائيل مررنا على عمان لعقد بعض الصفقات وقررنا العبور لإسرائيل بالطريق البري لإجراء بعض المقابلات مع موردينا في مستوطنات الجليل.

عند هذا الحد توقف الملازم عامير عن الضغط فوق لوحة مفاتيح الكمبيوتر ونظر إلي نظرة متفحصة، ثم ضاقت عينيه ونقر المكتب بأطراف أصابعه. تسارعت دقات قلبي وأحسست بالدنيا تدور من حولي. قلب الملازم عامير صفحتين من الجواز، ثم قال:

- أنت أمريكي؟

أجبتّه متردّدًا:

- نعم.

أطلق ضحكة غبية ممتدة. لم أعرف لها سببًا فرددتها بابتسامة بلهاء، فقال:

- أخيرًا تحالفت أمريكا وروسيا.

هزّزت رأسي مبتسمًا. أما أبو إياد، الذي أظنه كاد أن يصاب بنوبة قلبية حقيقية وهو يستمع لحديثنا من فوق مقعده الموضوع بجواري، فأغمض عينيه كي يبدو وكأنه لا يدري بما يدور من حوله. وقام إياد بإتقان دوره بحرفية، إذ ربت على كتفي وعندما التفت إليه، ظل يشير إليّ بيديه ويصدر همهمة غير مفهومة، فالتفت للضابط وقلت:

- مسكين، أخرس.

أخيرًا ختم الملازم عامير جوازات سفرنا بخاتم الدخول وسلمها لي قائلاً: «أظن صديقك صارت حالته جيدة. مرحبًا بكم في إسرائيل». التفتنا منصرفين، وما إن بعدنا عدة خطوات، حتى سمعنا بالملازم ينادينا، التفتنا ثانية، فوجدناه واقفًا ووجهه متجههم ثم لوح بيده لأبي إياد وقال عدة كلمات، أظنها باللغة الروسية، ثم قال لي مستهزئًا:

- ها، طبعًا لم تعرف شيئًا مما قلت.

وأكمل موجهًا كلامه لأبي إياد:

- ما رأيك أأعرف الروسية جيدًا.

ثم قال موجهًا كلامه لي:

- لقد قلت له «مرحباً بكم في إسرائيل» بالروسية.  
وأعاد ضحكته الغبية مرة أخرى. هززت رأسي مبتسماً، وشدت أبو  
إياد من يده ولوحت للملازم عامير وانصرفنا وأنا أتنفس الصعداء.  
ما إن غادرنا دائرة الجمارك إلا والتفت إليَّ أبو إياد وقال حانقاً بلهجة  
أقرب للسباب:

لقد كدت أن تفسد الأمر كله من أجل ألف دولار، حقاً إنك...  
رفقاً بي يا أبو إياد، نحمد الله أن الأمور انتهت على خير. الآن استمعوا  
إليَّ جيداً كي لا يتكرر هذا مرة أخرى، ستجلسون أتمم الثلاثة في المقعد  
الخلفي للسيارة التي سنستقلها لعين كارم وأنا سأجلس بجوار السائق  
ومعي جوازات سفر كم، ودعوا لي التحدث مع أي مسئول يقابلنا في أي  
نقطة تفتيش أو حاجز أمني... أقول لكم الأفضل أن تناموا.

انطلقت السيارة باتجاه الجنوب، سالكة الطريق الذي يخترق المستوطنات،  
والمحظور على العرب المرور منه. عن يميننا المستوطنات الإسرائيلية بأبنيتها  
ذات الطراز الأوروبي وحدائقها المزينة بحمامات السباحة. أما عن يسارنا،  
فلم أتمكن من رؤية قرى الضفة الغربية لنهر الأردن، إذ حجبتها عنا هذا  
الجدار العازل الذي تبنه إسرائيل لحماية المستوطنات ومنع المتسللين العرب  
من القيام بعملياتهم الانتحارية ضد الإسرائيليين. بعد الظهر بقليل عندما  
ارتقت السيارة إحدى الهضاب صدم بصري إحدى قرى الضفة الغربية،  
اتضح لي حينها أن هناك هدفاً آخر من بناء هذا الجدار العازل، ربما ليعيق  
رؤية هذه القرى فلا تؤذي نظر المستوطنين بحالتها التي لا تتناغم وحالة

تلك المستوطنات الراقية. عندما وصلنا لقمة الهضبة وقبل أن نشرع في الهبوط، قال السائق «ها هي عين كارم أمامنا». عندئذ سمعت حركة آتية من خلفي، فالتفت، فإذا بأبي إياد مستنفر الحواس، منحنيًا بجسده للأمام، متطلعًا بشوق ناظرًا من زجاج السيارة محاولًا استكشاف الطريق، نظرت لوجهه فإذا به قد زال تغضنه والدماء اندفعت في عروقه فزادته نضارة، وشع من عيناه ألق مبهر. لم أره بهذه الحالة المستثارة من قبل. فجأة صاح آمرًا السائق بقوله:

- توقف.

فالتفت إليه سائلًا:

- لم؟

لم يستمع إليّ، فقط أعاد أمره للسائق:

- أقول لك توقف.

انحرف السائق بالسيارة ليمين الطريق وتوقف، فقال لي أبو إياد:

- أنزل.

- لم؟!

- سأركب أنا في الأمام.

انصعت صاغراً دون نقاش. جلس أبو إياد على حافة المقعد بجوار السائق، مال للأمام ساندًا يديه على مقدمة السيارة كالأطفال. وظل يتطلع يمينًا ويسارًا، كأنه أراد استكشاف المكان وتحفيز ذاكرته. ثم بدأ في الكلام ولم يصمت:

- هذه هي الهضاب الأربع التي تحيط بعين كارم. من هنا، إلى الغرب، الطريق إلى القدس. وإلى الشمال، الطريق التي سلكنها عندما غادرنا القرية بعد العدوان على دير ياسين، دير ياسين... دير ياسين، نعم هنا إلى الشرق من عين كارم، وهناك تقع قرية المالحه، أما في هذا الاتجاه فتقع قرية الجورة، و.....

قاطعته متسائلاً:

- كيف تتذكر كل شيء رغم أنك غادرت عين كارم منذ أكثر من ستين عامًا.

- أنا لم أغادرها، فأبي كان لا يدع يوماً يمر من دون أن يعيد على ذاكرتنا كل تفاصيل حياتنا في عين كارم ويصف لنا كل شبر من أرضها، وكذلك فعلت أنا مع إياد، وإياد يفعل نفس الشيء مع ابنه نضال. ثم عاود الوصف والتذكر مرة أخرى ولم يتوقف إلا عندما قال السائق: - لأي مكان في عين كارم تريدون توصيلكم. أجابه أبو إياد:

- إلى ساحة القرية، بجوار عين الماء.

حال نزولنا من السيارة، انفصل عنا أبو إياد تمامًا، لم يجرؤ أي منا على قطع هذا الجبل الذي امتد إلى الماضي وأخذ يشد أبو إياد إليه بقوة. عاد صبي في الثالثة عشرة من عمره، ظل يتلفت من حوله مستكشفًا المكان. نظر للسماء، خاطب الطيور، استنشق التراب، عانق الأشجار، احتضن النسيم. رغم برودة الجو، خلع معطفه وألقاه فتلقفه إياد. أشار لمبنى من طابقين وقال:

- في هذا المكان كان يوجد مسرح القرية الذي أسسه عم نجيب العليّ.  
- أظن مازال المكان مسرحًا.

- كيف عرفت.

- لأنه مكتوب عليه «اليوم تبدأ عروض الفرقة القومية الإسرائيلية  
للفنون الشعبية - عروض لرقصات من التراث القومي العبري - رقصة  
الدبكة».

- الدبكة! تراث قومي عبري؟

- نعم.

- إذا كان هذا هو المسرح، إذن ففي الجهة المقابلة تمامًا تقع المدرسة  
الابتدائية التي درست بها. والمسجد يكون إلى الشرق منها. فعلاً، انظروا  
هناك - وأشار لأعلى - مازالت مئذنة المسجد ترتفع إلى جوار قبة كنيسة  
يوحنا المعمدان... بيتنا كان يقع إلى الجنوب من المسجد، على الطريق  
الوحيد المعبّد في القرية.

- آه، بيتكم، هذا هو بيت القصيد، أين بيتكم.

استمر في محادثة نفسه متجاهلاً تساؤلي:

- الآن كل الطرق معبّدة. فأَي الطرق تؤدي لبيتنا... تذكرت، الطريق  
المعبّد كان يمتدّ مخترقاً القرية ليصل للطريق العام الذي يربط القدس بيافا،  
هذا الطريق كان يمر من شمال قريتنا، إذن فبيتنا في هذا الاتجاه.

هم بالسير في الاتجاه الذي حدده ونحن نتبعه. كان يسبقنا بعدة خطوات،  
توقف فجأة، وظل يحملق في أحد الأبنية ثم رفع يديه لأعلى ودار دورة كاملة

على قدم واحدة وتوقف في مواجهتنا وصفق بيديه فرحاً وقال: «هذا بيت عم درويش، مازال قائماً كما هو». بعد أن تأكد أنه في الطريق الصحيح انطلق مسرعاً ونحن خلفه بالكاد نلاحقه، أخذ يزيد من سرعته شيئاً فشيئاً، تحول المشي إلى هرولة ثم عدواً، صحت منادياً عليه أن يبطئ «مهلاً لا أستطيع ملاحقتك»، فلم يستمع إليّ، أشرت لأبراهام وإياد أن يجدا في السير خلفه. ابتعد عني كثيراً، أخيراً وقف يلهث في مواجهة بيت يقع عن يمينه، نظر إليه ملياً، ثم انحنى مرتكزاً بكفيه على ركبتيه محاولاً التقاط أنفاس لم تألف مثل هذا المجهود منذ زمن بعيد. لم يستطع الكلام، فقط أشار بيده اليمنى كأنه أراد أن يقول «هنا». ثم تهاوى مغشياً عليه.

أسرعت الخطى إليه وأنا أتلفت يمينا ويساراً تحسباً لوجود من يراقبنا، وجدت الطريق خالياً تماماً فأسرعت أكثر. جلس إياد على الأرض بجوار والده ووضع رأسه فوق فخذه وظل ينادي عليه: «أبي، أبي، أفق، أنت في عين كارم». كان وجهه شاحباً، ويلتقط أنفاسه بصعوبة، مددت يدي أتحسس نبضه، بالكاد شعرت به تحت أصبعي. طلبت منهم أن نحمله بجانب الطريق. لم يستجب إياد لطلبي وظل يربت بلطف على خد أبيه الأيمن. أخيراً بدأ يفيق، فتح عينيه، تأمل وجوهنا كأنه يراها لأول مرة، أغلق عينيه وفتحها ثانية، بدا آتياً من زمان بعيد، تكلم بصعوبة وقال: «إياد، أهذا هو بيتنا»، أشار برأسه وقال «نعم، كما وصفته لي تماماً». فقلت له مداعباً:

- لقد خدعتني.

- لم.

- قلت إنك شيخ طاعن فإذا بك شاب في العشرين.

نهض مستنداً على ذراع إياد، وتقدم بخطوات بطيئة نحو بيته، كدت أسمع دقات قلبه مع كل خطوة يخطوها. كلما اقترب خطوة استعاد بعضاً من حيويته ونضارة وجهه. عندما عاودته ثقته بنفسه دفع يد إياد المستند إليها بعيداً عنه، وتقدم بخطى ثابتة حتى لاصق بوابة المنزل الحديدية المغلقة بمزلاج مزود بقل كبير. أمسك بقضبان البوابة الحديدية فبدا وكأن العالم بأسره سجن له وهذه البوابة الحديدية هي الحاجز بينه وبين حريته. أحكم قبضة يده على القضبان الحديدية وأخذ يدفعها بقوة. ربت إياد على كتفه وقال: «هون عليك يا أبي، سنجد طريقة للدخول، قل حمداً لله، إذ يبدو أن المنزل غير مأهول بالسكان». ظل واقفاً بلا حراك متشبهاً بالبوابة ناظراً إلى بيته نظرة عاشق التقى حبيبته. تركناه حيث هو، وتجولنا حول المنزل كي نستكشفه.

المنزل محاط بسور عالٍ من حجر البازلت الأحمر والأسود، نما عليه العديد من النباتات المتسلقة - فضية ولبلاب ومخالب القط - فتداخل لون أوراقها الخضراء المفضضة وأزهارها البيضاء بألوان الحجارة فشكلت لوحة بديعة أضفت على السور حياة تحالف واقع البيت وتجعل تسلق السور مستحيلاً. لا يوجد مدخل آخر سوى هذه البوابة الحديدية، التي من خلالها استطعت أن أرى أن البيت مكون من طابقين مبنيين بالحجر الجيري وتحيطه حديقة واسعة يخترقها ممشى معبد بأحجار جرانيتية ويمتد من البوابة إلى مدخل البيت الذي يرتفع عن الأرض بثلاث درجات رصت على جوانبها أصص

نبتت بها زهور الجرونيا والتولب. باب البيت ونوافذه محاطة بقناطر ذات طراز إسلامي، أما شرفات الدور الأول فمحمولة على عمودين ذوي تيجان بطراز بيزنطي وسورها من الحديد المشغول. تأملت الحديقة، بها العديد من أشجار الصنوبر والبلوط والصبار. ولكن أين، أين هي؟ دفعت أبو إياد في كتفه وقلت:

- أين شجرة السنديان.

نظر إليّ ملياً ولم يجيني، فأعدت سؤالاً:

- لا أرى أثراً لأشجار سنديان بالحديقة.

- شجرة السنديان بالفناء الخلفي.

تنفست الصعداء وقلت:

- إذن فلنستريح قليلاً ونفكر كيف سنتمكن من دخول البيت.

قال أبراهام:

- ليتنا نأكل أيضاً، فأنا جائع، لقد رأيت مطعمين في ساحة القرية. هناك أسفل المبنى المزود ببرج للساعة.

قال أبو إياد:

- اذهبوا أنتم، أنا باقٍ هنا.

- وجودك هكذا سيثير الريبة، أرجوك تعال معنا، تستريح ونفكر، ونشتري أيضاً أدوات للحفر.

وقفنا أمام المبنى ذى البرج المزود بالساعة، قال أبو إياد:

- أي المطعمين ندخل.

- ليس أمامنا خيار.
- لم.
- لأن أحدهما كتب على لافتته «ممنوع دخول العرب».
- أطرق أبو إياد أسفًا، ثم رفع رأسه ببطء وقال مستسلمًا:
- إذن فليس أمامنا سوى المطعم الآخر... أي نوع من الأطعمة يصنعها.
- ها هو مكتوب على لافتته.
- بالعبرية.
- وبالعربية أيضًا.
- الخط العربي صغير ولا أستطيع قراءته.
- إنه مطعم «ها برخا - ها رَحْمَنُوت».
- ماذا تعني.
- تعني مطعم البركة والرحمة. مكتوب أيضًا أنه مطعم للأكلات الشعبية «أفضل حمص وتبولة»، لصاحبه شموئيل العبراني.
- عندما جاء النادل، سأله أبراهام:
- من أين يمكننا شراء فأس وجاروف؟
- تبدوون غرباء.
- أجاب أبو إياد بتلقائية:
- لا.
- استدركت قائلاً:
- لسنا غرباء عن المنطقة ولكننا غرباء عن عين كارم.

- تجدون طلبكم عند محل بابيه بجوار موقف الحافلات.
- شكرًا.
- أثناء انتظارنا للطعام تساءل إياد:
- ألم تلاحظوا شيئًا غريبًا.
- ماذا؟
- مع أن البيت يبدو غير أهل بالسكان إلا أن الحديقة تبدو منسقة ونظيفة ومعتنى بها.
- أيده أبو إياد بقوله:
- كذلك السور لم يكن بهذا الارتفاع.
- لكم الحق، هذا أمر غريب، يجب أن ننتهي من مهمتنا سريعًا، فربما البيت به سكان ولكنهم مسافرون مثلاً.
- وربما يعودون في أي وقت.
- ولكن كيف سندخل الحديقة. لا يمكننا كسر ذلك القفل.
- والسور عالٍ ويصعب تسلقه.
- جاء النادل بالطعام، فقال أبراهام:
- فلنتناول طعامنا أولاً ثم نفكر، أنا جوعان.
- لم أكن أعرف أننا جوعانين لهذا الحد إلا عندما جاء الطعام. تخلقنا حول مائدة عامرة بالحمص والتبولة والزيتون وفول بزيت الزيتون والزعتر والجرجير والبصل الأخضر والبقدونس. تناولنا الطعام بنهم وشهية مفتوحة.

أثناء احتسائنا لأكواب الشاي بالنعناع، بدأ أبو إياد شارداً ذهن، وفجأة  
دق المائدة أمامنا فاهتزت الأكواب وانسكب بعضاً منها، لم يهتم، ولكنه  
صاح قائلاً:

- وجدتها، وجدتها، لقد تذكرت.
- ما الذي وجدته وتذكرته.
- مدخلنا لحديقة بيتنا. أتمنى أن تكون مازالت موجودة.
- ما هي.
- قل لي أولاً، عندما تجولتم حول البيت ماذا وجدتم مقابل واجهته الخلفية.

- مزارع.
- زيتون وبرتقال.
- نعم.
- ما زالت مزارعنا كما هي... من واجهة السور المطلة على المزارع كانت هناك فجوة كبيرة فيه، كنا نتسلل منها إلى المزارع من دون أن يرانا أبي أو جدي، ونغلقها خلفنا بحجر وبيعض الحشائش. وحتى مغادرتنا لعين كارم كانت لانزال موجودة.

- إذن ماذا ننتظر هيا بنا.
- فلنبع أولاً أدوات الحفر. ولنذهب فرادى حتى لا نثير ريبة من يرانا، ولتقابل في مزارع الزيتون عند السور الخلفي.

~~~~~

لم ينقطع ضحكي عندما رأيت الفجوة التي حكى عنها أبو إياد، وقلت له:

- هذه الفتحة تصلح لصبي في الثانية عشرة، أما الآن ف...

- فلنوسعها.

انتحينا جانبًا، أنا وأبو إياد، حتى انتهى أبراهام وإياد من توسيع الفجوة بهدوء.

أول من نفذ داخلًا من الفتحة كان إياد، تبعه أبوة، ثم أنا وتلاني أبراهام. عندما دخلت وجدت أبو إياد ساجدًا، لا أدري أشاكراً به أم يقبل الأرض. رفع رأسه فإذا بعينيّ تفيضان بالدمع، ظل يتجول في أنحاء الحديقة، يقف في أماكن بعينها كأنه يتذكر مواقف تتداعى لذاكرته، دار حول البيت، حاول فتح الباب، أو أي من النوافذ، فلم يستطع. أما أنا فسارعت بالوقوف بجوار شجرة السنديان وأخذت أتحسس الأرض من حولها. رجوت أبو إياد أن نبدأ البحث عن الكنز قبل هبوط الظلام، فاقترب من الشجرة وظل يتطلع من حوله وقال:

لقد قال لي أبي: احفر على بعد ثلاثة أذرع من الشجرة في اتجاه القدس... القدس في اتجاه الشرق أي في هذا الاتجاه.

ثم قاس ثلاثة أذرع في اتجاه الشرق وقال:

- فلنبدأ الحفر هنا ولعمق ثلاثة أقدام، عندها سنجد الكنز بإذن الله.

جلس على الأرض، وأمسك بيدي وشدني لأسفل داعيًا إياي للجلوس بجواره وقال:

- فلنجلس لحين انتهائهما من الحفر. اجلس، لا تحف، فتراب عين كارم زعفران.

الحق أنني لم أكن أريد الجلوس، كنت أريد أن أقف على رأس الحفرة لتكون عيناى أول من ترى الكنز، أو أن أنبش الأرض بأظافرى لتكون أنا ملي أول ما يلامسه. ولكنى أذعنت لدعوة أبو إياد وجلست بجواره. ظل يروي لى عن ذكرياته فى عين كارم وأنا منصرف الذهن عنه تمامًا. سمعى وبصرى مركزان على ضربات فأس إياد وجاروف أبراهام.

عندما صار عمق الحفرة كبيرًا للدرجة التى اختفى جسد إياد فيها حتى خصره، لم أطق صبرًا، وقمت تاركًا أبو إياد لذكرياته ناظرًا لمستقبلى الذى سيحدده ما سنجدّه فى هذه الحفرة.

توقف إياد عن الحفر ودق الأرض بخلفية الفأس وقال «أسمعون»، عندئذ قام أبو إياد وانضم إلينا، ووقفنا سويًا على رأس الحفرة، فأكمل إياد «يوجد صندوق خشبى». كدت أقفز للحفرة فمنعنى أبراهام وقال «مهلاً يا أبى». انحنى إياد وأبراهام متكئين على الأرض بركبتيهما، وأخذوا فى إزالة الرمال من حول الصندوق بأيديهما، وكلما اتضحت معالم الصندوق ازداد خفقان قلبى وتعرت يداى. أخيرًا أمسك كل واحد منهما بطرف الصندوق وجذباه لأعلى فتلقفناه أنا وأبو إياد وصار أمامنا خارج الحفرة.

موسى

القاهرة

عندما أعطاني الضابط الفرنسي مهلة أربعة وعشرين ساعة أأغار بعدها فرنسا، لم أعرف إلى أين أذهب، أوروبا كلها صارت غير آمنة لأمثالي، أمريكا، سرحلوني من المطار بقوة اللوبي الصهيوني. ففكرت في مصر، فهناك أختي راحيل وبيتنا القديم، ولن يجرؤ الموساد على ملاحقتي بها، فقررت العودة.

لولا الجنسية الإنجليزية التي حصلت عليها أثناء عملي بمنظمة العفو الدولية ما كان دخولي للقاهرة بهذه السهولة.

لا أصدق أن أكثر من خمسين عامًا مضت منذ أن غادرنا القاهرة. آخر عهدي بها كان يوم أن صحبت أختي راحيل من حي الظاهر، حيث نقيم، لأوصلها لحي حارة اليهود حيث مازالت تقيم خالتي هيلينا. آه، أتذكر يومها اخترقنا حارات الحي متوجهين لحارة العطار حيث يوجد بيتنا القديم... بيوت كثيرة هجرها أهلها. حوشا هراري وقطاوي مغلقان، الورش تلفظ أنفاسها. المعابد تجاهد كي تبقي أبوابها مفتوحة. أيقنت

حينها أننا لسنا وحدنا من قرر الرحيل عن مصر .
 عندما رأنا قادمين من أول الحارة، تهلل وجهه وأشرق بابتسامة رائقة
 ملأته وفاضت بحيويتها لتشمل سائر جسده، وبقفزة واحدة صار أمامنا.
 تهدلت خصلة من شعره على جبينه. فقالت راحيل ضاحكة:
 - يبدو أنك نسيت أن تدهن شعرك بالبريانتين.
 ارتبك مصطفى ولم يعرف أرفع خصلة شعره بيده، أم يمدّها ليصافح
 يدي الممتدة إليه. صمم أن يحمل عني حقيبة ملابس راحيل. سار بجوارنا
 حتى البيت، أخذت منه الحقيبة وأنا أنظر لفرن جدي وقلت:
 - أما زالوا يخبزون فطير الماتسا؟
 هز مصطفى رأسه بالإيجاب. ثم سألني:
 - لماذا ستغادرون مصر؟ ألم تولدوا هنا، هذه بلدكم!
 رفعت كتفي لأعلى ولم أعرف بماذا أجبه. فقال «انتظرا دقيقة». غاب
 قليلاً داخل منزله ثم عاد يحمل في يديه تمثالين على هيئة عروسة وفارس
 يمتطي جواد مصنوعين من السكر وأهداهما لنا وهو يقول: «أبي يصنع هذه
 الحلوى، فغداً مولد النبي، كل عام وأنتم بخير».
 رحبت خالتي بقدوم راحيل للإقامة معها بعناق حار. وودعني بعناق
 أكثر حرارة واستودعني أمانة توصيل قبلاتها لأمي وأبي وأخي داوود.
 وقفنا، هي وراحيل، أمام باب الشقة تلو حان لي ودموعها تنهمر فوق
 وجنتيهما. بعد أن هبطت بضع درجات من السلم، التفت وقلت لخالتي:
 - خالتي.

- نعم.

- سيظل فرن جدي يعمل؟

- أكيد.

فرفعت كتفي استنكارًا وقلت:

- لمن نخبز الفطير؟

.....

- لم يعد هناك يهود بالحارة.

ظلت خالتي على صمتها، وعلت وجهها أمارات اليأس والإحباط. استأنفت تلويحها ومسح دموعها. فالتفتُ وقفزت درجات السلم، كل اثنتين أو ثلاثًا سويًا، متكئًا على فتوة شاب لم يتمم السابعة عشرة بعد، وغادرت حارة اليهود للأبد - هكذا ظننت حينها - ولكن ها أنا أعود إليها شيخًا طاعنًا تجاوز السبعين.

~~~~~

فجأة، وبعد خمسمائة متر فقط من مغادرة مطار القاهرة، تعطلت سيارة الأجرة - الليموزين - التي ركبته لتقلني لحارة اليهود. اقترح السائق أن يتصل بأحد زملائه ليأتي ويكمل المشوار. فرفضت وطلبت منه أن يلوح لأي سيارة أجرة عادية مارقة.

سألني سائق سيارة الأجرة:

- على فين يا باشا.

- حارة اليهود.

- إيه؟ حارة اليهود! ما أنا قلت شكلك مصري... مائة جنيه.

هززت رأسي موافقًا. فقال:

- نأخذ طريق صلاح سالم؟

- أي طريق، لا يهم.

بالطبع لم أتوقع أن أجد القاهرة كما غادرتها، ولكني أيضًا لم أتخيل أنها بهذا الزحام الخانق. دعوت السائق كثيرًا أن يلتزم بطريقة أفضل في القيادة، ولكنه لم يبالٍ بمحاولاتي المتكررة التي تحولت لرجاء ولكن لا أمل أن يستجيب. في البداية عمل على تهدئة روعي، ولكنه لم يصبر على ذلك كثيرًا وأبدى، بطريقة الفظة في الرد وبإشارات يديه الغاضبة، أنه لن يحتملني أكثر من هذا فالتزمت الصمت.

كنت خاطئًا، فما ظننته زحامًا من قبل، لا يقارن بما رأيته في منطقة الأزهر. توقف السائق بالسيارة في وسط الطريق بجوار مطلع أحد الكباري وقال لي:

- تفضل يا باشا.

- أين.

- هنا.

- أنا أريد الذهاب لحارة اليهود.

- ما هي على يمينك.

- أريد حارة العطار.

- لا يمكن الدخول جوه.

- معي حقائب.
- حضرتك ولا مؤاخذة تؤجر ولدًا من هؤلاء، يحمل لك حقائبك، ويدخلك جوه.
- وأشار لعدد من الصبية يقفون بجوار الرصيف وكل واحد منهم يمسك بعربة معدنية تدفع باليد. استسلمت لقراره وأعطيته عشرين دولارًا، وأشارت لأحد الصبية فحمل الحقائب على عربته وهو يقول.
- على فين إن شاء الله.
- حارة العطار.
- حارة العطار... عشرة جنيهات.
- هززت رأسي موافقًا. هم سائق السيارة الأجرة بالتحرك، فأمسكت بالباب وقلت:
- باقي عشرة جنيهات، أعطاها للصبي.
- نظر إليّ بغیظ وقال:
- مصري، مصري.
- أعطى الصبي العشرة جنيهات. ثم قال وهو ينطلق بالسيارة:
- يا ستار يا رب، أنت يهودي؟
- دفع الصبي بالعربة أمامه وسار مخترقًا الحشود بمهارة فائقة وبسرعة من دون أن يرتطم أو يحتك بأحد. وأنا من خلفه أرجوه أن يبטי قليلًا فلا يلتفت لرجائي.
- أخيرًا توقف وسألني:

- فين في حارة العطار.

قلت لاهثاً، وأنا أتمنى أن يكون فرن جدي مازال يعمل كما قالت لي  
راحيل في آخر محادثة هاتفية تمت بيننا منذ بضع سنين:

- عند الفرن.

فحك رأسه وقال:

- ماشي.

أخرج سيجارة من جيبه وأشعلها، ثم عاود دفع العربة بيديه ودخان  
السيجارة ينفث من فمه متتابعاً من دون أن يخرجها منه.

توقف في وسط الطريق وأشار قائلاً:

- الفرن.

تلفت حولي مستغرباً، لم أستطع التعرف على أي شيء، ولم أعرف حتى  
إننا في حارة العطار. أمام الفرن يجلس رجل في منتصف الثلاثينيات أطلق  
لحية كثة ويرتدي جلباباً أبيض، فقلت له:

- أهذا هو الفرن الذي يقع في حارة العطار.

- نعم. من تريد.

قبل أن أجيب قال الصبي بزهق:

- عليّ النعمة هو.

التفتُ للجهة المقابلة، فرأيت بيتاً قديماً يقع أسفله عدد من الورش،  
بالكاد استطعت أن أتين مدخل البيت من بينها. ورأيت أعلى المدخل  
لوحة رخامية عليها كتابة مطموسة تحت أتربة لم تنظف منذ عشرات

السنين. عندما دقت فيها ففز قلبي فرحًا إذ رأيت فوقها بقايا نجمة سداسية الشكل.

نبهني الصبي بقوله:

- خدمة ثانية يا بيه.

- أحمل الحقائق لأعلى وسأعطيك خمسة جنيهاً إضافية.

فكرر الرجل ذو اللحية سؤاله:

- من تريد.

- السيدة راحيل.

- عندك في الدور الأول. أنا عارف زوارها كثروا ليه اليومين دول.

~~~~~

أعطيت الصبي دولارًا، فقلبه بين يديه ثم قبله ووضعته في جيبه وانطلق هابطًا السلم قافزًا كل درجتين أو ثلاثًا سويًا. ابتسمت وضغطت زر الجرس. لم يجب أحد. انتظرت قليلًا وعاودت الضغط ثانية. اقتربت بأذني من الباب وألصقتها به لعلني أسمع أي صوت داخل الشقة، فلم أوفق. فوضعت يدي على زر الجرس ولم أرفعها، فجاء صوت من الداخل «نعم، نعم، اصبر، أنا لست جالسة خلف الباب». رقص قلبي وتسارع إيقاعه لدى سماعي صوت راحيل، تعجلت فتح الباب، أريد أن أرى وجهها ووقع المفاجأة عليه. جاء صوتها مرة أخرى:

- من؟

- أنا.

- أنت من؟

- افتحي الباب وستعرفين.

الباب كما هو، لم يتغير، جزءين بكل جزء شراعة تفتح مستقلة. رأيت يدها تمتد من خلف الزجاج وتسحب مزلاج الشراعة اليمنى. ظهر وجهها من خلف الحديد وكررت سؤالها:

- من؟

- ألم تعرفيني.

حدقت أكثر، لمعت عيناها وصرخت «داوود». لم تتمالك نفسها وسقطت مغشياً عليها. مددت يدي من فتحة الشراعة وأدريت مقبض الباب وفتحته بحرص كي لا أؤذي جسدها المسجى خلف الباب. لم أستطع حملها للفراش، فأخرجت من حقيبتي زجاجة عطر ووضعت رأسها على فخذي ونثرت قليلاً من العطر فوق وجهها بالقرب من أنفها، فتحت عيناها على مهل وحدقت محاولة استيعاب ما ترى، وقالت بصوت واهن:

- أحقاً ما أرى؟

- نعم حبيبتي، مع فارق بسيط، أنني موسى ولست داوود.

لففت ذراعي خلف ظهرها ورقبتها وطوقتها بهما وجذبتها لأعلى فتعانقنا في حضن بثثنا فيه أشواق سنين البعاد، انهمرت دموعنا وعلت نهنهتنا. أمسكت برأسي بين يديها وتأملت ملامحي ثم قالت:

- من أين أتت تلك القسوة.

- قولي ما شئت فلك الحق.
- تكفيني رؤيتك.
- قالت وهي تستند إلى ذراعي كي تنهض:
- ما أخطأت بينكما يوماً.
- السنون باعدت بيننا.
- وأضفت ضاحكاً:
- أنا نفسي يختلط عليّ الأمر، فلا أدري هل أنا موسى أو داوود.
- ضحكت، ثم أطلقت صيحة ألم وهي تمسك بذراعيها. فقلت:
- سلامتك هل أوديت.
- أنت السبب، لن تكف أبداً عن مفاجأتك، الحمد لله أن عظامي لم تكسر.

~~~~~

كيف نُحتزل سنين العمر في لحظات. ترانا ولا نراها، تختبئ منا، تخافنا، تعلم بحمقنا، تعرف أننا سنضيعها. لا ندرکها إلا بعد فوات الأوان، نكتشفها عندما تكون قد أفلتت منا. لو تحققنا منها في وقتها ما ضيعناها وتشبثنا بها. ولكنه جهلنا، ربما غورونا، هو ما يفقدنا أحلى معاني حياتنا فنظل نبحث عنها وقد كانت بين أيدينا، فنتوه.

مشاعري متضاربة، وددت لو جريت لأنفقد غرف بيتنا، كما كنت أفعل دائماً ونحن صغار عند عودتنا من المصيف وغيابنا عن البيت شهرين وربما ثلاثة. كنت أشتاق لكل ركن فيه، فأجول في غرفة حتى أتأكد أن كل

شيء كما هو، أفتح خزانة ملابسي وأغلقها، أطمئن أن كرتي التي نسيت أن أخذها معي للمصيف مازالت محتفظة بهوائها، فأضغطها بين كفي وأضربها في الأرض فترند إليّ، وكيس البلي الذي أخفيه بعيداً عن عين أُمي مازال موجوداً بدرج مكتبي. أتمدّد على فراشي، أتقلب فوقه، أنظر أسفله، أقفز فوق المقاعد، أنظر من النوافذ. وددت لو استطعت أن أفعل كل هذا، أن أجد كرتي وكيس البلي. لكنها لحظات أفلتت وتبخرت معها سنون العمر. أمنيّتي لن تعيد أياً ما ولت، هي مجرد أمنية كالحلم، حلم نعيش في أحضان دقائقه عمرنا كله، نخترل السنين ونطوي الزمان في لحظاته. راحيل استطاعت أن تعيش الاثنين سوياً، الحلم والواقع، من دون أن تخلط بينهما، الحلم لها وحدها، وواقعها يشاركها فيه من حولها. فمنذ أن فقدت مصطفى جعلت حلم الارتباط به واقعا خاصاً لها عاشته بكل جوارحها، صنعت من خيالها عالماً وردياً وحبت نفسها فيه طواعية، ساعدها في هذا وصية مصطفى لأخيه هاشم قبل رحيله «ضع راحيل وخالتها في عينيك لحين عودتي من الحرب» مازال هاشم يعمل بوصية أخيه ويصون راحيل ويدفع عنها أذى ابنه حسان - ذلك الرجل الملتحي ذو الجلباب الأبيض الجالس أمام فرن جدي - حسان يستأجر الفرن ولذا يتمنى لو رحلت راحيل عن مصر، أو عن الدنيا كلها، كي يتمكن هو من وضع يده على الفرن والبيت كله.

دق جرس الباب أثناء إعداد راحيل لفنجانين من القهوة. فتحت الباب، فإذا بصبي يسألني:

- الخالة راحيل موجودة.
- من أنت.
- أنا مصطفى.
- أنت راحيل سائلة:
- ماذا تريد يا مصطفى.
- أبي يسألك هل تريد شيئا.
- لا، أشكره.
- انصرف الصبي، فنظرت لراحيل مستفسرا فقالت:
- هذا مصطفى حفيد هاشم.
- ابن حسان.
- نعم.
- وماذا يريد.
- هو فقط يريد أن يطمئن من الزائر الذي جاءني. لو عرف من أنت لمات  
كمداً.

\*\*\*\*\*



## داوود «دافيد»

### عين كارم

تحلقنا حول الصندوق وجلسنا صامتين.  
صندوق خشبي مزين بقطع من النحاس، حفرت عليه نقوش لحيوانات  
وطيور، ومغلق بقفل كبير.  
أمسكت القفل وهزته وقلت:  
- فلنكسر هذا القفل.  
اعترضني أبو إياد قائلاً:  
- بل انتظر.  
ومد يده في جيبه وأخرج مفتاحاً أدخله في فتحة القفل وهو يقول:  
- أعطاني أبي إياه قبل وفاته.  
قبل أن يفتح الصندوق أمسكت بيده وقلت:  
- كما اتفقنا، نصف الكنز لي.  
هز رأسه مؤكداً، ثم أدار المفتاح فتحرك بصعوبة مصدراً صوت صرير  
اقشعر له بدني، وفي لحظة، تعالت فيها دقات قلبي، انفلت عمود القفل عن

جسده، وبقي فقط أن يسحبه أبو إياد ويحرر غطاء الصندوق.

رفع أبو إياد الغطاء وعيونا جميعاً معلقة بكل فرجة ينفرج عنها. ما إن صار الغطاء مرتفعاً بمقدار شبر، لم تنتظر حتى يكمل أبو إياد رفعه ودسنا رؤوسنا داخل الصندوق.

عدنا برؤوسنا للخلف وظللنا نحملق في بعضنا البعض، وقلت:

- ما هذا.

كان بداخل الصندوق كيس كبير من القماش الأبيض، مغلق بحبل ملفوف ومربوط حوله من أعلى، وفوقه يوجد صندوق آخر صغير مطعم بالصدف ومغطى بقطعة من القטיפئة المخملية. امتدت يد أبو إياد المرتعشة وأمسكت بالصندوق الصغير وأخرجته. رفع قطعة القטיפئة وأخرج من الصندوق مفتاحاً وورقة مطوية. تأمل المفتاح قليلاً ثم دسه في جيبه. بدأ جسده كله في الارتعاش والاهتزاز وهو يفض الورقة. ذكرني بالحاخام في معبد «رب موسى» بعطفة الحمام في حارة اليهود بالقاهرة وهو يخرج لفائف التوراة من صندوقها الذهبي المرصع بالذهب والفضة. انتظرت أن يتلو علينا أبو إياد ما بالورقة بنفس طريقة الحاخام، فيجعل عباراته ممطوطة ومموجة. ولكن ظل أبو إياد صامتاً وعينه تطلع ما بالورقة، فقط انتابته حالة من الوجدان شبيهة بتلك التي كانت تنتاب الحاخام وهو يقرأ من أسفار التوراة.

عندما انتهى أبو إياد من القراءة، رفع رأسه، فهالني التعبير الذي أطل من عينيه، ومد يده المرتعشة وأعطاني الورقة، فقلت بصوت أجوف متردد:

- ماذا بها؟

- اقرأها.

- «ولدي العزيز طه

لا أعرف متى سيتسنى لك قراءة خطابي هذا. إذا كانت قد وافقتني المنية  
فلتعهده وصيتي إليك.

بداية أرجو أن تسامحني فلم أجد سوى هذه الطريقة لتكون حافزك  
للعودة لدارنا. الكنز الحقيقي موجود بداخلنا، في قيمنا، في تراثنا، في ديننا،  
في تاريخنا. لا تظن أنني خدعتك، فحبوب الحنطة التي تملأ هذا الكيس هي  
كنزنا، انثرها، ولا تغادر أرضنا ثانية حتى تحصد سنابلها.

ملحوظة: مرفق مفتاح للدار.

انتهيت من قراءة الخطاب فخيم صمت الصدمة لبرهة قصيرة، أول من  
استفاق كان أبراهام الذي زجر قائلاً بغضب:

- ما هذا، لقد خدعتمونا.

أجابه إياد:

- نحن لم نخدعكم.

- خدعنا جدك.

لم يخدعكم أحد، جدي لم يكن يعرف أن أرضه ستسرق منه، وأنه لن  
يسمح له بالعودة إليها، ولم يكن يعلم أنكم سترافقونا في هذه الرحلة.  
وقل لي ألم تكونوا تطعمون في نصف الكنز، لقد خدعكم طمعكم. أعطهم  
نصف حبوب الحنطة يا أبي.

- لا، بل تنثروا الحبوب كما أمركم جدك. ولنا نصف الأرض التي تنثر فوقها.

- ولا شبر واحد، فقط لكم نصف المحصول، على أن تقوموا برعاية الأرض.

- إذن أعطونا نصف المنزل كي نقيم فيه.

- ولا غرفة واحدة، استأجروا منزلاً إذا شئتم.

- أنتم لصوص، نصايين.

- لقد تعدت حدودك أيها الكلب.

- أنا كلب أيها الزاني.

وسدد له لكمة قوية، ردها عليه إياد، واشتبكا في شجار عنيف.

هممت بالقيام لفض تشاجرهما، فجذبني أبو إياد من يدي ليمنعني،

وقال:

- ابقَ هنا بجواري. لو دفعك أحدهما لأطاح بك، وربما قضى عليك.

دعهما يتعاركان عراكهما العقيم هذا، فإما أن يكونا عاقلين ويدركان

عدم جدوى قتالهما، أو يكونا أحمقين ويسقطان من الإعياء. وفي الحالين

سيتوصلان للحل.

- وما هو الحل برأيك.

- أن تبحثا عن طريقة أخرى لتخرجكما من أزمتكما.

- وأنت.

- سأبقى هنا حتى أحصد سنابل الحنطة كما أوصاني أبي.

ومد يده ودسها داخل الكيس الأبيض وأخرج حفنة من حبوب الحنطة، ثم نهض واقفاً وأخذ ينثر الحبوب. أخرج حفنة أخرى وأعطاهما لي وهو يقول «هيا ساعدني».

أمسكت بحبوب الحنطة وفردت ذراعي عن آخرها ونثرت الحبوب في الهواء فتساقطت فوق أبراهام وإياد وهما يكيلان اللكمت لبعضهما البعض، توقفا قليلاً ينظران للحبوب المتساقطة، انتهز أبراهام الفرصة فكال لكمة قوية لإياد أطاحت به أرضاً. بالكاد استطاع أن يتحمل على نفسه ويتكئ على يديه وركبتيه في محاولة للقيام فسد له أبراهام ركلة أطاحت به ثانية. أخذ أبو إياد حفنة من حبوب الحنطة ونثرها بينهما فأعادت محاولة أبراهام لتسديد ضربة ثالثة لإياد الذي سرعان ما استعاد توازنه وقفز ممسكاً بقدمي أبراهام وسحبها فأسقطه واعتلاه وانهال عليه ضرباً باللكمات. حاولت التدخل فمنعني أبو إياد مرة أخرى وأعطاني حفنة أخرى من حبوب الحنطة لأنثرها. ظل الأمر سجلاً بينهما حتى أنهكا تماماً وسقطا من الإعياء. فالتفتُ لأبي إياد وقلت:

– لقد سقطا.

– مازالا أحقين... انتظر قليلاً سأحاول فتح باب البيت بالمفتاح الذي تركه لي أبي كي يستريح فيه حتى يفيقا.

تأخر أبو إياد. ثم عاد وقال:

– هيا نسندهما ونحاول نقلهما لداخل البيت.

– المفتاح يعمل.

- نعم.

- لم تأخرت إذن.

- ساحني، لم أستطع منع نفسي من التجول داخل البيت.

حملناهما سوياً، واحداً تلو الآخر، إلى المنزل، الذي لم أتبين منه سوى بهو فسيح وعدة أبواب مغلقة وإلى اليسار سلم يؤدي للطابق العلوي، أما في الصدارة فصورة كبيرة لشيخ بملابس عربية تقليدية، تبدو أنها صورة جد أبو إياد. أدخلناهما إلى غرفة تقع إلى اليمين من الباب الرئيس، قال أبو إياد إنها غرفته هو وأخيه وليد، لم يكن بها سوى فراش واحد محشو بالقطن ملقى على الأرض ومقعد ومنضدة، وإلى يمين الداخل نافذة تطل على الحديقة الأمامية. لدى فتحنا لباب الغرفة اندفع تيار من الهواء أثار الأتربة المترامية فاختلطت رائحتها برائحة العطن الناتج عن رشح المياه الذي بدت آثاره واضحة على جدران البيت. استنشقت الأتربة المختلطة برائحة العطن فاستثارت حساسية الأنف التي أعاني منها منذ طفولتي فانتابني نوبة من العطس تبعها رشح من أنفي وحكة بعيني سالت على أثرها دموعي. أخرج أبو إياد منديلاً ورقياً من جيبه وأعطاه لي ولم ينطق بكلمة واحدة.

جلسنا على الأرض المتربة نلتقط أنفاسنا. خيم صمت كثيب أثار خيالاتي. أعيد على سمعي عبارة أبو إياد «ابحثا عن طريقة أخرى لتخرجكما من أزمتكما». لم يعد أمامي سوى الخيار الذي عرضه عليّ السيد مزراحي، استعادة أملاك اليهود الذين طردوا من مصر بمساعدة أختي راحيل، إذن فهي العودة لمصر.

قطع الصمت صوت أقدام تصعد الدرج الخارجي، فنظر كلانا للآخر  
بنزع. سارعت للنفاذة كي أستطلع الأمر، بالكاد لمحت آخر طيف لشبح  
يدخل المنزل، التفت لأبي إياد قائلاً:

- ألم نغلق الباب الخارجي خلفنا؟  
- لا أتذكر.

دب صوت الأقدام في الصالة الخارجية، فأشرت لأبي إياد واضعاً  
أصبعي أمام فمي وقلت:  
- هس.

أشار برأسه موافقاً. تلفت حولي فوجدت عصا خشبية، التقطتها  
ووقفت خلف الباب مستعداً لمواجهة هذا الشبح. سمعنا صوت أقدامه  
تخترق الصالة في اتجاه الجانب الآخر، ثم صوت أحد الأبواب يفتح فقلت  
هامساً:

- إنه يفتش المنزل.  
- نعم، نعم.

عاود سمعنا صوت الأقدام ولكنها كانت متجهة ناحية غرفتنا هذه  
المرة، فرفعت العصا لأعلى ووقفت متحفزاً. دُفع الباب من الخارج ببطء،  
وبدأ الشبح يظهر شيئاً فشيئاً. فإذا بنا أمام شيخ متهالك يستند على عصي  
ويرتدي زيّاً عربياً، نظر إلينا بذهول ثم قال:

- من أنتم، ماذا تريدون؟

ثم التفت إلى أبو إياد وظل محققاً لبرهة، ثم رفع عصاه تجاهه، فرفعت

عصاي أنا أيضًا تحسبًا لأي مفاجأة، ظل مشيرًا بعصاه المهترئة إليه ثم قال بنبرات مرتعشة:

- أنت هو، نعم أنت هو، أنت طه.

ظل أبو إياد ناظرًا إليه ثم أطلق صيحة فرح وقال:

- وأنت جلعود.

قفز الاثنان ليلتقيا في وسط الغرفة قافزين فوق السنين بحضن دافئ لم أر مثله من قبل، انهمرت دموعهما، ثم تراجع أبو إياد قليلًا للخلف وظل محمّلًا في وجه جلعود ثم ضربه بقبضة يده في كتفه، فردها له جلعود وقال معاتبًا:

- لم تضرب الآن؟

- أين الخمس ليرات الفلسطينية المدين لي بها.

- عن أي ليرات تتكلم.

أنسيت عندما تراهنا على أي منا يستطيع أن يدفع بوله أثناء التبول أبعد من الآخر، وكنت أنا الفائز، الرهان كان خمس ليرات وأنا أريدها الآن.

ضحك جلعود وقال:

- لا توجد ليرات فلسطينية الآن، تأخذ شيكلات.

- لا أنا أريد ليراتي، هذا هو رهاننا.

- إذن فلنتراهن مرة أخرى.

- على ماذا.

- اختر أنت.

- الشيء نفسه، أينما يستطيع أن يدفع بوله أبعد من الآخر.
- خر جلعود جالسًا على المقعد الوحيد الموجود بالغرفة وأنفاسه تكاد أن تتوقف من الضحك وقال:
- إنه لن يتجاوز بين قدمينا.
- علت ضحكات ثلاثتنا. فوقف أبو إياد عند رأس جلعود وقال:
- فلتفسح لي مكانًا بجوارك، فهذا هو المقعد الوحيد.
- فأشار إليّ وقال:
- وصديقك هذا.
- فليذهب هذا الشيخ من حيث أتى.
- ضحكت وجلست على الأرض عند قدمي أبراهام وإياد، اللذين أشار إليهما جلعود وقال:
- ومن هذين الشابين.
- أشار أبو إياد بسبابته لصدره وصدري وقال:
- ولدانا.
- ما بهما.
- اتركهما، وسيفيقان بعد قليل.
- يفيقان! من ماذا؟
- من حمقهما.
- رجعت للخلف وأسندت ظهري للحائط وأنصت مستمعًا لحديث ذكريات تأخر ستين عامًا. قال جلعود:

- أنسيت يا طه.

- بمجرد أن وطئت قدمي عتبة داري نسيت كل شيء.

- أنا لم أنس، فبعد أن غادرتم مدينة حيفا، مررت بأسوأ أيام حياتي. لم يتبق سوى تقريباً ألف عربي بالمدينة، ونحن منهم، مررنا بحالة من الفوضى والذعر، تعرضنا لانتهاكات متكررة من جنود الاحتلال. يحتقرون ويهينون كل ما هو عربي، حتى تم إعلان حظر التجوال، تحولت حيفا لمدينة أشباح، لفظت أنفاسها وصعدت روحها للسماء، كانت رائحة الموت تفوح من كل ركن فيها. الموتى لم نجد أكفاناً تكفيهم فدفنوا بملابسهم. كنت مرعوباً خائفاً، تمنيت لو أننا لم نبق بالمدينة ورحلنا معكم.

عندئذ التفت طه لي وقال:

- أمازلت غير مقتنع أن الخوف والرعب والهلع كفيلين بأن يدفعوك لأن تترك دارك ووطنك.

فhezزت رأسي موافقاً، عن اقتناع هذه المرة. استأنف جلعود حديثه:

- بعد ذلك تم تجميعنا ونقلنا جميعاً لحي وادي النسناس ثم دمروا أي بيت في المدينة ذي طابع عربي، بالطبع بعد أن تم نهب كل محتوياتها.. مثونة، جواهر، أموال، أثاث، سيارات، حتى الكتب.

- ثم سرقوا الدبكة والحمص والتبولة.

مد جلعود يده المرتعشة والتقط كتاباً ملقى بجواره على الأرض ونفض عنه التراب، قرأ عنوانه بصوت عال:

- كتاب المطالعة للصف الرابع الابتدائي.

اختطفه طه من يده، ولملت عيناه وهو يقلب صفحاته، توقف أمام إحداها وقال:

- يااه، درس «أنا عربي»، أتذكره يا جلعود.

- نعم. ولكن يفضل هنا ألا تذكر أنك عربي، فالآن، في نفس الصف الرابع الابتدائي الذي يدرس به حفيدي بنحاس يعلمونهم في كتاب «طريق الكلمات» أن حناوي العربي كان يؤجر أرضه للصهاينة فقتله العرب الهمج الخونة المتطرفون المعادون للسلام والعيش المشترك المتعطشون للدماء مثل الطيور الجارحة والحيوانات المفترسة، المثيرون للسخرية بملابسهم وطريقة كلامهم ومشيتهم المضحكة.

عندئذ قام جلعود وذرع الغرفة جيئة وذهابًا، ثم قال:

- هذا ما يفعله حفيدي بنحاس يوميًا، يسير أماننا ثم يسألنا: «هل في مشيتي أو ملابسي أو طريقة كلامي، ما يثير الضحك والسخرية؟». مسكين تزعزعت ثقته في هويته بين يهوديته وعرويته. ينسون أن أكثر من مليون يهودي بالدولة من أصول عربية وأن أكثر من ربع سكانها هم عرب غير يهود. إننا نشعر بأننا نعيش على أرضنا ولكن ليس في دولتنا.

لم نعرف بماذا نجبه، فصمتنا قليلًا. عاد جلعود لمقعده وقال لأبي إياد ضاحكًا:

- أتذكر أنت كم كنت تحقد عليَّ عندما أحصل على درجات أعلى منك في مادة اللغة العربية.

- أنت، هذا لم يحدث مطلقًا.

التفت إليَّ أبو إياد وقال:

- لا تصدق هذا الشيخ الكاذب.

ضحكت وأنا أراهما يدفعان بعضهما بعضًا براحة أيديهما وبأكتافهما كما لو كان صبيين يتناوشان وهما يجلسان بالصف. جذب جلعود الكتاب من يده ودفعه دفعة أسقطته أرضًا، فأطلق صيحة ألم. نظر إليه جلعود بتشفٍ وقال:

- تستحق حتى لا تنعتني بالكذب مرة أخرى.

ثم مد له يده فأنهضه وأجلسه بجانبه ثانية. مرت لحظات من الصمت اخترقها جلعود بقوله مستنكرًا وهو يقلب صفحات كتاب المطالعة:

- أتدري ماذا فعلوا بالكتب التي سرقوها؟

.... -

- أعادوا بيعها مرة أخرى للفلسطينيين وللمدارس العربية.

ضحك أبو إياد ملء شذقيه حتى ابتلت عيناه بالدموع. ثم قال وهو يمسحهما بكفه ويشير إلينا، أنا وجلعود:

- أيش نسوى؟ يهود، يهود.

قال جلعود:

- الأكثر من هذا أن الكتب التي لم تُبع، أو التي قرروا أنها لا تصلح للتداول أحرقوها.

تطلع طه للفراغ وقال بأسى:

- سرقوا وباعوا كل شيء، حتى الكتب، وهي ذاكرة الأمة، هي تاريخها،

- فكرها، إبداعها، ضمير شعبها.
- ثم أطلق تنهيدة حسرة وقال:
- أما الشيء الوحيد الذي سرق ولم يستطيعوا تدميره أو إخفائه حتى الآن هو الأرض.
- ثم نظر لجلعود وقال:
- أكمل يا جلعود ماذا حدث بعد أن نقلوكم إلى حي وادي النسناس.
- استطاعت أمي أخيراً أن تتحدث لأحد قادة جنود الاحتلال...
- قاطع طه جلعود قائلاً:
- أتسميه احتلالاً.
- وماذا هو غير ذلك. لو عرفت ما حدث بعد ذلك ستعرف أنه احتلال.
- فقد أقنعت أمي القائد بأننا يهود ويجب معاملتنا على هذا الأساس فما كان منه سوى أن سخر منها وقال: «قد تكونون يهوداً حقاً ولكنكم عرب حثالة قذرون أفاعي مدنسون...» ولم يتوقف عن سبابه حتى كدت أن أركله لولا أن لكزني أمي. ولكنه اضطر في النهاية أن يتركنا نرحل.
- عدتم لعين كارم.
- نعم خاصة أننا علمنا أنها لم تهاجم من عصابات الصهاينة، فقد أمرتهم قيادة الهاجاناه بعدم جدوى مهاجمة عين كارم في الوقت الحالي وأن الأنسب السيطرة على القرى الواقعة على طريق القدس - تل أبيب، ولتأمين الطريق المؤدي للمطار الذي كانوا ينوون إنشائه.
- إذن نجت القرية.

- ليس تمامًا، دعني أقص عليك ما حدث. عدنا إلى القرية أثناء فترة هدنة حرب عام 1948، علمنا أن جدك توفاه الله إثر أزمة قلبية انتابته عشية الإعلان عن قيام دولة إسرائيل، ولكن قبل وفاته قام بنقل ملكية بيتكم وأرضكم لأبي وأوصاه بالاحتفاظ به، ولي من بعده، حين عودة أي واحد من أبنائه الغائبين. وأوصاه أيضًا بعدم تغيير مفتاح البيت. بهذا حفظ جدك البيت والأرض من الاغتصاب.
- ولكن أين ذهب أهل عين كارم.
- انتهك الصهاينة الهدنة وقاموا بمهاجمتنا. وتم تطهير القرية عرقياً وطرد أهلها منها، أما نحن فبقينا لأننا يهود. وبقيت أرضكم وبيتكم أمانة عندنا وها أنت عدت لتسترد أمانتك.
- وأين أثاث المنزل.
- تعرض البيت للسرقة مرتين، فاضطر أبي لتقوية سور الحديقة وتعليته وحمايته بتلك البوابة الحديدية كما رأيت.
- ولكن كيف علمت بوجودنا.
- أثناء عودتي لبيتي، رأيت باب المنزل مفتوحاً، فظننت أن اللصوص هاجموا مرة أخرى، فدخلت لأستكشف.
- وبيتكم مازال قائماً.
- ثلاثة بيوت فقط في القرية بقيت على حالها، بيتكم الذي يثير جنونهم بطرازه العربي، وبيتنا الذي اختنق بظل البناية الصماء التي شيدت بجواره، وبيت عم درويش.

- ياه، عم درويش، أمازال صديقنا، ابنه سلامة، حيًا.
- سلامة انتقل لحيفا بعد حرب 67 وهناك أسس الحركة الإسلامية، ولكنه توفي منذ عدة سنوات وابنه رائد هو زعيم الحركة الحالي.
- ولكن أين ذهبت بقية بيوت القرية بشرفاتها وقناطيرها ونقوشها الرائعة.

- كل شيء تغير، أرادوا محو وجودنا، فبمجرد أن تم إخلاء عين كارم من سكانها الأصليين إلا واقتحمتها جحافل المستعمرين، بنيت الساحات، وسدت الحقول المفتوحة بالحجارة والأسمنت، وهدمت البيوت القديمة وحل محلها هذه البنايات الكئيبة التي شاهدها. بقيت فقط البيوت الثلاثة شاهدة على أن عين كارم قرية عربية. نقبوا في كل شبر بحثًا عن أي آثار تصنع لهم تاريخًا بالمنطقة ففشلوا، حتى الجنرال ديان أتى بنفسه على رأس بعثة للتنقيب، ولكنه فشل أيضًا. كل ما وجدوه بعض الآثار الرومانية.

عندئذ قطعت حديث ذكرياتهما ونظرت لأبي إياد وقلت:

- الآثار في كل مكان في عين كارم ما عدا في حديقة منزلكم.

نظر إليه جلعود مستفسرًا. فقال له:

- لا عليك من ذلك الشيخ. وقل لي كيف بقيت مزارعنا.

- نجت مزارعكم من التجريف لأن المياه المتدفقة من وادي أحمد كانت تخترقها فحافظوا على زراعتها فبقيت المزارع التي في خلفية بيتكم... إيه، أتتذكر ملاعب صباننا، دمرت. عين مريم غارت ماؤها، شجرة البلوط التي كنا ننسلقها اجتثت، الأحواش التي كانت تجتمع فيها العائلات

للسمر والاحتفال اختفت، خليط اللغات الذي كان يداعب أسماعنا أصابه  
الخرس. فقد المكان سحره، وفقد الزمان وقعه. طعمه صار مائعاً ورائحته  
صارَت فجّة.

- أتذكر أنت المذيع الوحيد الموجود بالمقهى الواقع في الساحة.
- بالطبع مقهى عم ربيع، وحباً منه لأهل قريته وصله بمكبرات  
للصوت حتى يستطيع الجميع سماعه.
- أذيع من خلاله خبر قرار التقسيم...
- عندئذ تدخلت ثانية قاطعاً حديث الذكريات بقولي:
- أعذرنى، فحديث الذكريات يطول، وقد يكون قاسياً كالخجارة أو  
قاطعاً كحد الموسي...

قال أبو إياد:

- ويمكن أيضاً أن يكون ناعماً كالحرير.
- ممكن، وأمامكم العمر بأكمله...
- قاطعاني، وقال بصوت واحد متهمكم:
- العمر بأكمله!
- حتى لو كان الباقي ساعة واحدة فإمكانكم جعلها تساوي عمراً لم  
تعيشاه. أما أنا فيجب أن ألحق ما تبقى.
- ماذا ستفعل.
- سأعود مثلك.
- لأمرىكا.

- بل لمصر.

~~~~~

حين أفاق إياد وأبراهام. قررت أن نرحل على الفور تجنباً لإهدار المزيد من الوقت. اصطحبنا الثلاثة، أبو إياد وإياد وجلعود، إلى محطة الحافلات الذاهبة للقدس، ومنها سنستقل حافلة أخرى لإيلات لدخول مصر براً عبر منفذ طابا توفيراً للنفقات.

في طريقنا للمحطة، أشار جلعود لأبي إياد إلى منطقة خربة مغطاة بالنفايات والركام وقال «هذه هي مقابركم، أترى هذا الشاهد العالي، هذا قبر جدك». استأذنا أبو إياد في قراءة الفاتحة لجدّه، التقطت أذني مقطعاً قصيراً من مناجاته له «جدي، صرنا غرباء في بلدنا، لكننا عدنا ولن نغادر ثانية». احتضنني أبو إياد بقوة، لف ذراعيه حول صدري وأخذ يربت على ظهري، ثم تراجع للخلف قليلاً ونظر لي بامتنان وعيناه مبللتان بالدموع وقال ونبرات صوته يملؤها إحساس بالعرفان:

- دافيد، مهما شكرتك فلن أوفيك حقك، لقد أعدتني لبلدي.

- كما تقولون يا طه: «تكرم عينك خيي». ولكن كيف أعوض عن كل ما أنفقته.

- عوضك على الله.

- أتمنى أن يفعل.

موسى

القاهرة

إن لم يستطع أبي أن يؤد أمانته، فلاؤد أنا أمانتي .
كنت قررت الخروج مبكرًا، ولكن غلبني النوم. أيقظتني راحيل،
وأيقظت مشاعر كنت أعدها ذكريات وحسب، فإذا بها تنقلها من عالم
تسبح فيه خيالات أحبائنا وتتردد فيه صدى أصواتهم، لعالم تصافح فيه
أعيننا أعينهم، وتعانق أسمعنا همساتهم، وتدغدغ لمساتهم مشاعرنا.
انتهت على حركة أصابعها وهي تعبت بخصلات شعري، وأول ما
التقت عينانا غنت بهدوء وهي تضغط بيديها على سائر جسدي بضغوطات
حانية كي تحفزني على النهوض:

- صباح الخير صبح

- ورد الجنان فتح

- صبحوا ربحوا

- بين عباده ما تفضحوا

- ده صباحه عندنا

- أحسن م المال والغنى

- وأحسن من عشر جموسات

- يجلبوا في الدار عندنا

لم تنسَ راحيل يومًا أنها أختنا الكبيرة... ونحن صغار، كثيرًا ما
تقمصت دور أمنا فكنا نكيد لها، أنا وداوود، حتى نبكيها. أما اليوم
فأمسكت بيدها وقبلتها ممتنًا لما أحيته من ذكريات وما أيقظته من مشاعر.
عندما هممت بالنهوض من الفراش ذكرتني بقول أمنا: «لا تنسَ أن تضع
قدمك اليمنى قبل اليسرى في شبشبك».

بعد أن تهيأت للخروج، وجدت راحيل أعدت فنجانين من القهوة
وجلست في الشرفة تنتظرني. بادرت بقولها، وأنا مازلت قاطعًا غرفة
الجلوس في طريقي إليها:

- إلى أين مبكرًا هكذا؟

- مبكرًا! الساعة تقترب من العاشرة.

- وأنا متوجه للشرفة ظللت أمني نفسي بسماع صوت الشيخ محمد
رفعت آتيًا من المذيع الخشبي الكبير الذي كان يضعه عم أبو مصطفى
بجوار النافذة، وأنا أشاهد بناءه الدائري الذي يصنع الكنافة فوق صينيته،
وأملأ أنفي برائحة العجين الطازجة. أو لعلني أرى عم عوفاديا يلعب نجمته
السداسية حتى تصوير براقعة عاكسة لأشعة الشمس، ثم يصيح مناديًا على
عساف ناهرا إياه لتأخره عن موعد ذهابهم لمعبد «رب موسى». ذكريات
داعبت مخيلتي فارتسمت على شفتي ابتسامة رضا ممزوجة بحنين وشوق

لذكريات طفولتي الناعمة. عندما رأت راحيل ابتسامتي قالت كلمة أُمِّي التي كانت ترددها إذا ضحكت:

- ربنا يسعد أيامك.

- ربنا أسعد أيام ولت.

- لم هذا التشاؤم.

- هذا ليس تشاؤمًا. ولكنها الحقيقة، فقد قضينا أسعد أيام عمرنا هنا في حارة اليهود. أليس كذلك؟

- لك كل الحق. ولكنها الطفولة، ذكرياتها تثير حنيننا وشوقنا لاستعادتها ببراءتها ونعومتها وعفويتها.

فجأة، طرق أسماعنا صوت عال لقارئ للقرآن، ولكنه يختلف تمامًا عما ألفته منذ زمن بعيد. فاختلط بالضوضاء الآتية من الحارة الممزوجة بحوارات صباحية خشنة. عندما استنكرت هذا قالت راحيل:

- هذه هي التسجيلات التي أحضرها معه حسان بن هاشم بعد عودته من السعودية... أعرف أنه جاء للفرن عندما أسمعها.

- ولكن كيف تتحمّلين كل هذا الضجيج وكل تلك الأصوات الجافة وحواراتها الخشنة.

- عندما تتسلل الأشياء لحياتك ببطء تألفها وتعتادها وربما تفتقدتها إذا غابت. كما أن أصحاب هذه الأصوات الجافة ذات الحوارات الخشنة كما تقول، هم من احتضنوني ودافعوا عني. كل يوم عندما أجلس في الشرفة وأنظر إليهم أتذكر قصيدة توماس جراي، أتعرفه؟

- الشاعر الإنجليزي صاحب المراثية الشهيرة.
 - بالضبط، أجلس وأذكر قصيدته «مراثية في مقبرة ريفية».
 قلت متعجبًا:

- وما العلاقة بين المراثية التي وصف فيها توماس جراي حال مجموعة من الموتى الفقراء خايلي الذكر وهو يشاهد قبورهم في فناء الكنيسة وقت الغروب.

- هؤلاء الفقراء لم يكن لهم من دنياهم سوى العمل الشريف، الذي يكفي بالكاد لسد رمقهم دون أن يفي باحتياجاتهم الأساسية، وفي النهاية يلقون في قبر متواضع في فناء كنيسة ريفية. حال فقرهم هذا بينهم وبين نبوغهم أو تحقيق طموحهم. تمامًا مثل فقرائنا الأحياء الذين أمامك الآن، انظر لهذا الصبي أو ذلك الشاب، لو هيئ لأي منهم الظروف التي يستطيع أن يبدع من خلالها ويظهر مواهبه ربما كان له شأن آخر، قد يكون عالمًا أو موسيقارًا أو سياسيًا فذاً أو قائدًا عسكريًا أو أي شيء يحقق ذاته من خلاله، ولكن فقرهم حال دون نبوغهم وإبراز تفوقهم. حياتهم القاسية أجبرتهم على التخلي عن طموحهم، عوزهم وأد أحلامهم. ألا ترى أنهم كالموتى الذين كان يخاطبهم توماس جراي، هو كان يخاطبهم متطلعًا لشواهد قبورهم المنتصبة في فناء كنيسة ريفية متواضعة، وأنا أخاطبهم كل يوم من شرفتي متطلعة لوجوههم في حارة العطار. أبطال جراي قضى عليهم الموت مرة واحدة وانتهى الأمر، أما أبطال حارتنا فأحياء يُقضى عليهم كل يوم بفقرهم وجهلهم وحتى بواسطة أهلهم من

أمثال حسان. الفرق أن موتى جراي، كما يقول في قصيدته «لن يوقظهم نسيم الصبح المعطر كما كان يوقظهم، ولا طيور السنونو في تغريدها على السقائف، ولا صيحة الديك في نفيه، لن يوقظهم شيء من هذا». ولكن فقرأنا نحن الأحياء أما من سبيل لإيقاظهم؟

- راحيل، أنت مهمومة بهم بشكل كبير.

- هم أهلي وناسي، أنا مصرية مثلهم، همومهم همومي، أنا مستمتعة بوجودي هنا بجوار هؤلاء البسطاء.

- لكنهم تغيروا كثيرًا. أين وجوههم البشوشة، أين سماحتهم، أين دفئهم وروحهم المرحّة.

- ما تقوله هو في الحقيقة طريقة المصريين في المشاركة في الحياة، ولكن كيف يشاركون فيها وهم لا يجدون حاجاتهم الأساسية. كيف يصونون كرامتهم والعوز يهدرها. إنهم غرباء عن أنفسهم وعن أوطانهم. في ظروف قاسية كظروفهم قد تضطر لممارسة بعض الأفعال الشائنة، فهم في صراع مع الحياة. ولكنها حالة طارئة وستزول. هل نسيت المصريين يا موسى.

صراع مع الحياة. تذكرت قول عميل الموساد ذي العينين الجاحظتين، حاييم، الذي هاجمني في غرفتي بفندق ماريوت الشانزلزيه «الصراع لا بد فيه من متتصر». فيا ترى من سيتنصر في الصراع، هؤلاء البسطاء أم الحياة.

~~~~~

لم أجد لدى راحيل مظروفا كبيرا يتسع لما أريد أن أضعه بداخله،

ولكنها دلتني على مكتبة قريبة سأجد عندها بغيتي. اشترت المظروف وأوقفت إحدى سيارات الأجرة ذات الطلاء الأبيض، عملاً بنصيحة راحيل «لا توقف سيارات الأجرة التقليدية ذات اللونين الأسود والأبيض ولكن أوقف النوعية الجديدة ذات اللون الأبيض فقط، فهؤلاء أجرتهم محددة بالعداد ولا يستطيعون استغلالك». طلبت من السائق التوجه إلى شارع عبد الحميد الديب بشبرا. مددت يدي لجيب سترتي الداخلي وأخرجت ما به، حافظة أيمن - ضابط الصاعقة المصري - وبها صورة ابنه محمد وريم، وخطابه الموجه لزوجته سعاد. وضعت أيضاً ساعة يده وخاتم زواجه والسلسلة التي كانت تحيط بعنقه ومدون على قطعة معدنية صغيرة تتدلى منها رقمه العسكري الذي يدل على كل بياناته، وكذلك وضعت خنجره. من ضمن ما أخرجت من جيب سترتي الداخلي، الساعة ذات النقوش والزخارف المكتوب عليها بالعربية «لا إله إلا الله محمد رسول الله» التي أهداني أبي، تأملتُها قليلاً ثم وضعتها مع باقي متعلقات أيمن داخل المظروف. أخرجت ورقة صغيرة وكتبت عليها «هذا المظروف أمانة عندي منذ سبعة وثلاثين عاماً، ساحووني على تأخيرها، أيمن كان بطلاً، ولكنه قتل، ففي الحرب نموت ولا ندري من قتلنا». وضعت الورقة داخل المظروف وأغلقتها.

هل سأجد أسرة أيمن لا تزال مقيمة في نفس العنوان، أو رحلت عنه؟ كيف سأستطيع أن أوصل لهم هذا المظروف؟ بالطبع لن أستطيع أن أطرق بابهم وأقول: «أنا موسى المصري الإسرائيلي اليهودي الذي قتل

عائلكم وأريد أن أعطيكم متعلقاته». كما أنه لا يمكن إرساله بالبريد. أتمنى لو وجدت صندوقاً في مدخل البناية لوضع الخطابات، ولكن كيف أضع هذا المظروف الكبير بداخله.

أعادني سائق سيارة الأجرة من شرودي، إذ قال بصوته الأجش:

- فين في عبد الحميد الديب يا باش مهندس.

- هذا هو شارع عبد الحميد الديب.

- آه.

- رقم 15.

غادرت السيارة. تلفت حولي مستطلعاً المنطقة. حيوية الحي تتيح لي حرية التجول بالشارع من دون إثارة أي شبهة. البناية رقم 15 مكونة من أربعة طوابق وتطل على الرصيف مباشرة، لا يوجد سور خارجي يفصلها عن المارة مما يسهل مهمتي. عن يمين مدخلها يوجد محل للتصوير، وعن اليسار محل لبيع أجهزة الهواتف المحمولة ومستلزماتها، ولكن المحلين مازالا مغلقين ولن أتمكن من التحايل على بائعيها للاستفسار عن أسرة أيمن. يبدو أن راحيل لم تكن مخطئة عندما قالت: إن الوقت مازال مبكراً، فقد مددت بصري بطول الشارع فوجدت معظم المحلات لا تزال مغلقة، ولكن يوجد محل أبوابه مفتوحة يقع في الجهة الأخرى من الشارع المقابل للبناية، لافتته كتب عليها «سوبر ماركت الأمانة».

عبرت الشارع للجهة المقابلة، مررت أمام المحل مستطلعاً إياه، محل صغير، مساحته لا تتجاوز الثلاثين متراً مربعاً، وإلى يمين مدخله يوجد

مكتب صغير يجلس خلفه شيخ تجاوز الستين يطالع الجريدة. إذن هذا الشيخ هو ضالتي.

تجولت قليلاً محاولاً تجهيز خطة أتخايل بها على الشيخ وأحاول أن أعرف منه إذا ما كانت أسرة أيمن لا تزال تقيم في نفس البناية أم غادرتها. دخلت المحل وطلبت منه كيس مناديل ورقية. وهو يعطيني إياه قلت:

- شبرا كما هي لم تتغير.

- أنت من ساكنيها.

- من زمن طويل مضى، قبل أن أهاجر لأمريكا... كان لي أصدقاء كثر هنا في شارع عبد الحميد الديب.

- من؟ فأنا ولدت هنا وأعرف جميع السكان.

- أعمم... مثلاً في البناية المقابلة هذه، كان لي صديق يدعى أيمن. كان ضابطاً في الجيش. عندما هاجرت في أوائل السبعينيات كان متزوجاً حديثاً.

صمت الرجل قليلاً، ثم هز رأسه في أسى وقال:

- رحمة الله عليه.

- مات.

- استشهد في حرب 73.

مسحت وجهي بيدي وقلت أسفاً:

- رحمة الله عليه، كان من أعز أصدقائي. منذ أن هاجرت وانقطعت

أخبار الجميع... أما زالت أسرته تقيم في البناية نفسها.

- نعم.

مددت يدي بثمان كيس المناديل الورقية وأنا أقول:

- سعدت برؤيتك.

وأنا خارج من المحل، وقفت عند بابه أفكر فيما أفعل. فجأة ارتطم بساقي طفل صغير وهو يحاول دخول المحل مندفعًا. ومن خلفه رجل في الثلاثينيات يصبح به قائلًا:

- أيمن، قلت لك انتظر.

ثم نظر إليّ وقال معذرًا:

- آسف، شقاوة أطفال.

- لا عليك. أحفادي يفعلون مثله.

ابتسمنا وافترقنا، فدخل هو المحل وأنا سرت مبتعدًا. عندما صرت على بعد خطوات سمعت من ينادي:

- أستاذ، أستاذ.

التفت، فوجدته الشيخ صاحب المحل، فقلت مستغربًا:

- أنا.

- نعم.. أرجوك تعالى.

- هل هناك خطأ بالحساب.

- لا، لا.. فقط أرجوك أن تعود.

عندما عدت، كان الطفل يجري في كل أنحاء المحل محدثًا الكثير من الجلبة. قال لي الشيخ:

- لن تصدق من هذا.
- وأشار إلى الرجل أبو الطفل. فهزئت رأسي مستفسراً:
- إنه محمد ابن صديقك أيمن رحمة الله عليه.
- دارت بي الأرض، وكدت أن أسقط، لولا أنني استندت على ذراع محمد. أحضر الشيخ مقعداً، فجلست عليه، فسارع بفتح عبوة من عصير البرتقال المحفوظ وأعطاهالي وهو يقول:
- اشرب هذه. ألف سلامة. ماذا حدث. أنت مريض؟
- تسارعت دقات قلبي وشعرت بجفاف حلقي فشربت قليلاً من عصير البرتقال. أغمضت عينيّ محاولاً استعادة رباطة جأشي. ثم نظرت لمحمد مبتسماً وقلت:
- أنت ابنه الأكبر.
- نعم.
- كانت أمك حاملاً بك عندما هاجرت.
- أتعرف أمي.
- تقابلنا كثيراً.
- إذن أرجوك أن تأتي معي لزيارتها.
- بتلقائية قلت مستنكراً:
- ماذا؟
- أرجوك فهي مريضة، ونحتاج لأي أحد يذكرها بالماضي. ربما تنشط ذاكرتها.

- شفاها الله ولكنني في عجالة من أمري.
- أرجوك، هذا عمل إنساني، فهي مريضة بالزهايمر.
- ولكن...
- قال مستعظفاً:
- أرجوك.

نظرت لعيني الشيخ صاحب المحل فوجدتها محمّلتين بالرجاء، وهز رأسه كي يحفزني على القبول، فقلت وأصابعي تتخلل خصلات شعري الأمامية:

- قلت مريضة بالزهايمر.
- نعم
- لا بأس، سأذهب معك.
- إذن هيا بنا.
- انتظر.

أمسكت بيد أيمن الصغير، ووقفت معه أمام الرف الذي تعرض عليه «الشيكولاته» وطلبت منه أن يختار الأنواع التي يفضلها. ابتعت له عدة ألواح. نظر لوالده متسائلاً هل يقبلها، فأشار له برأسه موافقاً. أخذها وجذبني من يدي كي أنحني لأسفل ثم طبع قبلة على خدي. فحملته وقبلته وقلت له: «إنك شديد الشبه بجذك».

أثناء توجهنا لبيت أيمن، حاولت أن أستجمع أفكارني وأرتبها كي أجتاز هذه المقابلة بنجاح معتمداً على إصابة سعاد بالزهايمر مما يعطيني

مجالاً واسعاً للمناورة. لكن محمد لم يمهلني، فقد أخذ يصف المعاناة التي يتكبدونها بسبب مرض أمه، فأخته ريم مسافرة مع زوجها الطبيب الذي يعمل بالخليج ولا يوجد من يرعى أمه سوى زوجته. حتى هو، نظراً لعمله كمهندس بترول، فإنه يقضى شهراً بعيداً عنهم وشهراً معهم، لا تتوقف خلاله زوجته عن الشكوى.

~~~~~

سرت رعشة في جسدي بمجرد أن وطئت قدمي بيت أيمن. شممت رائحة ذكرتني ببيتنا في حي الظاهر. الصالة معتمة، هدوء مطمئن يخيم عليها. الأثاث جزء من المكان، الحوائط بما تحمله من آثار وما علق عليها من صور صارت جزءاً من الزمان.

قادني محمد لغرفة تقع إلى يسار المدخل، غرفة صالون مصرية تقليدية. صدم بصري صورة كبيرة لأيمن بلباسه العسكري تتصدر الحائط الأيمن للغرفة ومعلق عليها شريط أسود يقطع زاويتها اليمنى. تعلق بصري بها، اقتربت بخطى مترددة خشية أن يقفز منها أيمن ويغرس خنجره في عنقي. تحسست المظروف الذي أحمله كي أتأكد أن الخنجر بداخله. وقفت أمامها محاولاً طباعة ملاحظتها في ذاكرتي، فالملاح هنا قد تساعدني على ما رسخ في مخيلتي من ملاح جندي لطنخ وجهه بالسواد ولطخت يدي بدمائه... لكنها الحرب.

التفتُ لمحمد حين قال:

- خمس دقائق وتكون أُمي جاهزة. ماذا تحب أن تشرب.

- قهوة.

- ماذا تفضلها.

مضبوطة.

- أعذرنى، سأغيب عنك قليلاً حتى أعدها، فزوجتي مازالت نائمة.

- خذ وقتك.

جلست على الأريكة الواقعة تحت الصورة، شعرت بعدم الارتياح، لم يطمئن قلبي أن يكون أيمن من خلفي. فانتقلت لأجلس على أحد المقعدين الواقعين أمامها حتى أظل مراقباً له.

ماذا لو جاءت سعاد الآن وقالت: «من أنت، أنا لا أعرفك؟» ماذا لو اكتشفت أمري؟ أو لو عرفت أنني من قتل زوجها؟ ماذا لو قفز أيمن من الصورة وصرعني؟ أو لو تكلم وأخبرهم بحقيقتي؟ ما هذا الغباء، كيف قبلت وأتيت مع محمد إلى عقر داره. يجب أن أنصرف سريعاً. فرصتي الآن.

وضعت المظروف خلف الستارة وأسرعت تجاه باب الغرفة كي أغادر الشقة. تلفت يميناً ويساراً فلم أرَ أحد. ما إن هممت بالتوجه لباب الشقة حتى سمعت صوت أيمن الصغير يقول: «ارفع يديك لأعلى»، التفت فوجدته يصوب ناحيتي فوهة بندقيته البلاستيكية. رفعت يديّ مبتسماً، وعدت أدراجي وهو يضع ماسورة البندقية في ظهري. جلست على نفس الكرسي في مواجهة صورة أيمن، فوقف أمامي، أسفل صورة جده، وهو لا يزال مصوباً بندقيته إلى صدري وقال: «إذا حاولت الهرب سأقتلك».

ابتسمت وأنا أنزل ذراعي لأسفل، فصاح غاضبًا وقال بتحفظ بعد أن وضع بندقيته في وضع التأهب «قلت لك ارفع يديك لأعلى». عندئذ دخل والده يحمل صينية عليها فنجان القهوة وكوب ماء، وقال:

- أيمن، هيا اذهب لغرفتك.

- هذا أسيري.

- لا تضايق عمك...

ثم التفت إليّ وقال:

- لم أتشرف باسمك.

- موسى.

- آسف سيد موسى على ما سببه لك أيمن من إزعاج. من كثرة ما قصصت عليه من حكايات عن بطولة جده، وهو يتمنى أن يكون مثله، ضابط صاعقة.

فقلت له:

- جدك كان بطلاً حقيقياً.

بوجه صلب الملامح، يفتقد التعبير. وقفت عند باب الغرفة تحمق في جميع الموجودين كما لو كانت لا تعرفهم. ترتدي جلباباً منزلياً أسود اللون ذا جيبن كبيرين على جانبي خصرها، غطت شعرها بمنديل أبيض ووضعت فوق كتفها شالاً أخضر اللون. تقدمت ببطء وجلست على المقعد الواقع بجوار مقعدي وأسندت مرفقيها لمسنديه وعقدت ما بين أصابعها وارتكزت بذقنها عليهما مصوبة نظرها للأرض. مرت دقيقة أو

دقيقتين والكل صامت. قطع محمد الصمت بقوله:

- أستاذ موسى صديق والدي يا أمي.

لم تلتفت إليه. ولم تحرك ساكنًا. وظلت على حالها. فأشار محمد لي بأن أبدأ الكلام.

- كيف حالك يا سعاد؟ ألا تتذكريني؟ أنا موسى صديق أيمن.

فلم تكلف نفسها عناء رفع رأسها لأعلى أو الالتفات ناحيتي ولو حتى بعينيهما. حمدت الله، فقد انتهت مهمتي، وسرعان ما استأذنت للانصراف معلناً فشلي. تنحنحت تمهيداً للكلام، فإذا بها ترفع رأسها وتلتفت حولها وتدس يديها في حشايا المقعد باحثة عن شيء ما. عندئذ قال محمد:

- أبحثين عن شيء يا أمي.

- أين... أين.

- أين ماذا؟

- لا أتذكر.

قفز أيمن تجاه جدته ووضع يده في جيبها وأخرج شريط دواء وهو يقول:

- تسألين عن دوائك، صح، ها هو يا تيتة.

فابتسمت وضمت وجهه بين راحة يديها وقبلته بين عينيه. ووضعت شريط الدواء بجوارها على المقعد. ثم التفتت إليّ وقالت:

- من أنت؟ أنا لا أعرفك.

بلعت ريتي وأنا أقول:

- أنا موسى، ألا تتذكريني.
- زوج ميمي.
- لا، أنا صديق أيمن... زوجك.
- أيمن... أيمن غائب عن البيت منذ شهر. سينزل إجازة الأسبوع المقبل. الإجازة الماضية قال لي إنه عبر لسيناء وقام بأسر إسرائيلي ابن كلب...
- ثم ضحكت وقالت:
- هو يقول عليهم كده، أولاد كلب. أمضى معي أطول إجازة، أسبوعاً كاملاً. قال لي نريد أن نجعله أسبوع غسل...
- دارت وجهها براحة يديها خجلاً ثم قالت:
- أرسلنا محمد وريم عند والدته كي...
- توقفت عن الكلام وتلفتت حولها ثم نظرت لمحمد وقالت:
- أين ريم؟ لم أرها منذ أمس.
- ريم مع زوجها في الخليج يا أمي.
- نظرت إليّ وتفرست في وجهي وقالت:
- من أنت؟
- أنا موسى صديق أيمن.
- زوج ميمي.
- احكِ لنا عن أيمن.
- أشرق وجهها وتهللت أساريره عاكساً سعادتها البالغة وقالت:

- أيمن، هو فيه مثل أيمن، انظر.
- وأشارت لساعة ترديها حول معصمها وقالت:
- أهداني أيمن هذه... هذه... هذه التي نعرف بها الوقت.
- الساعة.
- نعم، الساعة، أهداها لي في عيد زواجنا الخامس.
- ارتفع صوت أيمن وهو يلهو بجوارنا مصوباً بندقيته البلاستيكية تجاه أعداء وهميين، ثم وقف منتصباً أمام صورة جده وأدى التحية العسكرية وهو يقول «تمام يا فندم». فتوقفت سعاد عن سرد ذكرياتها ونظرت إليه ونادته وهي تفتح ذراعيها:
- تعال يا ولدي أيمن.
- فأسرع إليها وألقى بنفسه بين أحضانها فأمرتته بقبلاتها ثم تملص منها وعاود اللعب. فنظرت إليّ وقالت:
- من أنت.
- أنا موسى.
- زوج ميمي.
- أكمل ما كنت تقصينه علينا.
- ما هو...
- كنت تحكين عن ساعتك التي أهداها إليك أيمن في عيد زواجكما الخامس.
- آه، نعم. اصطحبني في تلك الليلة لتناول طعام السحور في الخارج،

فقد كنا في شهر رمضان، لم يصرح بالمكان وقال إنه مفاجأة. بعدما ركبنا السيارة التي اشتراها حديثاً، كانت أوبل ريكورد موديل 69 وكان سعيداً بها سعادة بالغة، اشتراها بأربعمائة جنيه، طبعاً كانت مستعملة. في شارع رمسيس بدأ صوتها يعلو ودخان كثيف تصاعد من المحرك، تجمع المارة، قال أحدهم إنه ميكانيكي، فتح غطاء المحرك وعبث به قليلاً ثم قال «السيارة لا توجد بها نقطة زيت واحدة، متى غيرت الزيت آخر مرة؟»، التفت أيمن إليّ وزم شفثيه متحسراً... نقلنا السيارة لورشة ميكانيكا وأيمن يكاد ينفجر من الغيظ وأنا أهون عليه الأمر. وكان السحور مفاجأة فعلاً، ساندويتشات فول وطعمية من محل نجف. مع أول قضمة نظر أيمن إليّ معتذراً، فابتسمت فابتسم، ثم ضحكت فضحك، تعالت ضحكاتنا من القلب، قضينا سوياً أحلى ليلة، استمعنا لأم كلثوم.

ثم رفعت رأسها لأعلى وأخذت تدندن برقة وعيونها تذوب حينئذ وصوتها ينصهر شوقاً «سهر الشوق في العيون الجميلة، حلم أثر الهوى، الهوى أن يطيله، وحديث في الحب، وحديث في الحب، وحديث في الحب إن لم نقله أو شك الصمت حولنا، حولنا أن يقوله»، ثم أكملت منادية على أيمن وهي مغمضة العينين كأنها تستحضر صورته أمامها «يا حبيبي، يا حبيبي، وأنت خمري وكأسي».

توقفت عن الدندنة، أطرقت، ثم ارتعش صوتها وترقرقت الدموع في عينيها وهي تقول:

- قضينا أحلى ليلة، كانت هي ليلتي فعلاً... ولكن.

تمهلت قليلاً قبل أن تكمل. ثم تحركت شفتها ناطقة بالأسى الذي يسحق قلبها واعتصر قلبي معه، قالت وكأنها تستنطق كلمات محبوسة تريد أن تتحرر، فبدأت بصوت منخفض أخذ يعلو شيئاً فشيئاً حتى صارت وكأنها تصرخ في وجوهنا:

- في الصباح ذهب للحرب ولم يعد، ذهب ولم يعد، لم يعد، لم يعد. وأخذت تميل بجسدها للأمام والخلف كأنها تنوح، وتضرب بيدها على جانبي المقعد وهي لا تزال تردد:
- «لم يعد»

فوقعت يدها على شريط الدواء الذي أخرجه أيمن من جيبتها فأمسكت به وقلبته بين يديها وقالت:
- من الذي وضع هذا الدواء هنا.
- أنت يا أمي.

- أنا!... هذا لم يحدث. أنتم تكذبون، أنتم جميعاً أولاد كلب.
ثم تلفتت حولها وقالت:

- أين أنا؟ لم أنا هنا؟ أريد العودة لغرفتي. أنتم كلكم أولاد... وأطلقت وابلًا من السباب. نظرت لمحمد فرأيت وجهه تعلوه الحمرة من الخجل، وأخذ يطيب خاطري بإشارات من يده.

كان أيمن مازال يلهو إلى جوارى ويقتل ببندقيته البلاستيكية أعداءه الوهميين، أطلق منها عدة طلقات ثم انبطح أرضاً. أثناء سقوطه أزاحت قدمه الستارة فحركاتها فبدا طرف المظروف الذي وضعته خلفها. نظرت

سعاد إليه وأشارت قائلة:

- ما هذا.

شعرت بأن قلبي يكاد أن يتوقف للحظة، ثم بدأت دقاته تتسارع حتى أحسست بجسدي كله ينتفض. شعرت بتنميل يسري من أخمص قدمي حتى وصل لرأسي التي ثقلت، وما عدت قادرًا على حملها أو تحريكها. نظرت لمحمد كي أرى رد فعله لما قالته أمه، فلم أستطع تيين ملاحظه فقد تشوش بصري وصار محمد اثنين.

رفع محمد رأسه لأعلى وهو جالس وقال:

- لا يوجد شيء.

ثم مال ناحيتي واقترب ما أمكنه وقال هامسًا:

- كثيرًا ما يهين إليها وجود أشياء غير موجودة.

فقلت له سعاد بتصميم:

- لا بل يوجد، انظر.

استجابة لأوامر أمه كي يرضيها، ألقى نظرة عابرة ولم يدق والتفت

إليها وقال:

- لا يوجد شيء يا أمي. هيا بنا نذهب لغرفتك، بإذنك سيد موسى،

أنا آسف... حقيقة آسف.

- لا عليك.

وقمت بمساعدته كي ينقل أمه لغرفتها وأيضًا لأداري بجسدي الستارة من خلفي. سرت بجوارهما حتى اجتازا باب الغرفة، وقد عادت

سعاد للدندنة «ملء قلبي شوق، ملء قلبي شوق، وملء كياني، هذه ليلتي، ليلتي، فقف يا زماني». ثم أخذت تكرر «فقف يا زماني، فقف يا زماني، فقف يا زماني...» وأنا واقف عند باب الغرفة أستمع لها حتى خفت صوتها تدريجياً ثم اختفى.

طفرت دمعتان من عيني، وانتابني إحساس عميق بعبث هذه الدنيا. هذه المسكينة لا أظنها مصابة بالزهايمر، وإنما مصابة بالحب، بلوعة الفراق وحرقة الاشتياق. اختزنت مشاعرها حتى كبر الأبناء وتحلصت من عبء مسئوليتهم، ثم تفرغت للعودة للوراء والعيش في ذكريات ماضي لا تجد نفسها إلا بين أحضانه. وددت لو لحقت بها وقلت لها الحقيقة ربما خفف هذا عنها، فلأستجمع شجاعتي وأذهب خلفها وأصارحها، ما الذي يمكن أن يحدث... أيامي وأيامها في هذه الدنيا معدودة. خطوت خطوة خلفها ثم توقفت، فلأعود وأخذ المظروف وأذهب إليها وليكن ما يكون.

عدت لحجرة الصالون فرأيت أيمن ممسكاً بالمظروف بين يديه وأخرج محتوياته وأخذ يلهو بالخنجر. ما إن رأيت هذا حتى سارعت إلى باب الشقة وفتحته بحذر، هبطت الدرج وأنا أتمنى لو استطعت أن أقفز كل درجتين أو ثلاثاً سوياً، وصلت للشارع وأشرت لأول سيارة أجرة قابلتني وقفزت بداخلها وأنا أقول:
حارة اليهود. سأعطيك ما تشاء.

راحيل . داوود . موسى

القاهرة

كادت القهوة أن تفور وتنسكب، شردت وأنا أعدها. انشغل خاطري بإجابة سؤال ألح عليّ ولا أجد منه مهرباً. أأسعد بالطرقات التي ازدادت على بابي في الفترة الأخيرة، أم أشقى لأنها عكرت صفو الهدوء الذي خيم على حياتي لعشرات السنين؟ آخر طرقات داعبت سمعي كانت هذا الصباح منذ ساعتين فقط. قمت بسرعة لأفتح الباب، بلا عصا أتوكأ عليها، بدون آلام في المفاصل، بلهفة افتقدتها، بشوق لحدث يثير تحفزي، بدماء اندفعت في عروقي فأحيت خمول جسدي. حينها كنت سعيدة، نعم، أكيد كنت سعيدة بطرقات الباب التي ازدادت، حتى لو أرهقتني، ظننت أنها لن تعكر صفو هدوئي المزعوم الذي كاد أن يقضي على وجودي الحقيقي.

فرحتي بلقاء داوود وأبراهام فاقت قدرتي على الاحتمال. ظللت أبكي بين ذراعيه غير مصدقة. حتى أفقت على طلبه الذي من أجله قفز هذا السؤال وظلت أجابته تراوحي بين نعم ولا. هل سعدت أو شقيت

بكثرة الطرقات على بابي؟

لم أستطع حمل الصينية، ألم المفاصل عاودني، أريد عصاي لأتوكأ عليها. حملها أبراهام عني وسبقني لغرفة المعيشة. سرت على مهل لأفكر «بماذا أجيب طلب داوود؟». لو قلت لا فقد أضعت فرصة في ثراء لن تعوض وخيت رجاء أخي. وإذا أجبته لطلبه فقد خنت عمري كله، لن أجرؤ على مناجاة مصطفي، سأخجل عندما أطالع وجوه فقراء الحارة كل يوم، ستفقد مريثة توماس جراي قيمتها.

توقفت في منتصف الطريق إلى غرفة المعيشة، مترددة لا أستطيع حسم أمري. اتجهت لغرفة النوم، جلست على حافة الفراش أحاول شحذ أفكاري. فتحت خزانة الملابس، سحبت الدرج العلوي وأخرجت منه صندوقاً خشبياً قديماً. حملته وتوجهت لغرفة المعيشة.

جلست بجوار داوود، ارتشفت رشفة من فنجان القهوة، فتحت الصندوق وأخرجت صورة وقلت له:

انظر، هذه صورتك أنت وموسى في أول يوم لذهابكما للمدرسة. لم تكونا تجاوزتما السادسة بعد.

أشرق وجهه بابتسامة طفولة مندهشة وقال:

يا، انظري للمريلة.

— وهذه في شرفة منزلنا بالظاهر وهذا هو الكلب الذي أحضرتموه أنت

وموسى وعزيز وخبأتموه في الشرفة واختلستم كاميرا أبي كي نصوره.

— نعم... نعم.

- وهذه، كانت في سيدي بشر بالإسكندرية.
أطلق ضحكة عالية وهو يقول:
- جميعنا بالميوهات حتى أمي وأبي.
- نعم أمك التي كانت تعتز بأنها مصرية.
- توقف عن الضحك وتفرس في وجهي كأنها يتساءل عما أعني.
فأكملت:
- وهذه صورة أمك وأبيك مع السيد الفريديو والسيد بابانديروس.
تذكرهما.
- قليلًا.
- وهذه شهادة ميلادك. اسم المولود: داوود. اسم الأب: حسونة.
اسم الأم: ناتاليا. الديانة: يهودي. الجنسية: مصري.
- أسقطوا عني الجنسية.
- أنا مازلت مصرية.
- اضطرونا للفرار.
- بمحض إرادتنا. كالكثير من اليونانيين والإيطاليين الذين لم
يستطيعوا التأقلم مع إجراءات التمهير والتعريب والتأميم، مع مشروع
ناصر القومي، وليس لأنهم طوردوا أو اضطهدوا. لم نسمع عن جماعات
إيطالية أو يونانية تطالب بحقوقها في أملاكها في مصر. لماذا نحن فقط؟
لماذا نحاول دائمًا أن نثير سخط الآخرين تجاهنا. هنا في مصر لم يتم
الاستيلاء على أي شيء من أملاكنا ولم نتعرض لأي ضغوط لبيعها بسعر

غير عادل أو تركها أو التنازل عنها كما حدث في بولندا ورومانيا والمجر.

- راحيل هذه فرصتي الأخيرة. لقد خسرت كل مالي.

- ساحمني يا أخي، لو وافقتك لخسرت كل عمري.

أطرق داوود صامتًا، فأردت أن يفهم أن الموضوع منتهٍ وأني لن

أستجيب لطلبه وأخون أهل بلدي وذلك بتغيير دفة الحديث، فقلت:

- ها، قل لي هل تعلم سارة بمقدمكما.

- لم نخبرها بعد.

- فلنتصل بها الآن كي تأتي هي وزوجها.

أعتقد أنه فهم مقصدي وأنه لا داعي للكثير من الجدل حول موضوع

مطالبات اليهود بحقوق وهمية، فاكتمتُ بأن هز رأسه موافقًا ونهض

متوجهًا للشرفة.

~~~~~

خرجت للشرفة ريثما تنتهي راحيل من بحثها عن رقم الهاتف الذي

تركته لها سارة. التقط أنفي رائحة نفاذة تغلغت إلى أعماق ذاكرتي لتحبي

هذا المشهد القديم، رؤوس الثوم معقودة مع بعضها البعض ومعلقة على

حائط الشرفة كي تتخلص من مائها وتصبح نكهة حبات الثوم أكثر

تركيزًا. ياه، مازالت راحيل تحافظ على تلك العادة التي ورثتها أُمي عن

جدتي. أمسكتُ بصفيرة الثوم والتفتُ لراحيل باسمًا ورفعتها عاليًا كأني

أقول لها: «ما هذا؟». ابتسمت وهي ترفع يدها بحمية وتقول:

- سأذيقك اليوم مخلل الثوم بزيت الزيتون.

ثم أردفت:

- انتظر الآن، الهاتف يرن.

لا تقولي لسارة إنني هنا، فلتكن مفاجأة.

رددت بيني وبين نفسي ساخراً: «مخلل الثوم بزيت الزيتون، زيت الزيتون هناك في عين كارم».

قلبت رؤوس الثوم في يدي. حبات الثوم هذه تكتسب قيمتها كلما صارت أكثر قدمًا. مررت يدي فوق رؤوس الثوم فتفتت شعيرات جذوره الجافة الضعيفة التي لا تقوى على تثبيته في التربة بقوة، الريح البسيطة قد تقتلعه، ولهذا يظل نبتة صغيرة تتجاوز سطح الأرض بقليل، ولا تتطلع يوماً لتصير شجرة كبيرة تضرب بجذورها في الأعماق... شجرة الزيتون تضرب بجذورها في أعماق الأرض وتصد أمام الرياح لعشرات السنين، فأيهما أحق بالبقاء... الاثنان، لا شك أن الاثنين يستحقان البقاء خاصة إذا خللنا الثوم في زيت الزيتون. أعدت ضفيرة الثوم لمكانها ووقفت مواجهًا لسور الشرفة متطلعًا للحارة.

بدأت حياتي هنا بين ضفائر الثوم المعلقة في الشرفات، ولكنني لا أعرف أين أو كيف سأنهيها. أتت الرياح في 2008 فاقتلعت جذوري الضعيفة التي حاولت ضربها في أمريكا، وأطاحت بي، وعصفت بما بقي لدي من حسن تدبير وسلامة تفكير، فسعيت وراء أوهام أعادتنني بظهري للخلف. بدأت من القاهرة لباريس لنيويورك، وعدت من نيويورك لباريس للقاهرة. نشأت في حارة اليهود في القاهرة وتعلمت في مدرسة

كاثوليكية مسيحية، تفتحت في باريس ودرست الفلسفة في السوربون،  
 نضجت في نيويورك وعملت بالتجارة. عشت في ظل الليبرالية والتي  
 انتهت باشتراكية عسكرية في القاهرة حيث كان أسلوب المعيشة هو  
 أفضل أسلوب للحياة. وعشت الحرية العلمانية في باريس حيث كان  
 أسلوب المعيشة هو أفضل أسلوب للحياة. وأخرجت أظافري وأنيابي  
 وعشت الرأسمالية المتوحشة في نيويورك حيث كان أسلوب المعيشة هو  
 أفضل أسلوب للحياة. حيرة لا أدري لها من خلاص. عما أبحث؟ أعن  
 المال؟ وماذا يفعل بالمال شيخ فان مثلي؟ أأزمتي حقاً أزمة مالية؟ أم أنها  
 حيرة البحث عن هوية، حيرة الانتماء، لم لا أنتمي للحضارة. جذبتني  
 أمني بكل قوتها للأصول اليهودية فعشنا جنباً لجنب بجوار القرن الحادي  
 عشر في ظل التلمود ومثالية الحاسيدية، وشدني أبي بعنف للقرن العشرين  
 لأعيش بأيديولوجية الصهيونية، فنبذت كليهما وقررت أن أبحث عن  
 هويتي الخاصة بعيداً عن اليهودية وتعقيداتها وعن الصهيونية وعنصريتها  
 وذاتيتها. فماذا جنيت سوى الحيرة.. زوجة مسيحية، ابنة مسلمة، ابن  
 ملحد، وشيخ ضائع. أأكون هذا لأني لم أهاجر لإسرائيل، فظلت روحي  
 هائمة وظللت أعاني آلام الشتات، ولكن ها هو موسى يعيش نفس  
 حيرتي.

من أنا؟ ماذا جنيت من وراء كل هذا السعي؟ من أجل ماذا كل تلك  
 الرحلة؟ لا أرى لها نهاية سوى ما حدث بالأمس، حررت روحاً من  
 أسرها، أعدت أبو إيداء لقريته. أيمكن حقاً أن يكون الهدف من كل تلك

الرحلة هو أن أعيد أبو إياد لبلده كي يعيد ضرب جذوره في أرضه بجوار أشجار زيتونه، أن أتضامن بغير قصد مع مضطهد فأنقذه. أتذكر نظرات العرفان في عينيه، إنها تسوى ألف هوية وتقضي على كل حيرة. فماذا يعني أن أكون يهوديا أو صهيونيا، مصريا أو أمريكيا، هل يمكن أن تتوافق الجوانب المختلفة لهويتي، أو ماذا يعني أن أكون بلا هوية، أو بهوية هجينة بها نقائص وثغرات كقطعة موزاييك قد تشكل وقد لا تشكل لوحة فنية. هل أنا مضطر للبحث عن هوية؟ تعلمت في السوربون قول سبينوزا «أن تكون يعني أن تعرف، وأن تعرف يعني أن تفعل»، أنا كنت وعرفت وفعلت ألا يكفي هذا. ألا يعني عن البحث عن هوية. دائما عشت داخل نفسي، فلم أريد الآن غطاء كظهر السلحفاة. نزعت جذوري يوم تركت مصر ولم تنم مرة أخرى سواء في فرنسا أو أمريكا وبدلاً من أن أعمل على إعادة تثبيتها كأبي إياد أريد أن أجتها تماماً بقبولي هذه المهمة السخيفة. أليس هذا غباء؟ أو ربما هي محاولة إنقاذ ما مضى؟ وهل يمكن إصلاح الماضي؟.....

انتابني خليط متشابك من المشاعر والمخاوف، فضربت بيدي سور الشرفة الحديدي، ثم قبضت عليه بشدة وأنا أقول في نفسي «اهدأ، اهدأ يا داوود»...

شعرت بأنفاس تتردد من خلفي وقبل أن ألتفت لأرى مَنْ، سمعته يقول بتهكم:

- للمرة الثانية أنقذ ذكرى من التلف.

التفتُ إليه ورددت اسمه بتلقائية:

- أبراهام.

ثم تداركت:

- لا تغضب بينو... بينو.

فابتسم وربت على ظهري وهو واقف بجواري يتطلع من الشرفة وقال:

- ليس عليك يا أبي، أبراهام أو بينو ما عاد بهم.

- لا بل بينو، فلتظل بينو أفضل لك.

صاحت راحيل من الداخل:

- ستأتي سارة وزوجها لتناول طعام الغداء معنا. ولكنها ستتأخر لحين عودة زوجها من عمله، ليس قبل المغرب. أعددت لكم الأصناف التي تحبونها... بامية بلحم الضأن، رقاق باللحم المفروم، ومحشو كرنب. امتلأ أنفي بروائح طبخ طالما عشقتها، أغمضت عيني محاولاً التلذذ بتذكر مذاقها الشهوي على أطراف لساني، ولكن سرعان ما ضاعت حلاوة المذاق الشهوي، إذ أتممت راحيل قولها:

- وبالطبع لم أنسَ فطير الماتسا، فاليوم ليلة عيد الفصح.

غلبني الضحك لتخيلي مشهد موسى ممسكاً في يده بفطيرة الماتسا يقلبها ولا يدري كيف يتخلص منها. فقلت لراحيل ضاحكاً:

- سيسعد موسى أيضاً بهذا الطعام الرائع... خاصة بفطير الماتسا.

~~~~~

عندما عدت من الخارج، فوجئت بوجود داوود وأبراهام، أفصح داوود عن كل ما داراه عني طيلة فترة مكوثنا في باريس، وحكى عن رحلته إلى عين كارم وعن سبب قدومه لمصر. لم أعلق واكتفيت برفع كتفي لأعلى ولم أحدد مع من أتضامن، أمع راحيل أم داوود؟

وقفت أمام صورة جدتي المعلقة في غرفة المعيشة متصدرة الحائط الأيمن ومزينة بشريط أسود يقطع زاويتها اليمنى. هتفت منادياً على راحيل، فأتت مرتدية مريلة المطبخ وممسكة في يدها ملعقة كبيرة لتقليب الطعام وضعت تحتها قطعة من القماش لمنع تساقط قطرات مما بداخلها، دفعتها تجاهي وهي تقول:

- ذق، وقل لي هل الملح مضبوط.

- ما هذا.

- شوربة لسان عصفور.

- الله.

مددت شفتي وشفطت من الحساء، ثم قلت:

- رائعة... ما هذه الروائح الزكية، إنني أتضور جوعاً.

- هانت، اصبر ساعة واحدة... لم تنادي عليّ.

- أريد أن أزور قبر جدتي. أما زال قبرها قائماً؟

- بالطبع قبرها وقبر جدك وخالتك هيلينا، الجميع مازالت مقابرهم

موجودة في البساتين وأزورها بانتظام، وقد قمنا ببناء سور حولها لحمايتها من محاولات الراغبين في احتلالها للسكن بها.

- تدخل داوود قائلاً:
- أرايت؟ إن لنا أملاً نطالب بها.
- أجابته راحيل باندهاش:
- أتريد أن تطالب بقبر جدتك؟!
- ثم أكملت بغضب:
- لا بأس فلتحمل رفاتنا وترحل.
- قلت مهدئاً من غضبها:
- داوود فقط أراد أن...
- إذا أراد أن يكون مصرياً فأهلاً به، نحن نطالب بحقوقنا كمواطنين مصريين.
- هل يمكن حقاً أن نكون مصريين.
- أنت مصري فعلاً. ما عليك سوى أن تتقدم بطلب إقامة دائمة. ثم تطالب باسترداد جنسيتك المصرية.
- أنظنين أن هذا ممكن.
- ولم لا. أنت في الأصل مصري. ولك هنا بيت مازالت حجبته باسم جدك. وأختك مصرية مقيمة في مصر ولم تغادرها.
- قلت لها مبدئياً إعجابي:
- أندرين يا راحيل أني أغبطك.
- نظرت إليّ مندهشة وقالت:
- أنا؟!

- نعم، فأنت الوحيدة التي تعرف من هي. أما نحن...
 - بإمكانك تأكيد هويتك. هذا ليس بالأمر المستحيل.
 - كيف؟

- فلتجعل هويتك هي هويتنا الإنسانية المشتركة، دع الأساطير
 والأيديولوجيات والنظريات جانبًا، وابحث عن الإنسان، أيًا ما يكون،
 لا تضع حواجز مسبقة. ابحث عن الجمال، عن الحب. ابحث عن الله،
 عن مراده من خلقك، وانبذ كل ما دون ذلك. صدقني يا موسى حينئذ
 ستجد نفسك.

- لقد صرت فيلسوفة يا راحيل.
 - من يعيش في مصر يصير فيلسوفًا. ومن يعيش طويلًا يصير حكيماً.
 - ولكن أليس من حقنا البحث عن فرصة أفضل.
 - بالطبع، ولكن ليس على حساب الآخرين ومخلوطاً بدمائهم.
 تلت قولها هذا بضحكة من قلبها وهي تقول:
 - كفطير الماتسا الذي تمقته.
 ضحكنا سويًا، وسادت بيننا لحظات من الصمت، قطعتها متسائلًا:
 - أتظنين أن بإمكاننا الاستقرار؟
 - لا شك لدي في ذلك.
 - ألن نرحل ثانية.
 - افهم ما قلته جيدًا ولن تجد نفسك مضطرًا للرحيل.
 - أليس هذا مصيرًا محتومًا فرض علينا، وقدّرًا لا فرار منه.

- موسى... أنا ولدت هنا وسأموت هنا. ليس هناك مصير محتوم، نحن من نصنع مصائرنا من خلال قراءتنا لماضيها وفهمنا لحاضرنا ورؤيتنا لمستقبلنا.. بإذنكما كي أنتهي من تسوية الطعام.

~~~~~

عندما ارتفع صوت المؤذن آتياً من المسجد القريب معلناً للمسلمين عن حلول موعد صلاة المغرب. قامت سارة وزوجها بهاء وانتحيا جانباً يقيمان الصلاة، وتحلق ثلاثتنا، أنا وراحيل وداوود، حول مائدة طعام تحوي عدة أصناف ولكن على رأسها فطير الماتسا، أما أبراهام فقد ظل جالساً على الأريكة بغرفة المعيشة.

قلت بعبارة ممطوطة توحى بتذكر شيء بعيد:  
- ياه، آخر مرة اجتمعنا سوياً كان منذ أكثر من عشرين عاماً.  
قال داوود:

- نعم في باريس في بيت عزيز.  
قالت راحيل:

- أعد عزيز يومها مائدة طعام كل أصنافها طبخات مصرية... ولكنها كانت خالية من فطير الماتسا.

ثم أمسكت بقطعة من فطير الماتسا والتفتت تجاهي وقالت:

- أدريت الآن يا موسى لمن نخبز الفطير.

نظرت لها وأرسلت إشارة موافقة بعيني، فقالت باسمه:

- لا تخف فطعمه غير سيئ ولم يعجن بدماء صبي مسيحي.. إذ لا

ضير من بعض التعديلات غير الجوهرية.

صمت قليلاً ثم قالت:

- أو حتى الجوهرية، لا يهم. فعصير الرمان ومنقوع الكر كديه يغنيان عن الدم.

ثم نهضت واقفة وقالت:

- لا يهم الآن ما إذا كان من سيتلو الدعاء رجلاً أم امرأة، سأقول وترددان خلفي.

تلت الدعاء ونحن نردد خلفها: «أن هذا هو خبز بلائنا، نحن اليوم عبيد ولكننا سنكون في العام القادم رجالاً أحراراً، ونحن اليوم موجودون هنا، ولعلنا نكون العام القادم في القدس».

قضمت قضمة من فطير الماتسا، ولكني مازلت لا أستسيغ طعم الفطير غير المخمر، حتى بعد التعديلات، فأخفيت بقية فطيرتي كي أتخلص منها فيما بعد.

\*\*\*\*\*

تصت